

القسم الرابع
عشر ملات

الفصل الحادى عشر الأوضاع الأوربية

١ - الغزوات الأنجلوسكسونية

إن المدونات التاريخية والسجلات المكتوبة عن تاريخ الجزر البريطانية بين ٤٠٠ و ٥٠٠ للميلاد تكاد تكون معدومة تماماً . فهى حقبة نفشاها الظلمات ، كما تنسدل عليها غمامات أساطير الملك آرثر. على أن ما تم فى السنوات الأخيرة من دراسة إقليمية لأسماء الأماكن، ومن التنقيب عن المساكن والجبانات وعن خطوط الحدود واستحكامات الدفاع الترابية ، والمسح الجوى للأرض وما بذل من جهود لإقامة موازين يعتمد عليها لتحديد تواريخ الفخار والعملة والمصنوعات المعدنية، قد جمع بين أيدينا من المواد ما يصلح لإعادة تكوين صورة للطريق الذى سلكته طوائف المغيرين المختلفة، وعن طبيعة استيطانهم ومصير السكان الرومان البريطانيين. وربما أمكن فى النهاية تركيب هذه النتائج على حال يؤلف صورة لهذه القرون المظلمة . على أنه يمكن فى الحين نفسه ملاحظة بعض العوامل الهامة .

وقد تعرض ساحل إنجلترا لتغيرات كبيرة منذ أيام العصور الوسطى^(١). فإن الساحل الشرقى والجنوبى الممتد من مصب نهر فيرت إلى جزيرة ويت ، تناثرت عليه عند ذلك على التماقب مرتفعات صخرية وعرة ومستنقعات متخلطة عن المد . وكان الدفاع عن الشواطئ الصخرية سهلاً ميسوراً ، فلم يكن فيها ما يحتاج إلى حراسة إلا ما يتخلل تلك الصخور من ثغرات تجرى فيها

(١) انظر الخرائط المساحية لبريطانيا الرومانية

مصببات الأنهار ، وأكبر شاهد على ذلك بقايا محطات الإرشاد والقلاع الساحلية التي ترجع إلى العصر الروماني المتأخر ، وكلها توضح تلك الحقيقة . على أن مناطق المستنقعات الضحلة كانت مفتوحة لزوارق المغيرين . وكان مصب نهر همبر وهو الذي يمتد طويلاً إلى الداخل يكون منطقة طينية مشبعة بالماء ، كما أن الظروف نفسها كانت تتكرر على معيار أكبر حول منطقة الواش (The wash) حيث امتدت منطقة البطائح حتى وصلت إلى ستامفورد وكبريدج . « وكان المغير الناهب ... يجد القنوات الرائدة خير معين له على حمل زورقه إلى جوف البلاد ، وكان مستطيعاً أن يتخذ لنفسه على كثير من الجزائر القائمة بالمستنقعات مخيمات يستجم فيها من متاعب القتال ويجمع فيها غنائمه دون أن يكدر عليه أحد صفوه ^(١) » .

جغرافية بريطانيا

أما في داخل البلاد فإن لطبيعة الأرض صورة أشد استرعاء للنظر . فإن صرف مياه المستنقعات وإزالة الغابات قد غيرت وجه مناطقها الريفية ، وذلك أن شطراً كبيراً من إنجلترا كانت تغطيه في عصر الرومان والسكسون غابات كثيفة ، على حين أن الوديان غالباً ما كانت مستنقعات لا سبيل إلى اجتيازها . ومن هنا تحسنت طبيعة الأرض وجغرافية البلاد إلى حد كبير في تاريخ المستوطنات الأولى وتكوين ممالك السكسون . وكان مصب الهمبر الذي تنصل به المستنقعات من الجانبيين تحف به من الغرب غابة إلمت (Elmet) ، التي كانت تمتد إلى منحدرات تلال بينين (Pennine) ؛ ومن ثم فإن المصب والمستنقع والغابة كانت تؤلف على هذا الوجه حاجزاً يحول دون الاتصال بين الميدلاند (وسط إنجلترا) والشمال . وكانت منطقة فن (Fen) تفصل بين آنجليا الشرقية وبين المنطقة

(١) انظر ١٠٠ . وليمسون في : « The Evolution of England » (أكسفورد

الوسطى ، وذلك مثلها كان نطاق الغابات الكبير الذى يمتد جنوباً بغرب من
الفنز (Fens) إلى إينج ، يعزل إيسكس (Essex) ويحول دون التوغل
غرباً . وكانت غابة أندردسويلد (Andredsweald) هى أضخم هذه الغابات
وتغطى شقة عريضة من الأرض تمتد فى الواقع بين ونشستر وهاستنجز ، غير
تاركة سوى شقة من الأرض لا يتجاوز عرضها بضعة أميال تمتد فيها تلال
الساوث داونز (South Downs) محاذية للبحر . ويقول وليمسون إنه :
« فى عهد متأخر هو القرن الثامن عشر نفسه ، يوم تم قطع معظم غابات منطقة
ويلد ، كان من العسير بلوغ ساحل ساسكس من لندن فى أثناء الشطر الأكبر
من السنة^(١) » . وفى أقصى الغرب ، كان نطاق الغابات الذى تبقى منه إلى اليوم
غابة كارنبورن تشيس (Carnborne Chase) - يسد الطريق إلى وست
دورست وساوث ثومرست فى وجه المغيرين الزاحفين شمالاً من ساونهامبتون
واتر (Southampton Water) . فإذا لم يغيب عن بالنا انتشار المستنقعات
والغابات على هذا النحو المذكور ، يتجلى لنا أهمية السدود القراية مثل بوكلى
دايك (Bokerly Dyke) ، التى كانت تحمى المستوطنات الرومانية البريطانية
بمنطقة كارنبورن تشيس . ومع أنه لم يبق من السور المقام بداخل الريف سوى
بضعة أميال ، فإنه كان فى تلك الأزمنة يحرس المدخل المؤدى إلى منطقة تحميها
من الجهات الأخرى موانع طبيعية .

والحق أن مصائر مختلف الممالك يفسرها موقعها ويحددها إلى حد كبير . فإن
ممالك ساسكس وكنت وباسكس وإيست آنجليا حرمت الأهمية السياسية ،
وذلك بسبب توقف اتساع رقعتها ، بينما استطاعت نورثمبريا ومرسيا وويسكس
بسط رقعتها على حساب البريطانيين الرومان ، فكسبت بذلك اتساعاً
فى رقعتها فضلاً عن زيادة فى تنوع ثقافتها وسكانها ، وبذا برزت كل منهن على

(١) ج . ١ . وليمسون بالموضع السابق .

التعاقب بوصفها أقوى وحدة بإنجلترا في أثناء القرن السابع والثامن والتاسع .
ولكن ويسكس كانت الدولة الوحيدة التي أحرزت تفوقاً سياسياً حقا ، على أن
سيادتها تتجاوز بنا مجال هذا الكتاب . أما نورثمبريا فإن الخلافات بين
برنيكيا وديرا مرقتهما من الداخل ، على الرغم من أنها كانت تضم وهي في أوج
عظمتها شرق اسكتلندة جنوبي نهر فورث وشمال إنجلترا حتى نهر ريبيل
ونهر يوركشير أوز ، كما أنه حدث أكثر من مرة أن زعماء مرسيا الوثنين
تحدوا ملوكها المسيحيين . ومما عجل باضمحلها الذي بدأ بقوة في أثناء القرن
الثامن ، غارات النهب المخربة التي قام بها السكندنافيون القدماء المسمون أهل
الشمال (Northmen) . وكانت مرسيا منذ البداية دولة مختلطة ، فكانت
خليطاً من عصابات الحرب والمغامرين الذين ينتمون إلى أصول مختلفة ، كما
أنها شغلت المناطق المتراصة بالميدلاند الغربية التي كانت مدار نزاع دائم ،
والتي لا شك أنها كانت في أثناء السنوات الأولى من الغزوات مسرحاً لامتزاج
السكات والسكسون ومشهداً للتوفيق بين حضارتيهما . ولما سيطر عليها من
تامويرث ، مركز إنجلترا الجغرافي الواقع على والتلنج ستريت ، زعماء أكفاء قساة
أشداء ، فإنها بشرت في لحظة من اللحظات بقيام تقسيم ثلاثي لإنجلترا يمتد إلى عصور
مستقبلية ، وتكون فيه تامويرث فيما يحتمل فضلا عن لتشفيد ، عاصمة للميدلاند
ومستقراً لكرسي الأسقفية بها . وقد انبسط سلطانها في بعض الفترات على
سكان منطقة پيك في الشمال وعلى سكان تشيشير وجنوب لانكشير وعلى
ورسترشير هويكاس في الجنوب ، على حين أن الحدود الطويلة التي كانت
تفصل بين سكان ركن (Wre kin) وبين ممالك ويلز كان يكملها سد أوبا ،
وهذا السد من صنع أوبا أشهر ملوك مرسيا ، وهو الذي تبادل الرسائل مع
شرلمان ، كما أنه أهم شخصية بإنجلترا عند نهاية القرن الثامن .

على أن زوال حكم الرومان من إنجلترا ، لا يزال حتى اليوم من أعوص الأسرار التاريخية . وربما جاز لنا أن نذهب إلى أنه متى اجتمعت لنا معلومات أوفى ، فإن ذلك قد يقلل من أهمية التواريخ الفعلية لزوال الحكم الرومانى بهذه الجزيرة سواء حدث ذلك فى ٤٠٧ أو ٤٤٠ م . والراجح أن إعادة استيليكو تنظيم التحصينات الساحلية حوالى نهاية القرن الرابع هى آخر محاولة جدية قامت بها الإمبراطورية للاحتفاظ بولايتها النائية . وتدل الأحوال المماثلة التى سادت بلاد الغالة ، أن الانتقال إلى حكم البرابرة لم يكن حادثة مفردة بل عملية تدريجية تمت رويداً رويداً . ذلك أن ما أصاب الحكومة المركزية من الضعف البطيء أفضى إلى ذبوع الارتباك والفوضى الداخلية بإنجلترا ، وهو وضع دعا أصحاب الأملاك والموظفين المحليين إلى تسليح أتباعهم دفاعاً عن النفس ، كما دعا الأهلىن إلى هجران الريف المكشوف والالتجاء إلى المدن المسورة ، ومن المعروف أن هجمات البرابرة الأولى كان يعقبها فى العادة فترة هدوء نسبي يتسرب فيها البرابرة فى هدوء يختلف شدة وضعفاً بحسب الأحوال . وهناك من الدلائل ما يشير إلى حدوث هذه الأحوال فى بريطانيا . فنجد عام ٢٥٠ للميلاد تعرضت السواحل لغارات النهب من الشرق والغرب ، من قراصنة من السكسون والإرلنديين ، ولم تكن غارات الجرمان فى القرن الخامس إلا القمة التى بلغتها تلك الغارات ، التى كان يعقبها فيما بعد هجرات العائلات إلى البلاد . ومن جهة أخرى لا تعوزنا الشواهد على تداعى الحضارة الرومانية بتلك الجزيرة إلى حد ما ، منذ زمن مبكر يرجع إلى القرن الثالث الميلادى . وآية ذلك تدهور فن البناء وتقنياته . وقد حدث حتى فى الأراضى المنخفضة نفسها ، وهى من المناطق التى اكتملت بها الصبغة الرومانية ، أن اشتداد الشعور بالافتقار إلى الأمن والطمأنينة ، يدل عليه تحصين المدن ، على حين أن ما قام على الساحل السكسونى من قلاع مرتفعة مشيدة من الحجارة ،

يغلب عليها طابع العصور الوسطى ، يؤكد الأخطار التي تعرض لها سكان المناطق الساحلية على الدوام . على أن الضربة القاصمة التي وجهت إلى كيان الحياة البريطانية في العصر الروماني ، هي الغارة الضخمة التي حدثت في ٣٦٧ . ففي تلك السنة اجتاحت البلاد قوة مؤلفة من البيكيثيين والسكسون والإرلنديين ، فدمرت دور الضياع ، وألحقت بنظام الزراعة في إنجلترا من الضرر والأذى ما لا سبيل إلى إصلاحه . ويشهد بخط سيرهم سلسلة متصلة الحلقات من الدور الريفية المحروقة . وأكبر دليل على النتائج الثابتة المترتبة على تلك الغارة أن ما اكتشف من كنوز المال في المواضع الرومانية المنعزلة ، انخفضت قيمتها بعد هذا العهد . ولاشك أن القرن التالي ظل يشهد الاضمحلال يدب في حضارة الجزيرة متواصلاً ، وإن كان ذلك بصورة منقطعة ، فقد هجرت الدور الريفية ، على الرغم من أن معظم المدن المحصنة استمرت فيها الحياة بصورة ما حتى صميم القرن الخامس . وفي المناطق الريفية عادت المتاريس الترابية والمخيمات المنصوبة فوق أعالي التلال (التي ترجع إلى عهد ما قبل الرومان) فاتخذت للمرة الثانية ملتجأً للسكان . وتعمّض ضغط الغارات الخارجية والنضال الداخلي ، عن ظهور الزعماء المحليين كما هو الشأن في جهات أخرى من الإمبراطورية ، وعندئذ يتعرض زحف المغيرين البرابرة في الجهات المتفرقة لنكسة مؤقنة .

على أنه لا يصح هنا القياس بما يسود القارة الأوروبية من أحوال . ذلك أن الأنجلوسكسون كانوا شعباً يختلف اختلافاً ملحوظاً عن القبائل الجرمانية ، الذين تعرضت أفكارهم بل حتى لغتهم لتأثيرات بالغة نتيجة لاتصالهم بروما طوال أربعة قرون على امتداد خطى حدود الراين والدانوب . هذا إلى أن بريطانيا التي خربها المغير وسلبها كل نظام ، ما كانت تستطيع أن تقدم للوافدين إليها تلك الآثار الرائعة ، التي تعتبر قواماً صلباً للحياة المتمدنية ،

والتي يصادفونها في جنوب فرنسا وشمال إيطاليا . هذا إلى أن زعماء السكسون كانوا يفتقرون إلى ذلك الإحساس بالإعجاب الذي استشعره زعيم مثل ألاريك أو ثيودوريك نحو النظم الرومانية ، وإلى براعة كلوفيس في التلاؤم معها ، وإلى إخلاد الدوقات اللومباردين إلى حياة المدن . وتشير شذرات من الشواهد المتناثرة إشارات تغشاها الريب إلى ردود أفعالهم إزاء الأقواس المخربة والأعمدة المتبقية عن المباني الرومانية . إذ أثارت فيهم إحساساً بالخوف والنفور المقترن بالقلق ، فخيّل إليهم أنها يكن بها أشباح من الموتى بل قوى أشد خفاء حتى من الأشباح ، مما يستشعره الإنسان في القاعات الحجرية والقبور التي ترجع إلى العصور الخالية : وفضلاً عن ذلك فإن ما أقامه السكسون من مستقرات كان يتجنب في العادة المواضيع الرومانية . وكأني بالشعور العام في مجمله ليس إلا شعور نزلاء هبطوا إقليماً مهجوراً تجرد من معظم سكانه ، وهو أمر تشهد به الأدلة الوفيرة بمقاطعات إنجلترة الشرقية والجنوبية ، التي يظهر أن ما كان لدى السكلت فيها من أسماء أما كن وديانة وعرف قد توارت من الوجود إلى حد كبير عند نهاية القرن السادس . أجل إن جيوبا ويلزية محصورة بين أملاك السكسون كانت توجد في هذه المنطقة ، حيث تعيش بين الغابات أو وسط المستنقعات ، إما لأن الفاتحين أبقوا عليها ، وإما لأنهم لم يستكشفوها ، كما أنه حدث في روسيا ونورمبيريا وويسكس ، أن السكان السابقين قد توصلوا على التدريج إلى الاتفاق مع المغيرين المنتشرين غرباً ، على الرغم من أن دية البريطانى تقل عن دية السكونى الذى ينتمى إلى أدنى فئة من الأحرار ، شأنه في ذلك شأن الغاليين الرومان في ظل حكم الفرنجة . وهناك سبب آخر يدعونا إلى الظن أن مهارة الصانع البريطانى بمقاطعة كنت وغيرها من المقاطعات لم تفلت من يده نهائياً في أثناء فوضى الغزو ومحنه وبعدها .

حضارة نورثمبوريا

وتبدو أمامنا على أرض القارة الأوروبية صورة مماثلة عندما نتأمل التطورات التالية التي أملت بالملك الأنجلوسكسونية ، ذلك أن ممارسة طرق الرومان في الإدارة أسهمت في نمو الروح الاستبدادية عند زعماء القبائل الجرمانية النازلة بداخل الإمبراطورية^(١) ، وشجعت على تطوير تدوين القوانين . وكانت الكنيسة هي التي تقوم بهذه الجزيرة (يعني بريطانيا) بوظيفة روما وعملها ، وكان لها أثر في تشكيل النظم الأنجلوسكسونية أقوى من أى أثر آخر . مثال ذلك أن قانون كنت لم يظهر إلا عقب قدوم أوغسطين ، كما أن سلطة كل ملك سكسونى ناجح كانت تدعمها مشورة رجال الكنيسة لديه وتعاونهم معه ، وقد أدركوا أن قيام حكومة مركزية قوية ضرورى لمصالح الكنيسة . ودام الاتصال بين الجزيرة وبين القارة ، ومن ثم بينها وبين المجرى الرئيسى للحضارة ، بفضل رجال الدين إلى حد كبير ، حيث لم تكن للتجارة والدبلوماسية في تلك الأيام إلا أهمية ضئيلة ، على حين أن الأديرة الكبيرة التي وهبها الملوك الأتقياء الأراضي والضياع ، قامت بدور كبير في نمو العوامل الإقطاعية التي تتمثل في ازدياد الاختصاصات المحلية والإعفاء من الأعباء العامة .

ولا شك أن أهم مظهر لفتح بريطانيا على أيدي الإنجليز السكسونيين من وجهة النظر الأوروبية ، ما بلغته نورثمبوريا فجأة من التفوق الأكيد في حضارة العالم الغربى على الرغم من أنه كان تفوقا قصير الأمد . ومن المعروف أن بريطانيا زمن الرومان ظلت دائماً تعد معقلاً أمامياً للإمبراطورية ، وتعتبر إقليمياً متخلفاً متأخراً في حضارته بالقياس إلى غالة وأسبانيا وإفريقية . ثم تنقطع

(١) انظر ما سبق من ٧٧ .

صلتها بمحااضرة الدولة ومركزها منذ (٤٠٠) ، ثم ندوى الجزيرة شيئاً فشيئاً من دائرة وعى روما وبيزنطة . على أن بعثة أوغسطين التبشيرية إلى الجزيرة البريطانية أعادت اتصالها بالقارة ، كما أن عودة الاتحاد بين الدراسات والعلوم الكلتية وبين ما للعلوم في الغرب من تقاليد أصيلة أورثت نورثمبريا نهضتها في الفنون والآداب . إذ لم يحدث قبل ذلك ولا بعده أن تبوأ الإنجليز مثل هذه المسكنة في المدينة الأوربية . وبلغ الأمر بتقدمها أن روما نفسها اضطرت أن ترسل في طلب المخطوطات من المملكة الشمالية ، وهناك يبرز بيد (Bede) أكبر علماء الغرب دون منازع لتفوقه في كل فروع العلم ، كما أنه من حيث القوة الفكرية الخالصة يسمو محققاً فوق العصر الذى عاش فيه ، على أن ما أصاب نورثمبريا من الاضمحلال ، وما قابل ذلك من ازدياد قوة مرسيا ، قوض الأسس الاقتصادية التى تقوم عليها هذه الثقافة المتألقة ، ثم لم يلبث كل ما تبقى منها أن زال في أثناء غارات الفايكنج ، يوم نهبت الأديرة الكبرى وأضرمت فيها النيران : ولكن السكويين ورفاقه حملوا من قبل مشعل إلهامها إلى آخن وتور ، حيث صارت أساساً للنهضة السكارولنجية . ثم سدد جانب من هذا الدين حوالى نهاية القرن التاسع ، بعد أن زال الإرهاب الدانيمركى ، حينما أسهمت مؤثرات من القارة في زيادة ثروة مدرسة ونشستر العظيمة للتصوير والرسم في عاصمة مملكة ويسكس الزاهرة . كما أن النماذج المعمارية في بلاد الراين استوحاها فيما يبدو فن العمارة السكسونى المتأخر ، على الرغم من أن تقاليد الجزيرة البريطانية المتصلة الحلقات ، تستطيع تحدى كل موازنة بينها وبين مختلف أنواع الفن الرومانسكى . وقد زال من الوجود كل أثر لكاتدرائيات درهام وونشستر الفخمة : وكل ما تبقى لنا عن روائع العصر الإنجليزى السكسونى المتأخر ، ما نستشفه عن قلة ضئيلة من الكنائس القروية استخرجت دلالاتها من شواهد هزيلة حوتها تلك الوثائق . على أن تلك البقية

والدلالات كافية لإثارة بعض الأسف في أنفسنا على زوال كل أثر للطرائق الوطنية تلقاء عمائر البناء الفخمة التي خلفها النورمان والتي كثيراً ما تكون جامدة النمط . وذلك كله متى وازناها بما بقي عن السكسون من نحائت ، وبالفنون الصغرى التي كانت تمارس بإنجلترا في تلك الأزمان .

٢ — الممد الصقلي

كانت حركة انتشار الصقالبة آخر حركة عنصرية بأوروبا ، بلغت ذروتها قبل نهاية العصور المظلمة . وهي عملية لا تقل في خطورتها بالنسبة لمستقبل السلالات البشرية بالقارة الأوروبية عن كل ما سبق وصفه من العمليات ، بما كان لها يوم بلغت أقصى مداها من تأثير على كل الأراضي الواقعة شرق خط يمتد على وجه التقريب من رأس البحر الأدرياتي إلى مصب نهر الإلب ، وتختلف هذه الحركة عن غزوات وهجرات سائر البرابرة ، مثلما يختلف مد يرتفع دون أن يحس به أحد عن شلال شديد الانحدار، أو عن نهريتلوى جامعا بين المنحدرات السريعة والروافد الهادئة . إذ إن أهل ذلك العصر لم يلحظوا تسلل الصقالبة في هدوء إلى مسرح التاريخ الأوربي . لم يكن عملهم غارة رائمة تقودها شخصيات بارزة شأن غارات القوط أو الوندال . وما كان اندفاعا سريعا انبعثت من آسيا كاندفاع الهون . وإنما الذي تم هو توسع مطرد قام به عنصر من الفلاحين ، كان يشكل في بداية الأمر الطبقة الدنيا والأساس الاقتصادي لجماعات يقودها حكام مقاتلون من الجرمان أو الأسويين ، ولكنها كانت تزداد في كل يوم عدداً وتمتص فاتها ؛ لم يبق بينها تماسك وما كان لها مطمع سياسي ، ولذا كانت تنزع من هنا إلى هنالك في المنطقة الممتدة من بحر البلطيق إلى البحر الأدرياتي لخدمة أغراض الخاقانات المستبدين ، وهي مدطام من السكان طفي على شرق ألمانيا وانساب إلى بلاد اليونان ، وكان

يجتاز في مسيره شرقاً سهول جنوب روسيا ، حين يمنحها البدو الرحل من طلاب النهب فترة وجيزة من الهدوء .

على أن أعماق مستنقعات البريبيت التي يخيم عليها الضباب والتي يميل غالبية العلماء في الوقت الحاضر إلى اعتبارها الموطن الأصلي للصقالبة ، كانت تقع في ذلك الحين على مسافة بعيدة من مرمى أبصار الإغريق والرومان لا تقل عن بعد السهوب الآسيوية النائية ، التي كان في إمكان الناظر أن يقين فيها بصموبة شخصاً صغيراً راكبة مع قوافلها تسير فوق منبسط هائل من السهول . والواقع أن الصورتين متكاملتان تتم الواحدة منهما الأخرى ، وذلك لأن سكان المستنقعات في بوليزيا ، وهو الاسم الذي اشتهرت به هذه المنطقة الصقلبية البدائية في العصور الوسطى ، — يمكن اعتبارهم أحد تلك الأجناس المتمعة التي وضعها سوء حظها على حواف منطقة السهوب والتي جعلتها نزعتها السلمية وحياتها المستقرة فريسة للحشود البدوية الشرسة^(١) . وهناك من الإشارات المتناثرة عند بعض المؤلفين القدماء ما يصورهم لنا شعباً شكلته المتسعات الصامتة من المستنقعات المملوءة بالقصب والبرك الراكدة ، وتمثلهم أسراباً وعائلات منزلة من صيادى السمك والمزارعين ، وهم ينزلون مناطق متناثرة أخلوها مما كان بها من مستنقع أو غاب ، وتجعلهم شعباً بدائياً أصهب الشعر وأناساً خجولين يتجرون في الفراء والشهد وعليهم القليل من الثياب ، وهم يفرون من مطاردتهم بالاختفاء فيما يجاورهم من ماء أو غياض : وهم إلى ذلك مهرة في الرماية وحرب العصابات وجند ممتازون متى كانوا في خدمة الأجانب .

ومن الغريب أنهم أمة مجهولة بصورة تبعث على الدهشة . وليس لهؤلاء

(١) عن تحديد لهذا الرأي ، انظر ماكتبه ل . بيدول في (Revue des

Etudes Slaves) مجلد ٢ ص ص ١٩ ع ٠

الصقالبة الأصليين تقاليد مأثورة ، ولا أنساب ميثولوجية . ومن عجب أن ما يرجع إلى عصورهم المتأخرة من ماثور شعبي (Folk - Lore) ، يحتفظ أساساً بذكريات شعوب أجنبية استولت على أخيلة الصقالبة . وفيها يبدو شعب الآفار الرهيب في صورة المردة أو الوحوش ، على حين أن الإمبراطور تراچان فاتح داكيا (ترنسلفانيا ورومانيا) في القرن الثاني للميلاد صار في أساطير البلقان القيصر تراچان العظيم ، الذي يفيض إليه الذهب الوهاج والفضة الصافية من سبعين عيناً . والواضح من هذا ومن غيره من الشواهد ، أن الصقالبة بدءوا فعلاً ينسابون من منطقتهم البدائية الأولى قبل القرون الأولى للميلاد حيث شرعوا يتسربون جنوباً نحو الدانوب على كل من جانبي جبال السكربات ، واتجهوا غرباً بمجنازين السهول التي تمتد بين نهري الإلب والفتستولا وساروا شرقاً متجهين نحو حوض الفولجا وبحر آزوف . ولاشك أن الموقع المتوسط لموطنهم الأصلي — الذي يقع على برزخ شبه الجزيرة الأوربية (إن جاز مثل هذا التعبير) ، وهو العنق الذي كونه الطرق المائية الكبرى بمنطقة غرب روسيا — قد جعلهم يتعرضون لما كان لبحر البلطيق أو البحر الأسود من مؤثرين حضاريين بالغى التناقض ، على حين أن الاختلاط العنصرى بين الدماء التيوتونية من جهة والأجناس الآسيوية من جهة أخرى قد ساعد على زيادة الفروق التي قدر لها فيما بعد أن تميز القوميات السلافونية المختلفة بعضها من بعض وتفرقها أقساماً .

على أن المسد الصقلبي ظل يتزايد دون أن يلحظه أحد من مؤرخي الحوليات (Ammalists) . حتى استيقظت بيزنطة قبيل زمن جستنيان ، وانتبهت إلى ما يتهدها من خطر صقلبي . ذلك أن غارات الصقالبة ظلت تزداد شدة طوال القرن السادس وتنزل الخراب والوبال بمناطق تراقيا وتساليا ومقدونيا ، بعد اختراقها لخط القلاع المحكم الذي أقامه جستنيان بقصد الدفاع

عن الدانوب وحماية الطرق الحيوية التي كانت تربط بين أجزاء إمبراطوريته الغربية والشرقية . على أن مركز إعصار عاصف ما لبث أن استقر في هنغاريا في صورة الآثار ، فانطلق يعصف بأمواج الصقلي ويحيلها إلى تيارات عنيفة ، بما وهبها من قوة دافعة جديدة خطيرة ، وبما نثره منها وبدده في صورة رشاش تطاير منتثراً فوق وسط أوروبا . ويبدو أن هذه هي الفترة التي تم فيها صبغ بلاد اليونان بالصبغة الصقلية ، وما ترتب على ذلك من شطر روما القديمة عن روما الجديدة (بيزنطة) . وعلى الرغم من الهجمات الباسلة التي بذلها القادة البيزنطيون لرد اعتداءات الصقالبة ، فإن حد الإمبراطورية من جهة الدانوب لم يعد له أهمية تاريخية بعد (٦٠٠) . وقد صدق المؤرخ إيزيدور الآشيلي حين قال : « إن الصقالبة انتزعوا بلاد اليونان من الرومان » . وذلك لأن السكان الرومان والناطقين باليونانية دفعوا إلى حافى شبه الجزيرة المطلتين على البحر الأدرياتي وبجر إيجة . أجل إن مدينة سالونيك التجارية العظيمة التي كانت تحميها أسوارها الضخمة ومجانيقها القوية وتقيها الدراع القومية للقديس ديمتريوس الذي هو قديسها الحارس ، قد صمدت في وجه الغزاة ، ولكن الصقالبة احتلوا رغم ذلك منطقة مقدونيا^(١) المحيطة بها ، وأخذ فيض الصقالبة يتدفق إلى شبه جزيرة البيلوبونيز (المورة) ، ظلت مراكز للحضارة والحياة الهلينية ، وحافظت على استمداها للمشاركة في الفتوح البيزنطية التي تمت بعد ذلك بثلاثة قرون . ولكن حدث في أقصى الغرب أن هرع سكان مدينة سالونا الرومانية عاصمة الدالماتيا من مدينتهم التي تعرضت للنهب والتخريب ، فهبطوا إلى أسفل التل ، يلتمسون ملاذاً في داخل أسوار قصر دقلديانوس الضخم في أسبالاتو . بينما فر آخرون إلى

(١) بلغ من شدة ازدحام هذه المنطقة بالصقالبة عند حلول القرن السابع الميلادي ، أنها أصبحت تعرف باسم « اسكلافيا » .

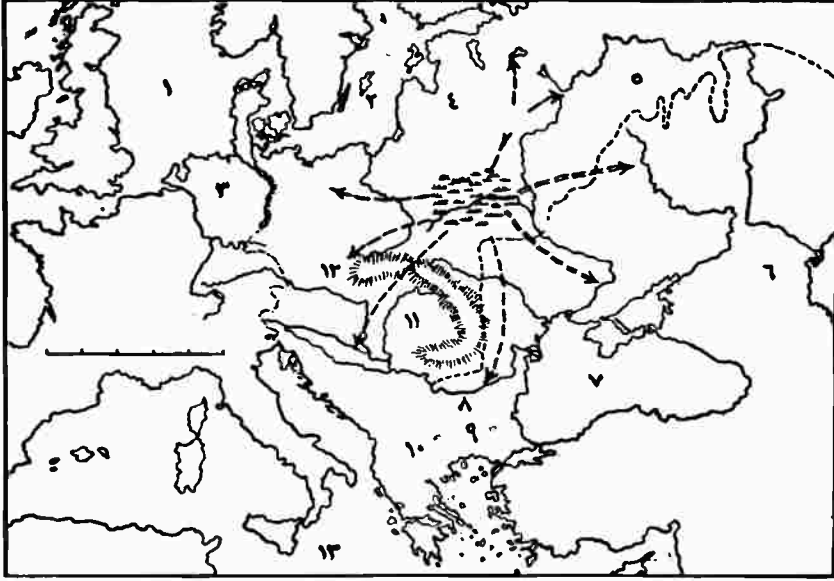
الجزر والخلجان الأدرىاتية فأقاموا بذلك حافة منعزلة من اللاتينية ظلت قائمة حتى العصور الحديثة . إذ لم يمت آخر ناطق « باللغة الغريبة » إلا في ١٨٩٨— ولم تكن لفته إلا سلاطة منحطة من اللسان الرومانى القديم^(١) ، والظاهر أن مجتمعات ناطقة باللاتينية ، ظلت تعيش فى داخلية البلاد بنفس الولايات السابقة بكل من شمال الدانوب وجنوبه ، وأنه يرجع إلى تأثيرها ظهور اللغة الرومانية الحديثة .

انتشار الصقالبة

وفى تلك الأثناء كانت الزوبعة الآفارية فى دورانها اللولبي من مركزها . بهنغاريا تقذف بالجموع الصقلبية فى جميع الاتجاهات ، وتشتت قبائلهم وتنزل شرائذم منهم بالأطراف النائية ، فاستقر بعضهم غرباً فى كارينثيا والتيروى ، وأقام بعضهم الآخر فى الشمال على امتداد نهر الإلب والسال ، واستخدمت رجالهم جنداً على محيط الدائرة الآفارية مسلطة إياهم على جند البافاريين واللومبارد والسكسون والفرنجة . على أن مدى سلطان الشعوب البدوية ، الذى كان يمتد بين حين وآخر من البيلوپونيز إلى البلطيق ، إنما يماثل ما كان للإمبراطوريات الألطائية بآسيا من نفوذ ، وهو قريب الشبه أيضاً بنفوذ أسلافهم فى أوربا ، وأعنى بهم الهون . وكان حكم الآفار يتمشى تمشياً صادقاً مع أصولهم فى بلاد السهوب ، إذ ينطوى على الاستبداد والنهب ويعتمد على القوة الوحشية ويقوم على غارات الرعب والإرهاب، ويتعرض للانهيال الفجائى . وعند مستهل القرن السابع ثارت عليهم الشعوب الخاضعة . فإن تاجراً من الفرنجة اسمه سامو قام بتنظيم الصقالبة النازلين بوادى نهر مين وتأليبهم على

(١) انظر ل . نيدرلى فى (Manuel de L'antiquite Slave) ، ص ١٠٨

(باويس ١٩٢٣) .



١٣ - خريطة انتشار الصقالة

- | | | |
|--------------------|------------------|------------------|
| ١ - بحر الشمال | ٢ - بحر البلطيق | ٣ - السكسون |
| ٤ - القتاونيون | ٥ - شعوب فنلندية | ٦ - الخزر |
| ٧ - البحر الأسود | ٨ - البلغار | ٩ - تراقيا |
| ١٠ - مقدونيا | ١١ - الآفار | ١٢ - نهر الدانوب |
| ١٣ - البحر المتوسط | | |

الآفار واستطاع الإبقاء على مملكته بنجاح إزاء كل من الآفار والفرنجة .
ومالبت الكروات والصربون أن حذوا حذوه ، وأخيراً كون البلغار على
الدانوب الأدنى مملكة مستقلة . على أن الآفار ظلوا فيما عدا مملكة سامو
مسيطرين في كل مكان على جميع الفلاحين الصقالبة حتى امنصهم السكان
المحيطون بهم . وتتجلى في تنظيم هذه الدول البلقانية إبان المصور الوسطى
شواهد واضحة تنبئ بوجود النظم الآسيوية .

وتعد بلغاريا مثالا بارزاً على تلك الأوضاع ، إذ إن شعبة غربية من البلغار ،
وهم شعب وثيق الصلة بالهون نزّلوا أول الأمر فيما نعلم على نهر الدون ، قد
بلغت حوالى نهاية القرن الخامس سواحل البحر الأسود الشمالية الغربية فوق
مصب الدانوب . فلما أن حرروا أنفسهم من نير الآفار حوالى ٦٤٠ ، اجتازوا
الدانوب فبسطوا بذلك رقعة ممتلكاتهم جنوباً ، حتى أصبحوا على مسافة
تقارب مائة وخمسين ميلاً من أسوار بيزنطة ، وأخذوا يحكمون ، بوصفهم طبقة
محرّبة ، الصقالبة المشتغلين بالزراعة ويتزعمون منهم الجند اللازمين لإنشاء
إمبراطورية قوية البأس ، لم تلبث عند نهاية القرن التاسع أن امتدت إلى البحر
الأدرياتي في الغرب ، وبلغ طرفها الجنوبي جبل الپيندس (Pindus) .
وكانت هذه الإمبراطورية البلغارية الأولى عاملاً فاصلاً تحكم فيما تلا ذلك
من تاريخ البلغار . فلولا خافانات البلغار الأشداء وأرستقراطيتهم المقاتلة لما
استطاع المهاجرون الصقالبة بهذه المناطق المضى في مقاومتهم المنظمة للجهود
الدائبة التى بذلتها الإمبراطورية الرومانية قرناً في إثر قرن بمالها من جيش
محترف وخطط حربية بارعة ، لاستعادة خط حدودها القديم على الدانوب
والحفاظة عليه ، والإبقاء على ما يقع على شاطئيه من الأقاليم ، ولولا هم أيضاً
(١٩ - المصور)

ما ظهر إلى الوجود ما كان لبغاريا وكرواتيا والصرب من أجداد إبان
العصور الوسطى .

زوال إمبراطورية الآفار

وقد تمخض تداعى قوة الآفار ، التى تواصل اضمحلالها حتى تم تدميرها
النهائى على يد شرلمان ، عن آثار سيئة فى كل مجموعة الدول الآفارية الصقلبية .
إذ انحسر مد مملكة الصقلبية المتجه غرباً ، وارتد منسحباً من أعلى النمسا ،
كلما اندفع إلى الأمام جرمان بافاريا^(١) . وإلى الشمال من ذلك ، استقر ما يزيد
على ثلاثين قبيلة صغيرة من الصقلبية فى خط يمتد من الدانوب إلى مكلنبرج ،
وهم على حال من التفرق والعيش فى مواطن متناثرة بين المستنقعات والغابات .
وقد أصبحت بوهيميا التى تحيط بها الجبال من كل الجهات مملكة قوية
الشأن ، غير أن الصقلبية النازلين على نهر الإلب قد تعرضوا للإبادة أو تحولوا
إلى جرمان ، ولم يكن استيلاء شرلمان على سكسونيا الغربية إلا تمهيداً لتقدم
جديد قامت به دولة غربية ، ثم تواصل الفتح عنيفاً عاتياً على امتداد عدة
أجيال . ودأب الفيكنج من اسكنديناوة قراصنة كانوا أو تجاراً ، على الإغارة
على مناطق الصقلبية على شواطئ البلطيق ، فأقاموا بها معازل دائمة .
واستطاعوا أن يضعوا أيديهم رويداً رويداً على طريق التجارة العظيم الذى
يتألف من شبكة الطرق المائية الروسية التى تربط بين بحيرة لادوجا وبين
البحر الأسود (Euxine) ، ثم توغلوا جنوباً حتى أسسوا بعد (٨٠٠)
يزمن قصير مستعمرة كييف ، وهى نواة الإمبراطورية الروسية فى المستقبل .

(١) انظر الفصل الرابع عشر بعنوان حملات الآفار .

٣ - بيزنطة والبحر المتوسط

كان لأحداث القرن السابع آثار كبرى غيرت تماماً مركز بيزنطة في أوروبا في ذلك الزمان . إذ سرعان ما أعقب النصر النهائي - الذى أحرزته روما على فارس في (٦٢٨) والذى يعد من أعمال هرقل الباهرة - موجة الغزو العربى الذى هز أركان كل من هاتين الإمبراطوريتين العالميتين السابقتين روما وفارس . ولم تنقض على وفاة هرقل عشر سنوات حتى ضاعت مصر والشام من يد الدولة . حتى إذا فتح المسلمون الولايات الإفريقية ، وتقدم القومبارد في إيطاليا ، واصطفى البلقان بالصباغ الصقابي ، نظرت دولة الروم عند نهاية القرن السابع فإذا رقتها قد انكششت انكاشاً شديداً من جميع أبعادها . ولم نزدها الثورة الإيطالية والفتح الفرنجى لإيطاليا إلا ضعفاً وانتقاصاً لنفوذها في الغرب ، ومنذ تلك اللحظة يمكن اعتبار تاريخ بيزنطة شيئاً مستقلاً عما يجرى من تطور في دول غرب أوروبا التى لم تعد تتأثر تأثراً شديداً - كما لاحظ المؤرخ بيورى - بما كان يحدث في شرق إيطاليا وجنوب الدانوب .

على أن السنوات التى سبقت ارتقاء ليو الإيسورى (٧١٧ - ٧٤١) العرش تعتبر من أحلك الساعات في عمر بيزنطة الطويل . إذ إن حيويتها أخذت فيما يبدو تتداعى بسبب انكماش حدودها . فاضمحلت الآداب والفنون وهبط مستوى التعليم ، وازدادت الخزعبلات انتشاراً بين جميع الطبقات . ونظراً لما كانت تعانيه بيزنطة من مركز قلق ، الأمر الذى اقتضى اشتداد سلطة الإمبراطور الأوتوقراطية استبداداً ، رغبة في الإبقاء على وجود بيزنطة نفسه ، فقد قوبل ذلك بتحدٍ عنيف من المعارضة الأرستقراطية تدل عليه سرعة تماقب الأباطرة على العرش - حيث تولى الملك ما لا يقل عن سبعة منهم في عشرين سنة . وكان الكثير منهم يدين بارتقائه العرش إلى مؤامرات النبلاء ملاك الأراضي بالإمبراطورية .

إصلاحات الأسرة الإيسورية

إن قيام البيت الإيسورى القوى ليسجل بالفعل انجهاً جديداً فى شئون بيزنطة . إذ يتوارى عن الأنظار الصراع على الملك بكل ما يورث البلاد من فوضى ، ولا يعود إلى الظهور إلا فى مستهل القرن التالى . أما العاصمة التى هددها الأمويون بكل ما يملكون من قوة فى أثناء الحصار العظيم الذى ضرب عليها فى (٧١٧ - ٧١٨) ، فقد دافع عنها ليو ، وهو الجندى المحنك الجرب دفاعاً مجيداً وكان ذلك فى نفس اللحظة التى استهل فيها حكمه ^(١) ، ومنذ تلك اللحظة وقفت الإمبراطورية على قدميها على امتداد الجبهة الإسلامية ، حتى تراجع مركز الاضطراب قليلاً فى آسيا ، عند انتقال مقر الملك من دمشق عاصمة الأمويين إلى بغداد عاصمة العباسيين (٧٥٠ م) . ومما ينبغى أيضاً إضافة الفضل فيه إلى الإيسوريين قيامهم بإصلاح مالية الدولة على أسس سليمة وتشجيعهم التجارة وإجراؤهم تطويراً صالحاً للنظام العسكرى بالولايات ، لدرء مآثم مرض له النفور (الحدود) من أخطار . وهى إصلاحات ومنجزات يمكن مقارنتها بما أتاه آل هرقل والمقدونيون وغيرهم من منقذى بيزنطة فى ساعة العسرة . ولذا فإن الأسرة من هذه الناحية يمكن اعتبارها متمشية مع مدرجت عليه الأسرات الإمبراطورية من تقاليد . على أن أوجه التشابه تنتهى عند هذا الحد . إذ الواقع أن الإيسوريين ينسب إليهم فضل اتخاذ سياسة ثورية ، وأنهم مبتدعون بارعون ، استطاعوا بفضل قوة مثالياتهم الأسيوية الأجنبية أن يغيروا مجرى الحياة فى بيزنطة فترة قرنين من الزمان . ثم قدر لتلك الحياة أن تنساب مرة أخرى فى مجاريها المعتادة . إذ إن الفلسفة السكلية العامة (Weltanschauung)

(١) انظر ما قبله ص ٢٥٧ بعنوان الخطر على بيزنطة .

لحضارة بأكملها ، إنما هي نيار أقوى من أن يستطيع بضعة أفراد تغييره ، وذلك لأن ماتحاده الأحكام الإيسوريون لم يكن سوى تراث البحر المتوسط بأجمعه .

ومن أهم عناصر ذلك التراث ، النظام القانوني الروماني ، الذي كان يتحكم في وجوه كثيرة جدا من حياة بيزنطة الاجتماعية . فـ قانون الأكلوجا ، الذي أصدره الإمبراطور ليو الثالث ، وهو مجمل لكل القوانين البالغة الأهمية ، يدل على تغيير خطير في القانون الروماني . وبصدور هذا القانون لم يعد فقهاء القانون من الرومان مصادر موثوقا بها ، بل صار التشريع والفقهاء قائما على «الوحي» ، والتست النظرية القانونية مبرراتها من نصوص مستمدة من الأناجيل . وزالت الفكرة القائلة بأن الزواج عقد مدني ، يمكن فسخه بالتراضي المتبادل بين الزوجين ، وحل محلها ماقررتة المجالس الكنسية من أن الزواج يعتبر من الأسرار المقدسة ، فتعذر بذلك الحصول على الطلاق . ويتجلى نفوذ الكنيسة ورجالها في أمور أخرى أيضاً ، منها مثلا زيادة العقوبات على الجرائم الجنسية وإحلال عقوبة التشويه وبترالأعضاء محل عقوبة الإعدام بوصفها أقصى عقوبة في القانون ، رغبة في منح المذنب فرصة للتوبة . ومما له مغزاه أن إضفاء الصبغة المسيحية على الدولة بهذه الصورة قد توقف قبيل نهاية القرن التاسع الميلادي ، وحل محله الرجوع إلى اتخاذ مبادئ قانون جستنيان . فعندئذ تتجلى بيزنطة المدينة المقدسة وحامية العقيدة السلفية الصحيحة في صورة أخرى بالغة الأهمية : هي أنها وراثته ومستودع تقاليد روما الإمبراطورية الوثنية .

وعن هذا المصدر نجىء كذلك فكرة عميقة الجذور في العالم البيزنطي ، وهي فكرة عدم إمكان الفصل بين الكنيسة والدولة ^(١) . وذلك أن سلامة

(١) انظر ص ١٦٤ بعنوان « الحياة في العاصمة البيزنطية » .

الإمبراطورية ورخاءها كانا يتوقفان على مالها من موارد روحية فضلاً عن المادية ، وأن نفوذ السلطات المدنية كان يعززه إقرار رجال الدين له . على أن بعض الأباطرة من أمثال الإيسوريين المناهضين لعبادة الصور ، والذين تدخلوا فيما شاع بين السكان من معتقدات - كالمقدسات الدينية والآيقونات وتبجيل هيئات الرهبان - إنما كشفوا عن وجود ازدواج في السلطات : أى إمكان حدوث صراع بين السلطين العلمانية والإكليريكية ، وهو وضع كان يخالف صراحة سياسة بيزنطة العامة ، ولذا كان محتوم الفشل نتيجة لذلك . وهذا الضرب من رجحان كفة الميزان في صالح الدولة ، تمخض عن حركة مضادة بين أتباع ثيودور رئيس دير ستوديوم (مات في ٨٢٦) ، الذى طالب بأن يكون للكنيسة استقلال داخلى تام ، بل إنه أيد البابا على إمبراطوره . على أن هذه الأفكار كانت غريبة أيضاً عن التفكير البيزنطى ، ولم يلبث هذان الرأيان المتناقضان أن اختفيا من الوجود فى النهاية ، فتهيأت الفرصة مرة أخرى للإمبراطور كيما يمارس سيادته على شئون الكنيسة ، وهى مع ذلك سيادة يلفظ منها استعمال الحكمة والأناة فى معالجة حساسية الشعب وميله بطبعه إلى الاستثارة السريعة .

نضال مناهضى عبادة الصور

وكان آخر تحد لقيته المعايير البيزنطية هو حركة تحطيم الصور (Iconoclast) ومناهضة عبادتها. فعلى الرغم من أن هذه الحركة تؤلف فى بعض مظاهرها جانباً من إصلاحات الإمبراطور العلمانية ، فإن الدافع الجوهرى إليها هو الاعتقاد الدينى^(١) ، ولذا فإن المعاصرين كانوا ينظرون إلى المسألة بأسرها بوصفها مسألة

(١) من المعلوم أن الدين والسياسة لا يمكن فصلها فصلاً تاماً كما رأينا من تونا ، ولا شك أن سلامة الدولة من الزلازل والأوبئة والغزوات كانت فى نظر مناهضى عبادة الصور تمتد إلى حد عظيم على قيام ما يعتبرونه العقيدة الصحيحة ، خاصة وهم قوم لم يكونوا «عقلانيين Rational» فى تفكيرهم - بالدرجة الشديدة التى يصورهم بها بعض الناس أحياناً .

دينية بحتة . فقد ادعى خصوم التحطيم أن إنكار إمكان تمثيل مرثى ، هو إنكار الحقيقة التجسيد والتبعية إنكار لأس العقيدة المسيحية . ولا سبيل إلى تقدير المرارة الشديدة التي اتصف بها الكفاح إلا إذا وضع القارئ هذا الاختلاف الأساسى نصب عينه ^(١) . على أن معركة تحطيم الصور ومناهضة عبادتها ، ليست إلا نزاعاً اجتمع فيه من الاختلافات والدوافع السياسية والفلسفية والجمالية ، بل العنصرية أيضاً ، ما يرجع أصول كثير منها إلى الماضى البعيد . وما من صيغة عصرية تستطيع أن تعرض علينا من جديد ما تنطوى عليه هذه الحركة من مشاكل معقدة . فقد نشبت الحرب فى جميع المستويات ، ونحولت الآراء من النقيض إلى النقيض ، وتشعبت فى كل شكل من أشكال الحلول الوسط . ومن اليسير على المتصفح أن يستكشف ، المرتكبة الجانبان من سخافات وحماقات ، فهناك من ناحية أولئك الأباطرة الذين تنادوا فى تلك الحملة حتى لقد اعترفوا « بتطويب » يهوذا الأسخريوطى وتلقيبه قديماً وعمدوا إلى إزالة لفظة « القديس » من أسماء الأماكن . على أن الواقع من الناحية الأخرى ، أن إقامة عبادة سحرية للصور يرجع سخطها إلى أنها فى أحط صورها تعتبر ضرباً من الإيمان « بالفتيشة » لحالة مرضية . ومع ذلك فإن الفارق الفلسفى كان هاماً وحقيقياً ، وإن جاز لنا أن نشك من خلال ما يحيط بالأمر كله من سحب سوء العرض وتأجج المشاعر ، — فى أن المتخاصمين كانوا يرون بوضوح الأشكال التى كانوا يوجهون إليها طعناتهم . فالصعوبات السكائمة فى علاقة الصور بما تمثله ، ليست إلا قصة قديمة ترجع إلى الأزمنة الوثنية ، ثم تواصل الجدل فى شأنها طوال عصور المسيحية جميعاً . من هنا يتبين أن كلا من الجانبين كان وراءه معين من السوابق لا ينضب يستطيع أن ينهل منه ، بالإضافة

(١) انظر التذييل ب .

إلى الفقرات المنترزة من نصوصها الأصلية في السكتب المقدسة وكتابات الآباء الأولين ، والتي شكلت لتكون قذائف في الحرب الكلامية الناشبة .

كان معظم أفراد حزب تحطيم الصور ينتسب إلى آسيا الصغرى موطن الأباطرة الإيسوريين ومنبت الشطر الأكبر من جندهم وكثير من موظفيهم . وفي هذه المنطقة ازدهرت عدة طوائف متشددة في التطهر والتعفف ، ولم تتولد الكراهية لعبادة الأوثان عن هذه المذاهب التطهيرية فحسب ، بل أسهم في ذلك أيضاً عقائد المسلمين المجاورين . ولكن الأباطرة أنفسهم لم يكونوا من الهراطقة . إذ كان في وسعهم أن يعتمدوا هم وخصوصهم على السواء على التقاليد الصحيحة للكنيسة . وينبغي لنا أيضاً ألا نشدد التأكيد على التناقض بين ما لدى آسيا من الرمزية التجريدية وبين الفن التشكيلي اليوناني الروماني . فالمعروف أن البحر المتوسط تعرض طوال قرون عديدة لمؤثرات شرقية ، وأن الفن البيزنطي فقد بالفعل كثيراً من خصائصه التقليدية (الكلاسيكية) . وأثارت مساجد وقصور الخلفاء الآسيويين وقتئذ من الجاذبية القوية ، ما لا بد أن يثيره كل فن خصيب رائع . على أن الراجح أن النزاع حول التحطيم ومناهضة عبادة الصور ، لم يكن له تأثير جوهرى على تطور الطراز البيزنطي ، الذى استقرت مبادئه الأساسية من قبل في عهد جستنيان .

وقد بدأ ليو في (٧٢٥) حملته لتحطيم الصور . إذ ارتقى الجند السلام وأزالوا التمثال الكبير للمسيح المنصوب فوق باب القصر بالساحة الرئيسية بالقسطنطينية . فاحتشد جمهور غاضب وعقبت ذلك الفتن وقتل الدماء أحد الجند . وأحدثت المراسيم الإمبراطورية في هذا الصدد طائفة من الاضطرابات نشبت في العاصمة وبلاد اليونان وجزر بحر الأرخبيل ، بل لقد نودى بأحد الأفراد إمبراطوراً ، ولكن المؤامرة أحبطت ، وكانت الغلبة في النهاية لسياسة ليو ، الذى كانت توازره على الجملة الطبقات المتعلمة . وازداد الكفاح مرارة

في عهد قسطنطين الخامس ، ولم يلبث ما قام به الرهبان من النشاط السياسي ، الذي سبق أن تنبأ ليو بخطورته على الدولة ، أن تطور إلى المطالبة بأن يكون للكنيسة استقلالها . على أن قسطنطين الخامس الذي كان يضارع أباه في العبقرية الفكرية وبفوقه في البراعة السياسية والتدبير ، التقى بخصومه على أرضهم ، وآزر حركة التحطيم بكل ما توافر له من موارد . وفي (٧٨٧) انتهزت إيريني فرصة اندلاع فتنة شعبية فأعادت عبادة الصور ، على أن حركة التحطيم ومناهضة عبادة الصور لم تلبث أن عادت في (٨١٥) نتيجة لرد فعل آخر . ومع ذلك فإن قوتها ما لبثت أن تضعفت رويدا رويدا ؛ إذ فقد الجيش ما كان له من سلطان في البلاط ، وفاز رهبان دير ستوديوم بالقلبة . وفي (٨٤٣) تمكنت الإمبراطورة ثيودورا وهي وصية على ولدها ميخائيل ، من الجمع بين تنفيذ رغباتها وبين مقتضيات السياسة بإعادتها للأهلين عبادة الصور التي لم يكفوا عن التعلق بها .

والظاهر أن هناك شيئا من المبالغة في تقدير الأثر الذي ولدته في الغرب حركة مناهضة عبادة الصور . أجل إنها قد تأججت بسببها المشاعر ، وذلك نظراً لأن الصور والآثار المقدسة كانت تلعب دوراً جوهرياً في عقائد الناس ، ولكن أحداً لم يستطع إدراك النقاط الفلسفية التي كان الموضوع يدور حولها . على أن الواقع أن أقوى أسباب الثورة التي شبت في إيطاليا كانت كراهية الناس للموظفين البيزنطيين والضرائب البيزنطية ، وتأجيج الوطنية ودوافع السياسة المحلية ، ولم يحمل الفرنجة على التدخل إلا ضعف بيزنطة العسكرية . ومن ثم فإن النزاع حول عبادة الصور لم يكن إلا حدثاً واحداً في شقة الخلاف والتنافر بين روما البابوية والقسطنطينية الإمبراطورية . وآية ذلك أن العودة إلى عبادة الصور لم تصلح ما فسد ، وذلك لأن الخلافات السياسية لم تكن تدور حقاً حول المسائل العقائدية . على أن فترات الانشقاق بين الكنيسيتين

الشرقية والغربية التي أخذت تزداد طولاً وتمكثت عدداً بلغت ذروتها في الصدع النهائي الذي حدث في (١٠٥٤) ، ومع ذلك فقد كان في الإمكان حتى بعد هذا التاريخ الوصول إلى اتفاق حول المسائل الاعتقادية . ومن هنا يتضح أن السبب في عدم الوفاق بين الطرفين لم يكن فقرة : « والابن أيضاً Filioque » ، بل مدعيات البابا في السيادة وخطط الإمبراطورين الشرق والغرب . وثم فاصل آخر كان يزداد في الحين نفسه على الأيام علواً وقوة ، هو فاصل اللغة والعرف والتقاليد . وعمد ليو الإيسوري إلى توجيه ضربة مضادة لتحدى البابا ، فضم صقلية وجنوب إيطاليا ودالماتيا إلى البطريركية البيزنطية ، ولم يلبث أن شاع بهذه الجهات عناصر عديدة للعقيدة الشرقية نتيجة تقاطر الرهبان اليونانيين اللاجئين . على أن فتح المسلمين لصقلية في القرن التالي أضعف قبضة البيزنطيين على الغرب ، على حين أن الشعوب الصقلية الوثنيين بالبلقان ، أقامت عقبة أخرى حالت دون الاتصال المباشر بين الجانبين . ولكن بيزنطة تمكنت من ضم بلغاريا إلى حظيرة المسيحية في القرن التاسع ، بعد أن ترددت طويلاً بينها وبين الولاء لروما^(١) ، وأخيراً ظلت على مذهبها الأرثوذكسي ، والواقع أن أطرافها الغربية (وكانت تضم آنذاك الشيء الكثير من صربيا العصرية) كانت تحدد دائرة نفوذ بيزنطة الديني والثقافي . وبذلك أضيف سبب جديد للانقسام إلى ما يقوم بالبلقان من أسباب الشقاق التي لا يحصيها عد ، والتي لا تزال آثارها باقية إلى يومنا هذا .

(١) انظر استيفن رانسيان في كتاب (A History of the First Bulgarian

Empire) ص ٩٩ ع ١ (لندن ١٩٣٠)

الفصل الثاني عشر

الفرنجة

عندما توفي كلوفيس في (٥١١) انقسمت مملكته بين أبنائه الأربعة ، « كأنما كانت مزرعة خاصة » . وهذه العادة في اقتسام الإرث عند الفرنجة تعتبر من الحقائق الأساسية في تاريخ الميروفنجيين ، إذ يرجع إليها قدر كبير من التفكك والفوضى التي سادت هذه الحقبة من التاريخ . فكلما مات ملك تواصلت التجزئة ، التي كثيراً ما كانت تستند إلى اعتبارات شخصية بحتة . مثال ذلك أن شرق فرنسا ضم عقب وفاة كلوفيس إلى الأوفرن ، دون مراعاة للأجناس أو القوميات . ولكن المملكة لم تزل على الرغم من هذا التقسيم تعد وحدة ، كما يدل على ذلك اسمها الذي اشتهرت به وقتذاك ، وهو مملكة الفرنجة (Regnum Francorum) ، واعترف أبناء كلوفيس الأربعة ، بأن من واجبه المشترك ، أن يتموا مبادئ أبوهم من الفتح . وفضلاً عن ذلك ، فإن العواصم الأربعة : ريمز وأورنيان وباريس وسواسون ، كانت تقع في أطراف الإمارات ، وكلها على قرب وثيق بعضها ببعض ، وبذلك ألغت مجموعها مركزاً للنفوذ الجرمانى .

ولا تنطوى قصة تلك الأسرة في أثناء نصف القرن التالى إلا على سلسلة طويلة من جرائم القتل واستلحاق الأرض والثورات والتقسيمات الجديدة في الإرث . ولكن الوحدة عادت مؤقتاً في (٥٥٨) يوم لم يبق من جميع سلالة كلوفيس سوى كلوتار . فعلى الرغم من الحروب الأهلية تواصل الربط بين أجزاء فتوح كلوفيس واستمر توسيع رقعتها . فأخضعت برجندياً نهائياً

في (٥٣٤)^(١) وأصبحت تؤلف جزءاً من ممتلكات الفرنجة ، وإن عاد عليها القرن الذي قضته مستقلة بنوع من وحدة الثقافة ، لم تذهب عنها آثاره بعد ذلك أبداً . أما بروفانس التي كانت تابعة في يوم من الأيام لنيودوريك ملك القوط الشرقيين بإيطاليا ، فقد تخلى عنها خلفاؤه في قريب من ذلك الوقت . على حين أن سبتيانيا ، وهي المنطقة الواقعة بين الرون والبرانس ، كانت لانزال بأيدي القوط الغربيين ، ولم تعترف بريتانى للفرنجة إلا بسيادة اسمية . ويمكن القول إجمالاً بأن فتح غالة قد اكتمل حتى حدودها الطبيعية . ولم تظهر الجيوش الفرنجية بهذا المبلغ من النجاح خارج هذا النطاق . إذ إن حملاتهم على شمال إيطاليا وأسبانيا لم يترتب عليها نتائج ثابتة كهذه ، على الرغم من أن ضعف القوط الغربيين والقوط الشرقيين قضى على كل احتمال أمامهم للثأر لأنفسهم . وكان ثيوديبيرت أشد أبناء كلوفيس إقداماً ، وقد دبر ذات يوم خطة رام بها أن ينحاز إلى الجيبيد واللومبارد للقيام بهجوم مشترك على تراقيا ، بل تشير الرواية إلى أنه فكر في شن هجوم على بيزنطة ذاتها . على أنه ينبغي لنا ألا نغلو في تقدير هذه الأمور أكثر مما يجب . فما كان ثيوديبيرت رجلاً يضارع شرملاً أو أوتو ، وليس ثمة دليل على أن وراء هذه الخطط الطنانة بصيرة سياسية نافذة .

ولكن الواقع أن التقدم الحق في أثناء تلك المدة كان في اتجاه الشرق . إذ اكتملت فتوح الفرنجة على يد كلوفيس في صورتها الصحيحة . فقدمت بافاريا فروض الطاعة والولاء ، وأخضعت ثورنچيا . ولكن قبائل السكسون بالسهول العظمى في وسط ألمانيا أظهرت في القتال عناداً أشد ، وردت الغزاة

(١) انظر ص ١٣٧ بعنوان نيودوريك والكنيسة .

على أعقابهم بعد أن كبدتهم خسائر فادحة . على أن هذا يعد ابتداء لعملية التي كتب لشرلمان أن يصل بها إلى خاتمتها ، كما يعد تمهيدا لطريق المبشرين المسيحيين الذين قاموا فيما بعد بتنصير ألمانيا .

المير وفننجيون الأوائل

على أن نصف القرن التالي يتصف بصفة مناقضة تماما . إذ حلت الحرب الأهلية في أثنائه محل الفتح . وعلى الرغم من تواصل الحملات على شمال إيطاليا ، فإنه لم يترتب عليها إضافة هذه الجهات إلى الفرنجة نهائياً . أجل بذلت بعض الجهود لانتزاع سبتيانيا من القوط الغربيين ، وشهدت كل من كركاسون ونيم الاشتباك المسلح بين الطرفين : غير أن المنطقة ظلت خاضعة لحكام أسبانيا ، ثم انتقلت فيما بعد إلى أيدي المسلمين . ولم يبرح البريتون والباسك (الباشكنس) يحافظون على استقلالهم ، وفوق هذا فإن غارات الآفار على ثورنجيا التي حدثت في ذلك الوقت حالت دون أى مزيد من التوسع على الحدود الشرقية . لقد استنفدت موجة الفتح قوتها ، كما أن قوى الانحلال داخل مملكة الفرنجة كانت تعمل عملها بأقصى قوة . والصفحات التي كتبها جريجوري أسقف تور تروي لنا قصة ذلك الزمان . إذ إنها تسجل الوباء والمجاعة والقتل والموت الفجائي . وتذكر امتلاء الطرق بالشحاذين وقطاع الطرق ، بل إن الكائنات نفسها لم تكن بمنجوة من النهب . ولما استشرت العداوات الضارية بين أمراء المير وفننجيين ، التمسوا المساعدة من النبلاء في ممالكهم ؛ وتنجلى نتيجة ذلك في زيادة استقلال النبلاء ونمو الإقطاع واستشراء الخروج على القانون ، وفي العداوة التي نشبت بين أوسترسيا ونوستريا وبين برجنديا وأكتانيا ، التي بدا أنها تنجبه نحو تكوين إمارات مستقلة . وتوفي كلوتار آخر من بقى حيا من أبناء كلوفيس في (٥٦١) تاركا وراءه أربعة أبناء . ولكن لم يعيش

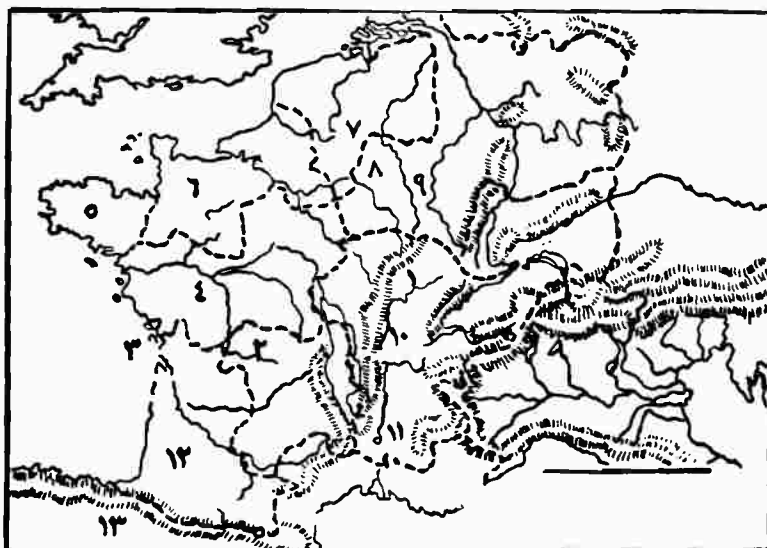
من هؤلاء الأربعة إلا كاريبرت ملك باريس حتى (٥٦٧) ونشب بين سيچبرت ملك متز وشلبريك ملك سواسون نزاع طويل مرير من أجل السيادة ، على حين أن الأخ الرابع وهو جنترام ملك أورليان وبرجنديا حاول أن يحفظ التوازن بينهما . ثم تفاقمت حدة العداوة بين سيچبرت وشلبريك عندما تزوجا أميرتين شقيقتين ، هما برانهيلدا وجالسوينثا - وهما من بلاط القوط الغربيين الذى اشتهر بالآبهة والتدن . على أن جالسوينثا زوجة شلبريك لقيت مصرعها خنقاً فى ظروف مريبة ، وعندئذ عاد شلبريك إلى خليلته الأولى فريديجند . ولم يلبث سيچبرت أن خرّ صريعاً غداة انتصاره على شلبريك ، بطعنات الخناجر المسممة التى سددها إليه عملاء فريديجند . ووقعت برانهيلدا فى الأسر ، غير أنها تمكنت من الهرب إلى مملكة ابنها ، حيث دبرت الانتقام من أعدائها على هذه الجريمة المزدوجة . ومنذ تلك اللحظة تسيطر على هذه الفترة شخصية برانهيلدا ملكة أوستراسيا والوصية على عرشها - وأوستراسيا هى مملكة الفرنجة الشرقية - كما تسيطر على تاريخ الحقبة أيضاً بما شنته من حرب على نوستريا ، وهى مملكة شلبريك فى الشمال والغرب (التى هى آخر الفتوح وأحدثها niust) . ويعتبر شلبريك طراز الطاغية الميروثنجى . إذ إن الشهرتين اللتين سيطرتا عليه هما زيادة ثروته وتوسيع رقعة مملكته . ولتحقيق هاتين الغايتين صار يبيع الأسقفيات ، ويحجى ضرائب باهظة ، وينزل الغرامات على رعاياه الأغنياء ، وذلك على حين أنه لم يكن يرى فى الخيانة ضعة ولا فى القسوة وحشية ، مادام يحقق بذلك خططه ومآربه ضد خصومه من الأمراء الميروثنجيين . وكان جريجورى أسقف تور يعده نبرون زمانه وهيرودس عصره . ولاشك أن هذه الصفات كانت شائعة بين معاصريه . ولكن شلبريك كانت له مواهب أصيلة . فإنه لا حتقاره اللسان الجرمانى ، كان يقرض التراتيل

والقصائد باللغة اللاتينية ؛ وصدر عنه مرسوم أضيف بمقتضاه أربعة حروف إلى الأبجدية . وبأمره تقرر إنكار الأقاليم الثلاثة وبطلانها باعتبارها حماقات تشبيلية ، بل لقد بلغ الأمر بتحرره الفكري أن تحدى قانون السالين ، الذى يعتبر الحصن الحصين لتقاليد الفرنجة ، وذلك فيما حاوله من إجازة الإرث للنساء فى أحوال خاصة . ثم إن لبرانهيلدا عدوته اللدودة شخصية بالغة القوة هى الأخرى . فقد ظلت أكثر من ثلاثين عاما مهيمنة على مصائر أوستراسيا وصامدة فى وجه هجمات شلبريك ، كما أنها تمكنت بفضل مساعدة أتباعها المخلصين ، وعقد تحالف مع برجنديا فى الوقت المناسب ، من القضاء على النبلاء الخونة . فهلك أحدهم فى هيب قلعة أضمرت فيها النيران ، بينما لقي آخر مصرعه بإلقاء الأجر عليه من خلال سقف كنيسة الأسقف بفردان . ونصب حفيداها على عرشى برجنديا وأوستراسيا ، ولكن برانهيلدا ظلت مع ذلك قابضة على زمام السلطان . وعندما شق أمير أوستراسيا عصا الطاعة على طفيانها ، ألبت عليه أخاه ، ولم تزل به حتى هزم وأعدم . ولكن خاتمة حياتها الطويلة كانت اقتربت . فقد مات حاكم برجنديا فى (٦١٣) ، ولم تنجح برانهيلدا فى محاولتها ضم عرشى أوستراسيا وبرجنديا تحت حكم ابن حفيدها . فإن نبلاء أوستراسيا بزعامة أرنولف أسقف متز ويدين ناظر القصر وهامؤسسا البيت الكارولنجي ، استصرخوا ملك نوستريا لمساعدتهما ، وأخذت برانهيلدا أسيرة على شاطئ بحيرة نيوشاتل . وعذبت مدة ثلاثة أيام ثم ربط جسدها فى النهاية فى ذيل حصان جموح ، أطلق له العنان ، وضرب بالسوط حتى جمع وأفلت زمامه .

برانهيلدا وشليريك

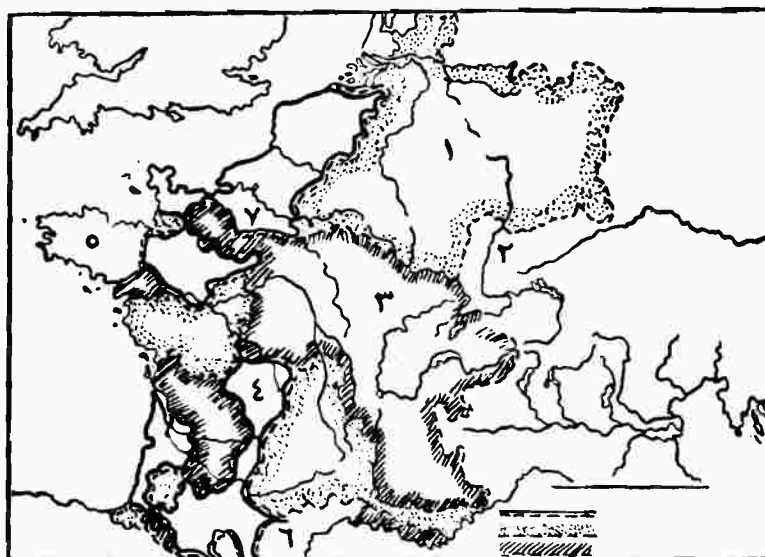
وقد عرفت برانهيلدا كيف تحكم الهيمنة على ما يملكها من قوى . وعلى الرغم من التزامها خطة الحزم الشديد في معاملة الكنيسة ، لم يفتها في الوقت ذاته بذل المنح والهبات العديدة للأسقفيات والأديرة . وتشهد المراسلات التي دارت بينها وبين البابا جريجوري الأكبر بمدى إدراكه لسلطانها على الكنيسة والدولة ، وتقديره لأهمية نفوذها في فرنسا . ويبدو أن النبلاء كانت لهم اليد العليا في عهد كلوتار الثاني الذي تولى عند ذلك عرش المملكة بأجمعها . وكان تعاونهم في أوستراسيا بوجه خاص حاسماً في تحقيق النصر ، ويتجلى الثمن الذي انتزعه واضحاً في مرسوم (٦١٤) . فإن الكنيسة حرصت فيه على إبراز استقلالها ، وطالبت بحرية الانتخابات الأسقفية وزيادة سلطات المحاكم الكنسية ، على حين انتصرت الأرستقراطية صاحبة الأراضي الزراعية على موظفي البلاط ، حيث أصبح محتماً منذ تلك اللحظة أن يكون انتخاب الكونتات^(١) قاصراً على أبناء النواحي الذين سيتولون الحكم فيها ، وبذلك تزايد النفوذ المحلي والوراثي . ومنحت أوستراسيا وبرجنديا نصيباً موفوراً من الاستقلال الذاتي ؛ وبذا صار لكل من المملكتين طابعها الخاص المميز ونظامها الإداري المنفصل ، وأصبح يرأسها نظار القصر ، الذين صاروا يمثلون مصالح النبلاء المحليين بقدر ما يمثلون مصالح الملك . على أن المملكتين تجزأتا في حد ذاتهما إلى إقطاعات كبيرة ، بل لقد مضى التفكك إلى أبعد من ذلك . ومع ذلك حدث في تلك اللحظة أن توقفت العملية برهة وجيزة ، ومن ثم يشهد حكم داجوبرت (٦٢٩ - ٦٣٩) آخر الأقوياء بين الملوك الميروفنجيين

(١) انظر الفصل نفسه بعنوان حكم الرومان والجرمان .



(أ) من ٥١١ - ٥٦١ م

- | | | | |
|-------------|--------------|---------------|---------------------|
| ١ - برجنديا | ٢ - أكتيانيا | ٣ - بوردو | ٤ - بواتيه |
| ٥ - بريتاني | ٦ - نوستريا | ٧ - أوستراسيا | ٨ - ريمز |
| ٩ - ماز | ١٠ - فيينا | ١١ - روفانس | ١٢ - جسكونيا |
| | | | ١٣ - القوط الغربيون |



(ب) ٥٦٨ م

- | | | |
|---------------|-------------|--------------|
| ١ - أوستراسيا | ٢ - مانيا | ٣ - برجنديا |
| ٤ - أكتيانيا | ٥ - بريتاني | ٦ - سبتيانيا |
| | | ٧ - باريس |

(١٤) خريطة فرنسا في عهد الميروفنجيين

الملوك الميروفنجيين ، انبثاقاً نهائياً لمظاهر القوة والجبروت من جانب السلطة المركزية . فإنه ظل عشر سنوات يحكم فرنسا بأجمعها ، بعد أن تمكن فعلاً من إبعاد أخيه بتعيينه حاكماً على إقليم منطقة الحدود ببلاد الباسك . وازدهرت الفنون ببلاطه المتألق الحافل بالفضائح . فإنه أولى صناعة الذهب اهتماماً خاصاً . وتأسست في عهده الأديرة ، وقام المبشرون بنشاط عظيم . وأرغم البريطونيون والبشكنس (الباسك) على أداء يمين الولاء ، وأصبح نفوذ الفرنجة ملموساً في شتّى إيطاليا وأسبانيا . بل لقد حدث أن داجوبرت عقد محالفة مع هرقل ، تقضى بالقيام بإجراء مشترك لمناهضة الصقالبة والبغاير بوسط أوروبا ، الذين كانوا يهددون حدود كل من فرنسا وبيزنطة على الراين والدانوب .

وقعة تيرتري

وعند وفاة داجوبرت انقسمت المملكة شطرين ، وعادت عملية اللامركزية والنفكك سيرتها الأولى ومن المعروف أنه حدث في أثناء حياة داجوبرت أن طلبت أوستراسيا أن يكون لها حاكم مستقل ، وهو ابن الملك . وعندما ازداد ظهور نزعات الانفصال في الأجزاء الثلاثة التي تتألف منها فرنسا . والواقع أن تاريخ القرن التالي لا يدور إلا حول قصة أطاع نظار القصور ومنافساتهم . وصار الأمراء الميروفنجيون يولدون ويموتون ، وليسوا سوى أشباح قصيرة العمر ، قد أهلكها انغماسها في الفجور (Rois fainéants) في سن مبكرة ، دون أن يظهر بينهم في أحسن أحوالهم إلا الورع الضعيف أو الظريف المستسلم . أما القوة الحقيقية فأصبحت في أيدي كبار موظفي الدولة ، الذين كانت المنازعات التي تنشب بينهم من أجل السيادة الشخصية ، هي التي تقرر مصائر المملكة . على

أن مركز نظار القصور^(١) كان متناقضاً من بعض الوجوه . فإنهم كانوا في نفس الحين كما سبق أن أشرنا نواب الملك الممثلين له وزعماء طبقة النبلاء المحليين . وعندما تعارضت هذه المصالح المتضاربة ، انحاز بعض محافظي القصر إلى جانب الملك ، بينما انضم بعضهم الآخر إلى جانب النبلاء . على أن جريموالد ناظر القصر في أوستراسيا أنس في نفسه من الجرأة والإقدام ما حمله على إعلان مناهضته للجانبين جميعاً . ولم يلبث حتى نفى الأمير الميروفنچي إلى إارلندة في (٦٥٦) ، وأجلس ابنه على العرش . غير أن الوقت لم يكن مناسباً للقيام بهذه المغامرة ، فتغلب عليه النبلاء ، وأسلموه إلى ملك نوستريا فأعدمه . ولم يجد سلالته من السكارولنچيين في أنفسهم من القوة ما يكفي لممارسة السلطة الملكية باسمهم إلا بعد مضي مائة سنة . على أن الحروب الأهلية لم تتوقف قط في تلك الأثناء ، حيث كان كل ناظر قصر يحرص على رفع شأن إقليمه ، إما بقصد إرضاء الملك الذي يقوم على خدمته ، وإما بالحد مما طبع عليه رفاقه النبلاء من رغبة جشعة في انتهاب الأراضي .

على أن مملكة نوستريا صارت لها اليد العليا في (٦٥٧) بفضل ما اشتهر به محافظ القصر إبروين ، ولكن أوستراسيا طالبت بأن يكون لها محافظ قصرها وملسكها الخاص ، أما برجنديا التي تولى قيادتها أسقف أوتون ، الذي رفع فيما بعد إلى مرتبة القديسين باسم القديس ليجير ، فإنها طالبت بالاستقلال . ووقع ليجير في الأسر وأعدم بعد أن حل به من التعذيب والتنكيل ، ما جعله يظفر في الأزمنة المتأخرة بتاج الشهداء ، واستعادت نوستريا سيادتها مرة أخرى . وقد ظل إبروين محتفظاً بسلطانه حتى وفاته (٦٨١) ، ولكن نجماً جديداً سطع في الأفق في ذلك الحين . فإن يمين الثاني زعيم النبلاء الأوستراسيين قد لقي

(١) ناظر القصر أو حاجب القصر (Mayor of the Palace)

الهزيمة على يد إبروين ، ولكنه عاد بعد ذلك بوضع سنوات فانهز فرصة الشقاق الذى دب بين أهل نوستريا ، فزحف على المملكة المنافسة له ، وتمكن فى معركة تيرترى بالقرب من بيرون من التغلب على كل مقاومة ، ونصب نفسه حاكماً فعلياً على فرنسا (٦٨٧) . ولم تكن معركة تيرترى نصراً لجرمان الشرق على جرمان الغرب ؛ وذلك لأن ييبين ظفر بتأييد فريق كبير من النوستريين . على أن تلك المعركة كانت فى ظاهرها نصراً للنبلاء على السلاطة الملكية التى كان يؤيدها جريموالد وخليفته ؛ ولكنها لم تكن فى الواقع إلا انتصاراً شخصياً ليبين . ومنذ تلك اللحظة أصبح ييبين سيداً على فرنسا ، وصار هو الذى يهب منصب محافظ القصر لمن يشاء من أفراد أسرته ، ويحكم البلاد حكم ملك حقيقى لا يعوزه إلا القلب . وبذلك يكون ما فعله فى الواقع نهاية حكم الميروفنجيين ، وبداية عهد الأسرة السكارولنجية .

وتمكن فى المدة بين (٦٨٧ ، ٧١٤) من فرض سلطانه على البلاد ، واستطاعت قبضته القوية أن ترفعها مكاناً عالياً فى سياسة غرب أوروبا . على أنه عند وفاته ، صارت مصائر أسرته ووحدة فرنسا فى كفة القدر . ذلك أن ولديه الشرعيين توفيا فى أثناء حياته ، ولما يبلغ أحفاده سن الرشد بعد فافصلت برجنديا ونوستريا إحداهما عن الأخرى ، وانتشرت الفوضى والاضطراب بكل أرجاء البلاد . ففى الشمال الشرقى عاث الفريزيون فساداً فى المنطقة المحيطة بمدينة كولن ؛ وحذا حذوهم السكسون فى أقصى الجنوب ، على حين اغتصمت أكتانيا الفرصة للمرة الثانية فأعلنت استقلالها . بيد أن البيت السكارولنجى عثر عند ذاك على بطله الذى وهبه ذلك الاسم . إذ إن شارل مارتل الابن الثالث ليبين تغلب على جميع العقبات التى صادفته الواحدة بعد الأخرى . وقد استخدم قوة أوستراسيا كما فعل أبوه من قبل وقضى على جميع العصاة النوستريين وألزم أهالى أكتانيا الطاعة واستعاد الأطراف الشرقية بمجموعة

من الحملات المظفرة ، كما استطاع في (٧٣٢) تشتيت شمل الجيوش العربية في معركة بواتيه ^(١) ، متبعاً نصره بعد ذلك بحملته التي شنّها على بروفانس . ومع ذلك فقد أظهرت الأيام أن استقلال أكيثانيا قد خدش ولكن لم يقض عليه ؛ وظل العرب محتفظين بمدينة ناربونة ، التي اتخذوا منها ملاذاً حصيناً يخرجون منه لمباغمة مدن وادي الرون .

على أن پيپين بن شارل هو الذي أتم نهائياً إخضاع أكيثانيا . إذ إن فتحه لها انسم بالاستقرار والنجاح والثبات . كان يفوق أباه في البراعة السياسية والتدبير ، وشاهد ذلك أنه حرص على استرضاء الكنيسة بمنحها الهبات التي تقوم على دراسة وتمعن ، وعنى بتأسيس حزب موال له بين أهالي أكيثانيا أنفسهم . وقد نجح منه الحرص في سياسته منذ وقت مبكر ، وكانت آية ذلك حادثاً صدر عنه . ففي (٧٥١) اتخذ پيپين لقب ملك فرنسا بعد أن حصل على موافقة البابا على مشروعه ، وبعد أن أمر بحلق رأس آخر الميروفنجيين وإدخاله حياة الرهبنة . وبعد ذلك بثلاث سنوات توج پيپين رسمياً بكنيسة سان دينيس ، وقام بحرامم التنويج البابا استيفن الثاني ، الذي كانت الظروف قد اضطرتّه إلى اجتياز جبال الألب يلتمس مساعدة الفرنجة على اللومبارد . وكان التنويج من الشعائر الجديدة على الفرنجة ؛ فإنه كان بمثابة الخاتم الذي مهر به انتخاب پيپين لعرش المملكة ، ذلك الانتخاب الذي أقرته من قبل جمعية الشعب (المجلس الوطني) وقد قدر لنظرية « الحق الإلهي » في الحكم الذي تنفرد به أسرة معينة ، أن تزداد أهمية فيما عقب ذلك من تاريخ فرنسا ؛ ومع ذلك فإنه حتى في هذه الفترة كان قيام الكنيسة بمسح الملك بالزيت المقدس ، مسحاً يقترن بالسوابق المستمدة من الكتب المقدسة ، أمراً لا بد .

(١) انظر الفصل التاسع بعنوان فتح شمال إفريقيا .

حنه ، لموازنة ما جرى من انتهاك حرمة الميروثنجيين الذين يعتبرون من سلالة إله البحر الأسطوري ، والذين احتفظوا ، حتى في إبان اضطهادهم ، بما كان للوثنية في الأزمنة السحيقة من قداسة خفية .

الهابوية والكارولنجيون

ولم يكن من الأحداث العارضة تحالف البابا وأسرة الكارولنجيين ، الذي قدر له أن يغير مجرى التاريخ الأوربي بأجمعه . وعلى الرغم من أن الشكل الذي اتخذته ذلك التحالف إنما يرجع إلى سياسة بعض الشخصيات البارزة ؛ فإن المؤثرات المتلاقية المتجمعة التي جعلت تلك السياسة شيئاً مرغوباً ، كانت ثمرة تطورات بطيئة . وبذكر القارىء أن كلوفيس أنشأ كنيسة يصح اعتبارها قومية أو تكاد . وقد واصلت الكنيسة الاحتفاظ باستقلالها في ظل أحفاده ، حتى أن البابا جريجورى الكبير نفسه لم يستطع رغم تعيين نائب له في آرل ، تنفيذ مدعياته في السلطان ، بل اضطر إلى أن يكتفى بأن يمارس عن طريق أمثال برانهيلدا نفوذاً غير مباشر . وانعكس على الكنيسة الارتباك والبلبلة اللذان يتولدان عن الحروب الأهلية ؛ فإن انقسام المملكة لم يهيء الفرصة لعقد المجمع الكنسي العامة ، كما أن الأساقفة تورطوا في النزاع السيامي . واختلطت السلطات الزمنية بالكنيسة ، ولم يكن صوت الهابوية مسموعاً بين فرقة الأسلحة . فلما أن أعيد النظام إلى نصابه في عهد الكارولنجيين ، صار من الضروري إتمام الوحدة السياسية لفرنسا ، بزيادة العناية بتنظيم إدارة الكنيسة . إذ إن شارل لم يسهم إلا في زيادة الاضطراب ، وذلك لأنه كافأ أتباعه بما بذله لهم من الأسقفيات والأديرة ؛ ولكن يبين وأخاه كارلومان اللذين انسحبا فيما بعد إلى الدبر ، أقرا مشروعات الإصلاح التي عرضها عليهما جونيغاس ، وصدرت على أثر ذلك طائفة من القرارات ،

التي تنظم السلطة الكهنوتية وإدارة الكنيسة وآدابها . وكان بونيفاس مبشراً إنجليزياً ، قام بخدمات جليلة في ألمانيا ، حيث أدخل في الدين المسيحي عدداً كبيراً من الوثنيين . وسنعود إلى الإشارة إلى أعماله الجليلة فيما بعد ، بيد أن أهمية عمله في هذا المقام ، إنما ترجع إلى علاقته الوثيقة بالبابوية . وكان بونيفاس من رجال البابا المخلصين . وقد طلب من كل أسقف يتبعه أن يقسم بيمين الولاء للكنيسة روما وللقديس بطرس وقسيسه الأكبر وهو البابا . وعلى الرغم من أن بيبين وكارلومان احتفظا بما لهما من حقوق السيادة على الكنيسة ، فإنهما كثيراً ما كانا يستشيران البابا ، ومن ثم أخذت العلاقات بين السلطتين الكبيرتين في الغرب تتموث رويدا رويدا . وحدث بالفعل أن شارل مارتل تلقى استغاثة من البابوية تستصرخه لنجدها ، وقد اشتد بها الضيق في أثناء كفاحها مع اللومبارد . غير أنه لم يستجب لذلك النداء ، وذلك لأن مركزه لم يتوافر له من الاستقرار ما يسمح له بخوض حملات خارجية مخوفة بالمخاطر ؛ يضاف إلى ذلك أن اللومبارد كانوا الحلفاء الطبيعيين للفرنجة وأنهم انحازوا إلى شارل في أثناء قتاله مع المسلمين . ولم يجد شارل كذلك بدا من النظر بعين الاعتبار إلى مركز أباطرة بيزنطة الذين كانوا بوصفهم أباطرة روما لا يبرحون يطالبون بالسيادة على إيطاليا . غير أن الأحداث كانت تتحرك بسرعة نحو خاتمة فاصلة . ففي (٧٥١) قذف ملك اللومبارد بقواته على رافنا . ففر الأرخون (النائب الامبراطوري) البيزنطي وفقدت بيزنطة إلى الأبد أملاكها في شمال إيطاليا . وفي السنة ذاتها وبتشجيع من البابا ، اتخذ بيبين لنفسه التاج بعد أن نحي عن العرش آخر ملوك المبروفنجيين . وعندئذ أصبح تهديد اللومبارد للبابوية خطراً محدقاً ؛ وكان الموقف يتطلب منها الخضوع التام ، كما أن سقوط روما بدا شيئاً لا مندوحة منه . ولم يرح بيبين متردداً ، حتى عبر البابا بنفسه جبال الألب في مهمته الخطيرة ، التي أدت إلى

جلب قوات الفرنجة إلى إيطاليا ، وتوطيد اتحاد البابا والبيت الكارولنجي في الإمبراطورية الرومانية المقدسة .

حكم الرومان والجرمان

بالغ المؤرخون في قيمة بقاء فكرة الإمبراطورية في أثناء القرون التي انقضت بين سقوط روما وتنويع شرلمان . حقاً أن جذور الإمبراطورية الفرنجية كانت تمتد طويلاً في الماضي السحيق ، وأنها تستمد بقاءها بطبيعة الحال من السوابق العتيقة ؛ يضاف إلى ذلك أن تأسيسها لم يحدث انقلاباً ثورياً في الموقف السياسي بالغرب ؛ وكل ما فعله أنه كان تعبيراً رسمياً لما كان قائماً فعلاً من الأمور . غير أن ما اقترن بأصلها من ظروف عجيبة والفروق الضخمة التي كانت تباعد مسافة الخلف بينها وبين الإمبراطورية الرومانية القديمة ، أنموذجها الأول المختنى ، إنما ترجع إلى حد كبير إلى اندماج الحضارتين الجرمانية والرومانية ، الذي تميز به سكان ممتلكات الفرنجة . وكل ما يمكننا إيراده هنا عن ذلك الأمر هو مجرد الإشارة العابرة . ذلك أن ما حدث إنما هي عملية معقدة دامت ثلاثة قرون ، واختلف أثرها بين منطقة وأخرى ، وبين مدة زمنية وأخرى ، كما أن معرفتنا بها ضئيلة ومستمدة من سجلات متقطعة متناثرة ، وهو وضع يحول دون الوصول إلى قواعد وتعميمات وثيقة .

فمن حيث المظهر ، يبدو أن التنظيم الإداري والسياسي بفرنسا لم يختلف إلا قليلاً عما كان عليه حاله في غالة الرومانية . إذ إن ما اتخذته ذلك التنظيم من الطرائق والمصطلحات مستمد من روما ، وكانت اللاتينية هي اللغة الرسمية . ومما هو جدير بالملاحظة في هذا الصدد ، أن عدد الكلمات ذات الأصل الجرمانى في الفرنسية الحديثة لا يتجاوز العشرة في المائة من اللغة الفرنسية ذاتها . أما فيما يتعلق بالوضع القانوني ، فلم يفترق الفرنجة عن سائر السكان إلا في قيمة

الدية (Wergild) ، على حين أن مناصب كبار رجال الدين ، فضلاً عن المناصب المالية ، كان يشغل معظمها الرومان الفرنسيون . ولكن لو فرض أن أوضاع هذه النظم بقيت دون تعديل ، فلا شك أن روحها كانت تعرضت فعلاً لتغيرات عميقة ، لا عن طريق المؤثرات الجرمانية المباشرة فحسب بل أيضاً نتيجة ما ترتب على الغزوات من أحوال جديدة . وقد استندت الإمبراطورية الرومانية إلى الفكرة التجريدية عن الدولة ، وإلى جعل القوانين والحكومة للجميع بدرجة متساوية ، وبصورة مستقلة عن أولئك الذين يمثلونها . فالفرد ليس إلا مواطناً بالإمبراطورية لارعية للإمبراطور . أما المملكة الفرنجية فكان اعتمادها في بقائها على العلاقة الشخصية بين الرجل والرجل . وكانت سلطة الملك شخصية بحتة ، فهي من ثم تختلف باختلاف شخصية شاغل العرش . وكان رعاياه يرتبطون به بيمين الإخلاص - التي هي رابطة شخصية - وهي يمين تحم عليهم اتباعه في الحرب . وظهرت عند ذاك طائفة جديدة من النبلاء ، اعتمدت في البداية على الملكية ، ثم أخذت بعد ذلك تظفر بالقوة عن طريق النفوذ الوراثي المحلي ، والإعفاءات التي كانت تغدق عليها . وكان العنصر الشخصي ظاهراً أيضاً في المجال القانوني . فإن الرجل من هؤلاء كان يحكم بمقتضى قوانين الجنس الذي ينتسب إليه ، سواء كان من الغاليين الرومان أو الساليين أو الريبواريين أو البرجنديين . وكانت طريقة الأخذ بالنار ، وهي ذلك المبدأ الجرمانى القديم ، لا تزال قائمة لم يتم القضاء عليها ، ولذا حفلت صفحات تاريخ جريجورى أسقف تور بقصص النار والانتقام . ومن ثم فإن ما اشتهر به نظام الوظائف في غالة الرومانية من بالغ التخصص في الأعمال لم يعد له وجود ؛ وذلك لأن ظهور الأحوال الجديدة البدائية الساذجة أزال كل فائدة له . فأحاط بالملك «التشرىفاتى الحاجب» و«الصنجيل» و«الكندسطليل» ، وقام بالمهام الخاصة

أفراد من رجال البلاط لم يجر اختيارهم وفقاً لنظام خاص . وأصبحت المناطق المختلفة تحت حكم الكونتات الذين يختارهم الملك من بين جميع الطبقات ، بينما نيطت حكومة النفور بأدواق عسكريين ، كثيراً ما أصبحوا حكاماً وطنيين ومستقلين فعلاً ، شأن ماحدث من دوق بافاريا وثورنچيا . وكانت بوابات العصور ومعديات الأنهار لاتزال تدفع مكوسها ، وإن حدث في كثير من الأحيان أن أفرادا كانوا يفتصبون تلك المكوس لأنفسهم ، على أن نظام الضرائب المحكم الذي تميزت به الإدارة الرومانية قد أغفل وأصبح مهملاً : إذ لم يعد له مكان في خطة أمير ليس لديه خدمات عامة يحرص على صيانتها والمحافظة عليها ، ولا يعد المال إلا شطراً من ثروة مدخرة تحول عند اللزوم إلى صحاف ذهبية أو حلى مرصعة بالجوهر . وبلغ بهم الأمر أنهم كانوا لا يعدون الجيش من الأعباء العامة بالدولة ؛ إذ تمشد « الجموع » حشداً جديداً لكل حملة من الحملات . وكان رجال الجيش يعتبرون أتباع الملك ، ويؤدون الخدمة على حسابهم الخاص . أما القوات الدائمة الوحيدة فهي الحرس الملكي الخاص (Antrustions) ، فضلاً عن بضع كتائب قليلة ترابط على التخوم .

على أن فئات نظام الدية^(١) تقسم المجتمع ابتداءً إلى غالب ومغلوب ، وتضع الغالبين الرومان دون أقل الفرنجة مرتبة . غير أن هذا الوضع لم يستمر طويلاً . إذ إن الميزات الشخصية قد أبرزت نفسها ، فبينما ظلت طبقة السناثوريين تمتد الحكومة بالأساقفة والموظفين ، حاز أغنياء الفرنجة قسطاً ضئيلاً من الثقافة الرومانية . واختلطت الطبقتان إحداهما بالأخرى ، وحذا حذوم الأرقاء والعتقاء وصغار الفلاحين من كل من الجنسين . وهنا أيضاً يكون ولاء الفرد للفرد هو القوة الرابطة . فالأسقف أو رئيس الدبر والموظف في البلاط أو

(١) انظر الفصل الثالث بعنوان فرنسا في عهد كاريوس ص ١٢٠ .

الحاكم المحلي كلهم رجل الملك (Leud) ، وكلهم مرتبط به برباط خاص ، وكلهم موضوع تحت حمايته . وكان هذا المبدأ نفسه معروفاً في كل إقليم (pagus) . فالكونتات ينتظمون تحت إمرة الأدواق ، ويلتمس حماية الكونت الرجال الذين يقولون عنه مكانة . فكان السلسلة الإقطاعية قد تشكلت فعلاً ، وإن لم يعترف بها القانون بعد ، وهنا أخذت كلمة « رجل (Leud) » تختفي ليحل محلها مصطلح : « تابع Vassus » . يضاف إلى ذلك أن هذه التبعية الشخصية قد عززها وزاد في قوتها نمو المزارع الضخمة . فكما حدث في القرون المتأخرة من الحكم الروماني ، كان المالك الصغير يسارع إلى وضع نفسه تحت حماية سيد قوى بأن يتنازل له عن حيازته الحرة مقابل الحصول على وعد بكفالة سلامته وأمنه . وكانت الأديرة والأسقفيات تضيف إلى أملاكها الحقل بعد الحقل ، وذلك لأنه متى انتقلت الأملاك إلى يد الكنيسة ، لم يعد ممكناً انتقالها من حوزتها ، وكانت نتيجة ذلك أن انتقل إلى ملكية الكنيسة بفرنسا ما يربو على ثلث الأراضي . ويتجلى ضعف السلطة المركزية أيضاً فيما ارتكبه صغار موظفيها وتابعيها من الأخطاء والأضرار ، على أن كبار الملاك حصلوا على الامتيازات والإعفاءات تجنباً لما يقوم به هؤلاء الموظفون من ابتزازات . وبذلك أبعد موظفو الملك عن تلك الأراضي منذ تلك اللحظة ، وانتقل إلى ملاك الأراضي كل ما يتصل بالضرائب والشئون القضائية من حقوق ومزايا وأرباح . والواقع أن الملكية والسيادة أخذتا بالفعل تتوحدان وتتماصان . ومن ثم جردت الملكية (العاهلية) الوهمية نفسها من كل ما تبقى لها من سلطات قليلة . ومن هنا أخذ ما كان لدى الرومان من حكومة مركزية وآفاق عريضة للدولة يقترب من نهايته ، ويتحول إلى خصائص العصور الوسطى وما لها من الحكم المحلي والنظرة الضيقة المحدودة .

الفن والأدب والخرافات

لقد ولت حياة المدينة القديمة . وأصبحت المعابد ومدرجات الألعاب (Amphitheatres) خرائب وأطلالا ، وصارت الحدائق تشغل المناطق الخالية داخل المدن المسورة . وتكس سكان القرى حول مسكن مالك الأرض الكبير بما يحوى من كنيسة وطاحون ودكان حداد ومخابز وإسطبلات إلى غير ذلك من الوسائل التى تكفل الاكتفاء الذاتى . وفى بعض الأحوال كانت أكوخ الأتباع تقع فى أطراف الضيعة ، على أنها تقوم فى معظم الحالات فى شوارع متجاورة ، وهى أسلاف معظم قرى فرنسا الحديثة . ولا تزال بيوت الأغنياء تحوى السقائف والأعمدة ، ولا تزال بها الحمامات والينابيع . وقامت الكنائس فى كل مكان ، منها ما اتخذ طراز الباسيليكة القديمة ومنها ما هو على شكل الصليب ، يتوسطها برج بأعلاه منور ، ومنها ما بنى من الخشب على الطريقة النيوتونية . ويتألق داخلها بما رصع فيه من رخام ملون ومنا أسدل فيه من أستار الحرير الفاخرة الموشاة ، على أن الرخام قد انتزع أصلا من بعض العماير القديمة ، كما أن الأستار الحريرية مصدرها بيزنطة . ويفلب الطابع المتبربر على فن النحت ، وقد اندثر نهائيا ما اشتهرت به النواويس الأارليسية من تقاليد النحت الأصيلة . فلم يبق على ازدهاره القديم سوى صياغة المعادن ، لأنها كانت تحظى بتشجيع خاص من البلاط الميروفنيجى ، ومن هنا تأمس حتى الصاغة فعلا فى ظل كنيسة نوتردام بباريس .

وأخذ التغير السريع يلم بلغة الحديث . ولم يعد الفرق كبيرا بين اللغة السوقية الدارجة ولغة الأدب ، وأخذت اللهجات المختلفة تسير فى عملية التشكل بفعل ضغط القوانين الصوتية . فاستخدمت لفظة (Flumina de sanguine) للدلالة على « أنهار الدم » واستخدمت عبارة (promissum habemus)

للتعبير عن قولهم « لقد وعدنا » . واستعملت ألفاظ ألمانية كثيرة ، ولكن
اللسان الجرمانى لا يفتأ يحتفظ بمكانته فى المناطق الشرقية . وباستثناء كتاب
التاريخ الذى ألفه جريجورى أسقف تور ، فإن الأدب اقتصر أو كاد على تراجم
القديسين ، وهى مؤلفات تكرر فى تشابه ممل سرد المعجزات التى أتتها
بطلها المترجم له . وفيها تتعاقب العبارات الرتيبة والجلل السقيمة بعضها وراء
بعض ، وليس بين الكتاب واحد متمكن من لفته . وليس فيهم من ألم بأية
حال بالدراسات الكلاسيكية ، بل إن الاعتقادات اللاهوتية نفسها قد أقفل
رتاجها دون معظم رجال الدين من أهل غالة . وتشربت ديانة سواد الناس
بالتقاليد الوثنية ، بل الحق أن الوثنية نفسها لم تخدم نارها ولم تحتف نهائياً . فإن
ماذاع عند الكلتيين من عبادة إله البحيرة وإله الجدول ، كان لهما من يعبدهما
سراً ، كما أن الإله أودن كان لا يزال له مقره فى غابة الأردن . على أن دعوة
الكنيسة التى تعززها الرهبة من السلطة الدنيوية ، قدر لها أن تجرد الآلهة
القديمة من سلطانها ، غير أن الصياد الأسود واجتماع الساحرات عند منتصف
الليل ، وكل ما يصدر عن صنوف العفاريت من الفيرى والأقزام والوحوش
من ضجيج ، قد ظلت تلاحق خيال العصور الوسطى وتستثيره . ومنذ ذلك
العصر أصبح الشيطان (وهو « العدو » كما أخذوا يسمونه - وهو لفظ يجمع
بين الخوف والخفاء) بارزا مشهورا فى المعتقدات الشعبية ، وأخذ الدين يتشع
برداء معتم قائم . فإن أحداً من الناس لن يستطيع فى اعتقادهم درء انتقام الله
أو مكر الشيطان إلا بإقامة الشعائر الدينية . ويظهر القديسون فى الحقول
عياناً ، وتصبح المعجزات ونذر السوء من خبرات الحياة اليومية . وترهق
الأحلام والنال عقول الرجال ، وتكتسب الأضرحة والمقدسات الدينية
قدرات سحرية على النفع والمضرة .

فهل يوجد في مثل هذا العالم شيء طبيعي ومعقول أكثر من أن الإمبراطور قسطنطين ، وقد شفّته المعجزة من البرص ، قد اعتنق المسيحية ، جالِباً معه الإمبراطورية الرومانية بأجمعها ؛ وأنه بادر من فوره بالإنعام على البابا سلفستر بتولي الحكم الإمبراطوري في الغرب منسجِباً هو نفسه بغاية التواضع إلى بيزنطة ؟ أو هل هناك شيء طبيعي أكبر من أن تتناقل الألسن أن القديس بطرس بشخصه قد دعا القوات الفرنجية للدفاع عن مدينته المقدسة ؟ وكيف يمكن في حمأة مثل تلك الأشكال والنظم أن تحمل ألفاظ مثل الشريف (البطريق Patricius) والإمبراطور والجمهورية بماهين من تاريخ قديم ومعقد أى معنى أو أهمية دستورية مضبوطة إلى عقل رجال السياسة في ذلك الزمان ؟

الفصل الثالث عشر

البابوية

١ — نفوذ البابوية في إنجلترا وألمانيا وفرنسا

نقد شهد القرنان اللذان أعقبا وفاة جريجورى الكبير ، تطور النفوذ البابوى بأوربا الغربية ، ذلك النفوذ الذى مضى متمهلا مضطربا وخفياً غير مدرك حتى عند أصحابه أنفسهم . وقد كان لما اتصف به جريجورى من خلق ومكانة شخصية ، أثره فى رفع مكانة كرسى القديس بطرس إلى مستوى لم يستطع خلفاؤه المحافظة عليه ، ولم تسكد شخصيته القوية تنوارى عن الأنظار ، حتى نحلى عدم استقرار مدعياته . أجل إن بعض المشاكل التى أثارها ممالك البرابرة قد حلت ، ولكن مصاعب جديدة بالغة الضخامة صارت ملموسة . وقد أخذ الاضمحلال يدب إلى المذهب الأريوسى . وتحول اللومبارد إلى العقيدة الكاثوليكية ، واقتفت أسبانيا آثارهم عندما اتخذ ريكارد (٥٨٦-٦٠١) الكاثوليكية عقيدة قومية . على أن الخطر كان وقتذاك بالغ الاختلاف وشديد الخطورة . فلم يكن فى وسع الأمراء الجرمان ، وقد انصرف كل منهم إلى إنشاء حكومة مركزية قوية ، أن يتخلوا عن أى من عناصر سيادتهم . فلو حدث أن أنشأ هؤلاء الحكام مجموعة من الكنائس القومية لاتدين للبابوية إلا بولاء لفظى مجرد من الإخلاص ، لكان ذلك ضربة مسددة إلى قلب روما ذاته . والواقع أن الجوكان ينذر بنشوء ذلك الوضع السيئ . ذلك أن كلوفيس وخلفاءه لم يكونوا يطبقون مطلقاً أى تدخل فى سيطرتهم على الكنيسة ، ولذا ظل منصب القاصد الرسولى (نائب البابا) بمدينة آرل مركزاً شرفياً ، لا يقوم بعمل النائب

عن حبار روما. ولم يتوقف اللومبارد عن العدوان حتى بعد اعتناقهم المسيحية. وربما جاز فعلاً أن نخاف البابوية وهي واقعة بين سيوف اللومبارد (Inter Gladios Lombardorum) قيام مملكة جرمانية في إيطاليا. على أن نشاط جريجورى أوتى في أسبانيا حظاً أوفر من النجاح. إذ توثقت بفضل العلاقات بين روما وبين الأساقفة الأسبان، ولذا تميز القرن الأخير لحكم القوط الغربيين بنمو نفوذ الأساقفة، الذى بلغ من سيطرته على الشؤون العلمانية أن طغى على سلطان الملكيات نفسها. وعلى الرغم من أن أحكام البابوية وقواعدها أرهقت الروح الاستقلالية للكنيسة الأسبانية، فإن هجوم الجيوش الإسلامية عرض سلطان الكاثوليكية لضربة أشد خطورة.

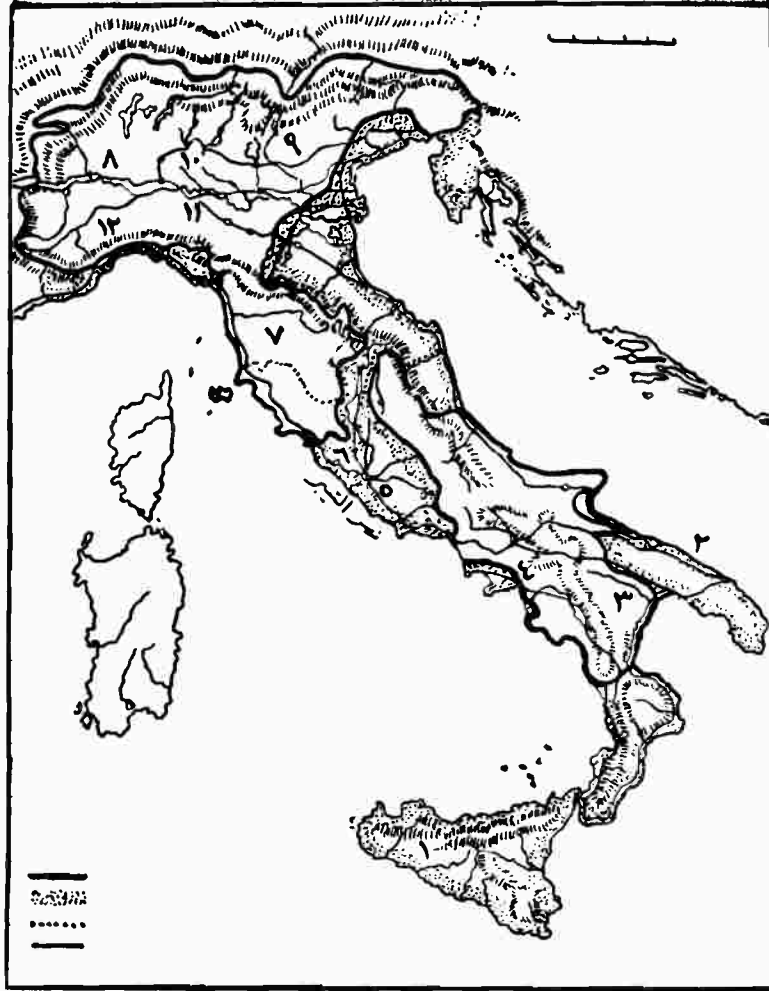
على أنه لم يكن بد من أن يعدل التوازن عن طريق جهة أخرى. ذلك أن بقايا المسيحية البريطانية كانت تراجعت إلى المناطق الغربية أمام زحف السكسون. وقد حملت العقيدة قبل ذلك إلى إرلندة، حيث نشأ مركز جديد للمدنية، يجتذب إليه القديسين والعلماء من أرجاء العالم. وفي هذه الجزيرة المنقطعة عن العالم القديم والتي لم تمسها أسنة المغيرين الجرمان، بقيت تقاليد الحضارة القديمة حية في الأديرة الكبيرة، وإن أصابها الهزال ومسها التبربر. ولا شك أن الجو الخاص الذى يربم على هذا العالم الأجنبى الغريب، إنما ينجلي فيما صدر عنهم من قصائد لاتينية نلمس فيها طريقة السكتيين في مراعاة الإيقاع والوزن في حروف العلة بالكلمات المتتالية في مخطوطاته الفائقة التى تفرد بينها كتاب المشبكات (Book of Kells) بما حوى من الحليات والحروف الكبيرة^(١). بيد أن الكنيسة الإيرلندية لم ترض بالبقاء في عزلة. إذ إن كولومبا نشر الإنجيل في اسكتلندة والجزائر الغربية، كما أن أيونا أصبحت

(١) انظر ص (١٥٦ - ١٥٧) والخروف الكبيرة هى المستخدمة في هذه الجمل والأعلام في اللغات الأجنبية.

مركزاً شهيراً للمسيحية . وعبر كولومبان البحر إلى فرنسا ، حيث أقام أديرته التنسكية بمنطقة الفوج . وتولى جال في سويسرا وكييلان في بافاريا نشر المثل العليا الإيرلندية (الهيرنية) .

روما والكنيسة الكلتية

وانطوى هذا النشاط التبشيري على بعض الأخطار التي تهدد سلطان روما . وفيما خلا ما نشب من فروق صغيرة ، كان لها طابع جدلى بحث مثل الاختلاف على تحديد موعد عيد الفصح وطريقة قص شعر الرهبان ، فإن الكنيسة الكلتية احتفظت بكل من إيرلندة وغرب بريطانيا بتقاليد بدائية كثيرة ، وأبدت نفورا من الاعتراف بقيمة نظام الهيئة الكنسية وترتيباتها ، التي تطورت في الأقاليم التي قطعت في المدنية شوطاً أبعد ، والتي أنشئت على غرار النظام الإدارى في الإمبراطورية الرومانية . كان هناك الأبروشية والأسقفية والأسقف والمطران والمجالس والقوانين الكنسية ، وفوق هذا كله السلطة المركزية بروما - ولكن هذا النظام المنطقى لم يثر حماسة بين مجتمعات الأديرة القبلية بإيرلندة . ومع أن بعض الخالمين المتحمسين من « جزيرة القديسين » (إيرلندة) هذه ربما تجرأوا على توبيخ الملوك ، بل ربما كانوا عرضة في بعض الأحيان لحرق برانهيلدا الرهيبة ، إلا أن أرباب السياسة والتدبير من البابوات مثل جريجورى أدركوا أن توطيد سلطان الكنيسة على المجتمع العلمانى لن يتحقق إلا باستخدام أساليب بالغة العلمانية ، وبإنشاء قوة مدربة منظمة . ولذا فسكر هؤلاء الساسة في أن يتخذوا من هيئات الرهبان عوناً عظيم القدر في تحقيق هذا المبدأ ؛ ويجعلوا منها قوة يركن إليها في دعم سلطان البابوية والقضاء على كل أسقف متمرد ، ولم يكن الأساقفة في العادة سوى نبلاء أقويا انتزعوا مناصبهم كرهاً من ملك ضعيف أذعن لإرادتهم . ولكن الفئة التي تمت الاستفادة منها على



(١٥) خريطة لإيطاليا من القرن السابع إلى الثامن

- | | | |
|--------------|--------------|----------------|
| ١ - صفلية | ٢ - كالابريا | ٣ - بنيفنتو |
| ٤ - كامبانيا | ٥ - روما | ٦ - نهر التيبر |
| ٧ - توسكانيا | ٨ - نوستريا | ٩ - أوستريا |
| ١٠ - ميلان | ١١ - بارفا | ١٢ - ليجوريا |
| ١٣ - نابولي | | |

هذا الوجه ، لم تكن فئة الرهبان الإيرلنديين ذوى النزعة الفردية ، ممن يتحدثون الملك والأسقف بل البابا نفسه ، وإنما هم طائفة الرهبان البندكتيين الذين عمدوا إلى إفناء شخصياتهم فى الإذعان لقادتهم الروحانيين .

وكان إيفاد البابا جريجورى للقديس أوغسطين فى مهمته التبشيرية ببلاد الإنجليز نقطة التحول فى هذه العملية ، وإن بدت مهمة ضئيلة الشأن فى ذلك الزمان . وتم تنصير إنجلترا رويدا رويدا واستغرق الشطر الأكبر من القرن السابع ، بيد أنه انطوى على سلسلة من الانتصارات والهزائم ، التى كان مردها تقلب الحظ بالممالك من ناحية ، والعداء الناشب بين الكنيستين الرومانية (الكاثوليكية) والكنية من ناحية أخرى . وظلت كنيسة كانتربرى معقلا حصينا لنفوذ روما وكنيستها ، على أن مرسيا قد ظلت مملكة وثنية ، كما أن نورثمبريا ترددت بين الإخلاص لحليفتها الكنتية (Kentish) وولائها لما تبشر به «أيونا ولنديسفارن» على المذهب الكلتى . وكان جمع هويتهى فى (٦٦٤) وهو المجمع الذى أكد ظفر كنيسة روما ، أول علامة سجلت ما يمكن تسميته باسم تنظيم الكنيسة الإنجليزية اللاتينية . وفيه قسمت البلاد إلى أبروشيات ، وأصبح القس المركز الفعال لكل أبروشية . وأخذت الكنائس الحجرية تحل محل الكنائس التى كانت تبنى فى الماضى من الخشب ، ثم ظهر نظام الأبروشيات بعد فترة من الزمن . وأصبحت المجمع تعقد بانتظام ، وأخضع الرهبان والقس على السواء لحكم رؤسائهم . ومنذ تلك اللحظة تحولت إنجلترا رويدا رويدا إلى إقليم موال لسيادة روما الروحية . وازدهر التعليم فى المدارس الكبرى ، واستجلبت موسيقى الكنيسة وزخارفها من وراء البحار رغبة فى زيادة فخامة وبهاء هكسهايم وويرماوث . ونفذت الحماسة الدينية إلى قلوب الطبقة الحاكمة . فدخل الدير سيدات من الأسرة المالكة ،

(٢١ - المصور)

وأخذ الملوك يظهرون اهتماماً شديداً بالمخلفات المقدسة أو يتشحون بأردية الحجاج ، وينطلقون ابتغاء قضاء أيامهم الأخيرة في روما .
وافتح ولغريد اليوركي سلسلة الحملات التبشيرية الأنجلوسكسونية بألمانيا والأراضي المنخفضة ، وهي سلسلة بلغت ذروتها بفضل اسم بونيفاس العظيم .
ولن نفى النتائج السياسية التي ترتبت على عمل بونيفاس حقها من التقدير مهما بالغنا في الإشادة بها . وكان مسرح معظم ما بذله من جهود إقليما يقع خارج حدود الإمبراطورية الرومانية ، وكان من المستحيل أن يعتنق سكانه غير المتحضرين المسيحية لولا مساندة شارل مارتل ، الذي كانت فتوحه بدورها تدب بالشئ الكثير لمعاونة بونيفاس وأتباعه . وفي (٧٣٢) أنعم البابا على بونيفاس بلقب كبير الأساقفة ، ونظمت كنيسة ألمانيا تحت زعامته بوصفه عضواً مخلصاً يدين بالولاء والطاعة لروما . وفي هذه الآونة تم إقناع البافاريين والألامان الذين سبق أن اعتنقوا المسيحية على أيدي رهبان من الإيرلنديين ، بالاعتراف بالسيادة البابوية بفضل مساعدة الفرنجة وسلطانهم . على أن عمل بونيفاس لم ينته عند هذا الحد . فإنه أقبل بناء على دعوة من يمين وأخيه على إصلاح كنيسة الفرنجة . فأزيل كثير من الأخطاء والعيوب ووضعت الأسس لعقد المجامع الكنسية بانتظام وإلزام الأساقفة بالاعتراف الصريح بسلطة البابا .

لقد أدخل بونيفاس المسيحية والحضارة إلى وسط ألمانيا ؛ فيسر بذلك تقدم شارل مارتل بتلك المنطقة ، كما مهد السبيل لما حدث فيما بعد من ضم شرممان لتلك المنطقة إلى ملكه ، وبذا أسهم بونيفاس في وضع أسس السيادة الكارولنجية . كما أنه أخضع لسلطان البابا الكنيستين الكبيرتين بفرنسا وألمانيا ، ووثق أواصر التحالف بين البابا وبين كبير الفرنجة ، ذلك التحالف الذي أصبح عاملاً فاصلاً يتحكم في تاريخ أوروبا الغربية . هذا وإن القوى السياسية

التي تمخض اندماجها عن قيام الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وأعطى بذلك بسط النفوذ البابوى ورسوخ دولة السكارولنچيين ، إنما تدبى للمسيحية الأنجلوسكسونية بدبى لا يقل عما أسداه فىما بعد ، لإحفاء العلوم والفنون الذى وضع بذرتة وطوره فى بلاط شرلمان تقاليد بسكوب البندكتى وببده الجليل (Bede) ، التى شجها ونماها السكون وأتباعه .

٢ - توازن القوى فى إيطاليا

اللومبارديون

كانت ظروف اللومبارد داخل الإمبراطورية مختلفة تماماً عن الظروف التى صبحت دخول معظم الأجناس الجرمانية الأخرى . ذلك أن هذه الأجناس كانت تعد جندا محالفة (Foederati) — أى أنهم كانوا من الناحية النظرية مدافعين عن الدولة الرومانية — كما كانوا بصورة ما يؤلفون الشطر المقاتل والقوة الضاربة من السكان . أما اللومبارد فإنهم احتلوا الديار الإيطالية بوصفهم أعداء علميين وفاتحين فعلميين . ولم يكن يحق للملك الأراضى الرومان أن يشتركوا فى ملكية أملاكهم مع « الضيوف »^(١) البرابرة . إذ جرت العادة على الإجمال بنفهم منها وحرمانهم من كل شخصية قانونية — وذلك فى مراحل الغزو الأولى على الأقل . ومن ثم لم يكن هناك أى احتمال لقيام تنظيم مزدوج كالذى حدث فى مملكة ثيودوريك^(٢) ، كما أن اللومبارد المنتصرين نزعوا فيما يبدو إلى الاحتفاظ بوحدتهم العنصرية وتقاليدهم سليمة مبرأة من كل شائبة ، والحيلولة دون تسرب الفسكات والنظم الرومانية إليها . على أنه قدر لطبعهم بالطابع الرومانى أن يتم فعلا ، ولكن بوسائل أخرى ،

(١) انظر ص ١١٦ بعنوان الممالك الجرمانية الرومانية .

(٢) انظر ص ١٢٤ بعنوان إيطاليا فى عهد ثيودوريك .

حتى إذا وافى عهد تدخل الفرنجة ، كان اللومبارد وقد قضوا قرنين مستقرين بقطر متشبع بالمؤثرات الروحية والمادية لحضارة البحر المتوسط مدة تربو على الألف سنة ، - قد تعرضوا لتغيرات عظيمة في طريقة عيشهم . فلم يعد اللومباردى يعد المدن المشيدة من الأحجار أما كن جديدة يجوز له نهجها . فإن تلك المدن أصبحت محلا لإقامة ملوك اللومباردين أو نبلائهم ، وصرا كز عسكرية وإدارية للمناطق التى تمد الطبقات الحاكمة بكل ما تحتاج إليه من وسائل العيش . فأتخذ عاهلهم مقر إقامته فى القصر (palatium) المشيد فى باثيا على الطراز الرومانى القوطى ؛ وقد بادر البرابرة إلى تقدير ألوان الترف فى عيشة الحضارة والرأفاهية بسرعة أصبحوا معها لا يستغنون مطلقا عن خدمات حشد كبير من الصناع والتجار الرومان - أمثال المهندسين المعماريين والبنائين وتجار الجواهر وصناع الدروع والسلاح ، والموردين لكل ما تحتاجه حياة المدينة من مطالب . ويتجلى التغير فى أوضح صورته فى صفحات كتاب بول الشماس ، وهو لومباردى سطر تاريخ قومه فى أثناء النصف الثانى من القرن الثامن . ويستفاد مما كتبه أن ثياب أسلافه التى كانوا يرتدونها عند أول ظهورهم بإيطاليا ، قد أصبحت من عجائب التاريخ ، وأنه لم يعرفها إلا من صور المناظر فى قصة اللومبارد التى أمرت الملكة ثيودليندا حوالى (٦٠٠) للميلاد بتصويرها على جدران قصرها الذى شيدته فى مونزا . وهو يلاحظ أن الصور تمثل بوضوح^(١) المظهر العام للومبارد فى ذلك الزمن ، وأزياءهم فى الثياب وقص الشعر . فقد كانوا يحلقون مؤخر الرأس تماما ، ولكنهم يتركونه طويلا فى مقدم الرأس ، ويفرقونه فى الوسط فيتهدل على الخدين . ويستطرد الكاتب فيقول ، إنهم كانوا يلبسون ثيابا فضفاضة معظمها من الكتان مثل ثياب الأنجلوسكسون ولها خطوط عربية مختلفة

الألوان ، وقد انتعلوا أحذية طويلة الرقبة تكاد تكون مفتوحة حتى أطراف أصابع القدمين وتربط بشريط مستعرض. ثم شرعوا بعد ذلك يرتدون السراويل الضيقة ، ويجعلون عليها في أثناء ركوبهم أغطية خشنة من الصوف ؛ غير أنه يضيف إلى ذلك أن هذه العادة قد نقلت عن الرومان .

ولم يقف أثر الرومان عند حد الأزياء الجديدة في الثياب والأسلحة . فإنه على الرغم من أن قلة منهم كانت تستطيع التحدث باللاتينية عند دخولهم إلى شمال إيطاليا لأول مرة ، فإن تغير الأحوال واشتداد التعقيد في الحياة اليومية كانت في جانب اللسان أكثر عدنا ، ولم يلبث استخدام الألفاظ اللومباردية حتى أصبح يعد أمرا حوشيا مبتذلا في نظر النبلاء . ثم أتم هذه العملية ما حدث من المصاهرة والاختلاط المستمر بين الفاتحين وبين سكان يفوقهم عددا ، وكانت نتيجة ذلك أن الإيطالية ظلت إلى يومنا هذا أنقى لغات الرومانس . وينبغي لنا أيضاً ألا نفعل الأثر الثقافي للكنيسة بما كان لها من مرا كز تعليمية مثل دير بوبيو القائم في الأراضي اللومباردية ذاتها - هذا إلى أن العقود وغيرها من المستندات القانونية كانت تصاغ على الدوام في صيغة رومانية ، ومع أن القانون اللومباردي كان جرمانيا ، فإنه لم ينبج من تسرب الأفكار الرومانية إليه، وتلقى استبداد الحاكم باعنا قويا كما حدث دائماً في حالة القبائل النيبوتونية كلما اتصلت بالإمبراطورية وأساليبها ووسائلها ، وإن اختلف مركز الأدواق متقلبا بين منزلة الموظفين المرءوسين وصغار الملوك المستقلين فعلا تبعاً لما يبيده الملك من صلابة الخلق والقوة الشخصية . مثال ذلك أن دوقتي بنيفنتو واسبوليتو زادتاً في تحررها بتقدم الزمن بالقرن الثامن ، غير أن دوقيات شمال إيطاليا أخذت على التدريج تزداد خضوعاً للسلطة المركزية .

وماله دلالة أن ملك اللومباردين ظل يتخذ لنفسه لقب ملك الشعب

اللومباردى (Rex Gentis Lombardorum) . إذ إن قومه ظلوا مختلفين على الدوام فى وضعهم القانونى عن سكان إيطاليا الرومان ، ولا يغرب عن البال أن جميع وسائل الحضارة وأدواتها التى سبقت الإشارة إليها ، كانت إلى حد كبير فى أيدي التجار والفنانين والصناع الرومان . فضلا عن ذلك فإن الملاحين الذين يعملون على صفحة نهريو وصناع الدروع والزردي فى لوكا وكريونا ومنتجى الفاكهة والخضر اللازمة لقصور نبلاء اللومبارد ، كانوا فى الأغلب الأعم من الرومان ، كذلك بقايا نقابة الصناع المعروفة باسم (Maestri Comacini) ، وهى تلك النقابة الغامضة التى عفى عليها النسيان المسكونة من الفنانين ، الذين يرجح أنهم بقوا بعد اندثار نظام التعليم^(١) الجامعى فى العصر المتأخر من الدولة الرومانية ، والذين كثيرا ما يتردد اسمهم فى المناقشات التى تدور حول أصول الفن الإيطالى ومصادره . والواقع أنه لا يوجد أى شاهد حقيقى يصح أن يستند إليه فى ادعاء قيام طراز لومباردى خاص فى هذه الفترة ، سواء فى فن العمارة أو البواعث الزخرفية (Motifs) .

السياسة الإيطالية

إن تاريخ إيطاليا منذ (٦٠٠ إلى ٨٠٠) للميلاد يمكن تلخيصه فى أنه تاريخ نضال بين قوى خمسة لا تتفق أهدافها بعضها مع بعض . على أن دولتين من هذه القوى الخمسة هما مملكة اللومبارد والإمبراطورية البيزنطية فقدتا أثرهما الحاسم الفعال فى السياسة الإيطالية عند نهاية تلك الفترة . أما القوة الثالثة ، وهى دولة الفرنجة ، فلم يكن تدخلها إلا فجأة وعلى فترات ، ولكنها تلعب دورا قويا فى أثناء نصف القرن الأخير ، وهو دور بلغ ذروته بتألق نجم شرلمان . أما القوة الرابعة وهى البابوية فازدادت على الأيام نفوذا ، وهو

(١) انظر ص ٥٥ بعنوان اضطراب شئون الزراعة .

نفوذ حقيقى لاشك فيه على الرغم من استناره وراء مآثرات فيه البابوية من سمّة العجز . فأما القوة الخامسة ، وهى دوقيتا بنفثينو واسپوليتو - فتمثل « الفرنسيين » على لوحة الشطرنج الإيطالية ، فعلى الرغم من ضآلة شأنهما فى حد ذاتهما ، فإنهما كانتا تقبضان على خطوط داخلية ، وغالبا ما كانتا العامل الفاصل فى مشاكل ضخمة بما تقومان به من حركات غير منتظرة وهجمات غير متوقعة^(١) .

وكانت السياسة الثابتة لسلطان لومباردى قوى هى إخضاع إيطاليا^(٢) برمتها لسلطانها . ومن الجلى أن تقصى الملوك لهذا الهدف الذى تمليه عليهم الحاجة إلى مكافأة أتباعهم بإقطاعهم الأراضى بقدر ماتمليه عليهم الحاجة إلى سلامة الملك الشخصية والمحافظة على هيئته وكرامته - كان يلقى بطبيعة الحال مقاومة من القوى الأربعة الأخرى . بيد أن نواب الإمبراطور البيزنطى فى رافنا ، لم يترددوا فى استخدام القوات اللومباردية لمناهضة البابوات المنمردين بينما استعانت البابوية أكثر من مرة بالملك اللومباردى ، لقمع ما يصدر من بنفثينو واسپوليتو من حركات .

وكان الغرض الذى ترمى إليه بيزنطة الاحتفاظ بما فى قبضتها من المناطق البحرية بإيطاليا ، والإبقاء على موظفيها لوقف نمو قوة النبلاء من أصحاب الأراضى ، فضلا عن القضاء على قوة البابوية التى هى أكبر أرباب الأملاك جميعاً ، ثم يأتى أخيراً الحصول على الجزية المطلوبة للدفاع عن ممتلكاتها بالأقاليم الشرقية التى تتركز بها فى ذلك الأوان مصالحها الحقيقية - ولم يكن الإمبراطور يرى فى ازدياد نفوذ البابا إلا مصدر قلق وكدر له ، ومن ثم لم يكن ليرضى

(١) نسجل هنا أن هاتين الولايتين اللومبارديتين التابعتين لم تمملا متحدتين .

(٢) إن الذى يعبر عمليا عن تلك الفكرة هو الصورة التى تمثل أوتارى (٥٨٤) بركب منطلقا إلى غمار البحر فى الطرف الجنوبى الأقصى لإيطاليا ، ويلبس بحريه عمودا منفردا يبرز من بين الأمواج ، وهو يقول « ليسكن هذا حد مملكة اللومبارد ! » .

بذلك النفوذ إلا بوصفه وسيلة لدعم وحدة الإمبراطورية سياسياً ودينياً .
أما الكرسي البابوى ، فلم يكن له من غرض في تلك الأثناء ، إلا مجرد المحافظة على بقاءه . وعلى الرغم من اختلاف صنوف السياسة التى اتبعتها البابوية فى سبيل ذلك ، فإن هدفها النهائى ظل ثابتاً لا يتغير . على أن الزمن ونمو الأمم الغربية كانا يعملان فى جانب البابوية . والراجح أن ذلك لم يكن واضحاً تماماً للمجلس البابوى ، ولكن الشيء الذى كان الجميع يشعرون به ، هو أنه مهما يكن الأمر ، فإنه لا ينبغى إذلال البابا والخط من قدره حتى يتساوى بأى أسقف لومباردى من جهة ، ولا بأى موظف بيزنطى من جهة أخرى ، ومن ثم اقتضت الحكمة الاعتراف بسيادة الإمبراطور حتى اللحظة الأخيرة ؛ ولكن الباباوات المعروفين ببعده النظر والذين استطاعوا الشخوص بأبصارهم إلى سهول فرنسا وراء ممرات الألب لا يمكن أن تخفى عليهم العواقب النهائية التى تترتب على ما قاموا به من تدبيرات خفية ودقيقة حيال بيزنطة .
وكانت مراعى اسبوليتو وبنيفنتو بسيطة ومباشرة : - وهى الاستقلال المحلى وتوسيع رقعتيهما على حساب جيرانهما ، على حين أن سياسة الفرنجة قبل الفتح ، كانت تحددها بواعث ثلاثة رئيسية ، الضعف الداخلى وصداقة اللومباردين التقليدية التى تقضى بالامتناع عن التدخل فى شئون إيطاليا ، إلى أن تمكنت الخيوط الدقيقة للدبلوماسية البابوية من اجتذاب القوات الغازية إلى أبواب روما .

على أن هذه العناصر المتحاربة تصالحت فترة من الزمن بفضل مآدار بينها من وفاق ومن إقامة توازن مقلقل مضطرب للقوى ، وهى النتائج التى تترتب على المشاكل الداخلية أو وجود أمراء ضعاف . وقد قصر خلفاء جريجورى الكبير عما أوتى هو من شخصية قوية وبراعة تدبير ؛ كما أن أباطرة الرومان الذين خلفوا هرقل انصرفوا إلى الاهتمام بما تعرضت له الدولة من خطر

الإسلام : واضطربت الأمور بمملكة اللومبارد بالمنازعات على وراثة العرش وتمرد الأتباع الإقطاعيين ، وذلك على حين أن فرنسا لم تبرح تمزق أحشاءها منازعات محافظي القصر (الحجاب) المتنافسين . على أن الفترة الحاصمة في إيطاليا تقترن بظهور شخصيات قوية تتولى دفعة الأمور : أمثال البابوات جريجورى الثانى (٧١٥ - ٧٣١) وجريجورى الثالث (٧٣١ - ٧٤١) وليو الإسورى (٧١٧ - ٧٤١) وهو الإمبراطور الذى اشتهر بتحطيم الصور وليوتبراند (٧١٢ - ٧٤٤) أعظم ملوك اللومبارد . ولا شك أن التصادم المدتبى بين هذه الشخصيات التى تتمثل فيها السياسات المتطاحنة قد أضاء أرض إيطاليا الحافلة بالعواصف ، بوميض خاطف أظهر لنا ما دار هناك من تغيرات حقة .

وعند حوالى (٧٠٠) لليلاد تعرض مركز بيزنطة للدمار . فعلى الرغم من أن كبار الموظفين لم يزالوا فعلا خاضعين لسلطة الإمبراطور ، فإن السلطة الفعلية كانت بأيدى الأسرات التريبونية الإقطاعية ، التى لم تقتصر اختصاصاتها فى مناطقها على الناحية العسكرية فحسب ، بل تشمل كذلك الولاية القضائية وحق فرض الضرائب . ذلك أن تنظيمًا جديدًا قد ظهر ، ولن تنشب فى إيطاليا ، كما كان يحدث فى الماضى ، ثورة يقوم بها أرخون (Exarch) (أى نائب إمبراطور) متمرد ، بل يقوم بها الموظفون المحليون ، الذين هم أشد خطرًا من الأرخون ، وظهرت فى (٦٩٢) دلائل تنبئ بالأحوال الجديدة ، عندما دعا الإمبراطور جستينيان الثانى ، وفقًا لسياسة الإمبراطورية التقليدية ، إلى عقد مجمع ترولو (أو المجلس التكميلى للمجمع المسكونى الخامس والسادس Quinisextum) رغبة فى تقنين قواعد ومعايير للعقيدة وتوحيد الممارسات الدينية فى الشرق والغرب على السواء . بيد أن البابا رفض الموافقة على قرارات ذلك المجمع ، فأرسلت بيزنطة موظفًا كبيرًا يلقب

بالبروتوسپاثاريوس (Protospatharius) إلى روما ، ومعه تعليمات بإلقاء القبض على البابا المتمرد . ولكن ولت منذ زمن بعيد الأيام التي استطاع فيها جستنيان الأول^(١) إنزال الإذلال والمهانة بالبابا فيجيليوس . فإن جند الحرس الوطني الإيطالي (الملبشيا) تقاطروا إلى روما ، ولم يفلت البروتوسپاثاريوس من عواقب غضبهم إلا بالنواري عن أنظارهم تحت سرير البابا .

وتحددت الأزمة بعد ذلك بخمس وعشرين سنة ، يوم تجرأ الإمبراطور ليو على فرض ضرائب جديدة على الغرب بعد أن نجح في الدفاع عن بيزنطة في الحصار الشهير الذي ضرب عليها في (٧١٧ — ٧١٨) — فاندلعت الثورة في إيطاليا وزحف الأرخون على روما متحالفاً مع ليوتبراند ملك اللومبارد — وهو اتحاد طريف في بابه — فاستصرخت روما لمساعدتها دوقيتي اسپوليتو وبنيفنتو . وامتزج الكفاح السياسي والاقتصادي بشيء من الشعور الديني المتأجج عندما أعلن الإمبراطور ليو في (٧٢٥) سياسة التحطيم أي مناهضة عبادة الصور المقدسة^(٢) — فالمقيدة والاعتقادات (Dogma) لم تكن عند الإيطاليين إلا شيئاً عسيراً يعز على الأفهام ، ولكن الصور كانت تشكل عنصراً حيويّاً في الإخلاص للمقيدة والتعلق بها ، ولذا لم يفت البابا أن يتخذ من النزاع على عبادة الصور سلاحاً قوياً يشهره في وجه الإمبراطور ، ولم يلبث البابا أن صور ليو في صورة المسيح الدجال نفسه . ويقول أحد المعاصرين إن البابا جريجوري الثاني : «سلح نفسه كأنما يتأهب لمنازلة عدو» ، وأخذ يخاطب الإمبراطور بلغة لم يسبقه إلى استخدامها أحد من رعاياه — على أن الثورة الإيطالية أخذت في النهاية ، بعد أن لقي أحد نواب الإمبراطور مصرعه ، وبعد أن أنفذ أرخون آخر من بيزنطة لإعادة الأمن إلى نصابه .

(١) انظر ص ٢٠١ بعنوان البعثات التبشيرية والديبلوماسية البيزنطية .

(٢) انظر الفصل التاسع بعنوان النزاع حول تحطيم الصور .

تدخل الفرنجة

وهنا بدأت مرحلة أخرى جديدة في انفصال الشرق عن الغرب . فقد قرر الإمبراطور سلخ أبروشيات صقلية وجنوب إيطاليا فضلا عن أبروشيات الساحل الأدرياتي الشرقى من أسقف روما وضمها إلى بطريك القسطنطينية . وحددت هذه الخطوة الخطيرة تاريخ جنوب إيطاليا في العصور الوسطى ، إذ زاد اصطباغ ذلك الإقليم في أثناء القرون التالية بالثقافة والميول الهلينية (اليونانية) ، بل حتى بالسكان اليونانيين ، وكان ذلك نتيجة لتدفق اللاجئين الأرثوذكس بشدة على تلك المناطق في أثناء منازعات حركة تحطيم الأيقونات . وفي الوقت ذاته ، أضعفت هذه الخطوة نفوذ البابا ، فيما يتعلق بممتلكاته داخل الإمبراطورية ، حتى أصبح لا يتجاوز أسقفًا إقليميا ، يتولى أمر لوائ^(١) نخوم (Themes) همارافنا وروما (وقد تم عند ذاك فصلهما ورضع نظام مستقل لكل منهما على حدة) .

على أن ارتباط البابا بالإمبراطور ، كان شيئاً لا بد منه للمحافظة على الوجود المستقل للبابا . وقد رفض شارل مارتل الدعوة التي وجهت إليه الاشتراك في السياسة الإيطالية ، ولم يكن في الإمكان ترك مملكة اللومبارد التي بلغت ذروة قوتها في عهد ليوتبراند ، دون إيجاد قوة توازنها . ولذا فإن البابا تدخل للمرة الثانية لمصلحة سيده الإمبراطور ، وأتقنت رافنا مركز الإدارة البيزنطية بشمال إيطاليا بعد أن أوشكت القوات اللومباردية على الاستيلاء عليها .

وشبت اضطرابات داخلية بعد وفاة ليوتبراند ، حتى إذا ذهب راتشيز خلفه الورع ، وحل محله في العرش آيستولف ، صارت هناك دولة مركزية قوية تواصل تحقيق غرضها التقلیدی من إخضاع إيطاليا كلها . وجاءت في أعقاب ذلك تطورات سريعة . ففي (٧٥١) وهي السنة التي اتخذ فيها بيبين

(١) ألوية النخوم هي المناطق العسكرية القائمة على الثور أي الحدود . (المترجم)

لنفسه التاج تلبية لاقتراح البابا ، سقطت رافنا أمام هجوم اللومبارد ، ففضى نهائياً على الحكم البيزنطى بتلك الولاية (الأرخونية) . وأخذ آيستولف يحشد فى السنة التالية كل موارد تمهيداً للهجوم على روما . وفى (٧٥٣) عبر الباباستيفن جبال الألب ليلتمس المساعدة من ملك الفرنجة ، ولم تنقض سبعة أشهر حتى أعلن پيپين الحرب على المملكة اللومباردية ، وقام بغزو إيطاليا . وحملت الهزيمة والتشتت بجيش آيستولف فى معركة سوسا ، فاعتصم وراء أسوار بافيا . وفرض پيپين الملك المظفر على أعدائه المقهورين رد رافنا والممتلكات البابوية إلى حالتها الأولى ، ولم يكند يعود إلى بلاده ، حتى استدعى على عجل وإلحاح فى (٧٥٦) ليواجه تجدد العدوان . وللمرة الثانية تعرضت بافيا للحصار ، واعترف العدو المقهور فى مقابل حصوله على السلام بپيپين سيداً أعلى للمملكة اللومباردية على حين تقرر تسليم « الأرخونية » إلى يد القديس بطرس وخلفائه الجالسين على كرسي روما البابوى .

وتوفى آيستولف فى تلك السنة عينها ، تاركاً الموقف فى إيطاليا على حاله من الناحية الرسمية . وتقبل الجميع بالرضا سيادة پيپين على ممتلكات آيستولف على الرغم من أنه لم يفتحها حتى ذلك الحين فتحاً إقليمياً . وبذلك صار البابا صاحب السلطة العليا لا فى روما فحسب ، بل فى الأرخونية أيضاً ، ومع ذلك فإن الإقليمين كليهما لم يزالا يعتبران من الناحية الاسمية شطراً من الإمبراطورية على أن تدخل الفرنجة ظل مع ذلك سنداً غير مضمون ؛ وفى تلك الأثناء كان يبدو محتملاً أن ينبعث الخطر اللومباردى من جديد .

وارتقى ديسديرىوس العرش بعد آيستولف ، وتضاعفت مخاوف البابا عندما تزوج شارل بن پيپين من ابنة ملك اللومبارد . ولم تنقض بضع سنوات على وفاة پيپين فى (٧٦٨) حتى لاح فى الأفق بوادر قيام كتلة فرنجية مؤلفة من الفرنجة والبافاريتين واللومبارديين ، تخضع لنفوذ الملكة الأرملة برترادا .

ولكن الموقف تغير فجأة عندما انفصل شارل عن زوجته اللومباردية في (٧٧٢) وبعد ذلك بسنتين أغار شارل على إيطاليا بدعوة من البابا هادريان . واستسلمت بافيا بعد حصار طويل ، وحمل ديسدريوس وأسرته أسرى ، وزالت من الوجود مملكة اللومبارد المستقلة عند نهاية (٧٧٤) .

منحة قسطنطين

هذه — بأوجز عبارة — هي الحقائق المتعلقة بتدخل الفرنجة في إيطاليا . وتتوارى خلف تلك الحقائق صورة معتمة غير واضحة المعالم تتألف من دبلوماسية ملتوية ومطامع شخصية وتفاعل حضارتين : الحضارة الرومانية بما لها من تاريخ طويل من الفسكات التشريعية والدستورية ، وبما استقر في لغتها من أثر قرون مديدة من الحكم المستقر والخصائص الفلسفية المميزة والحضارة الجرمانية بما تنطوى عليه من الولاء الشخصي وبما لها من ذكريات قبلية وقصور في فهم المصطلحات التجريدية . ومن المحال علينا في عالم عجيب كهذا زأخر بالأساطير والخزعبلات وبالصيف الإمبراطورية العتيقة نصف المفهومة ، أن نؤلف صورة متكاملة من الجذاذات البتراء التي نتلقفها من أفواه السذج من كتاب تراجم الباباوات ومن التواريخ التي كتبها الرهبان الأدميون ، لتكون بياناً مقنعاً عن العملية الطويلة الأمد ، التي فصم بها أساقفة روما علاقتهم بالإمبراطورية الرومانية القديمة ووضعوا بها أنفسهم تحت حماية قوة الغرب الناهضة المسيطرة . ولاشك أن كل رضى يقع لنا يمكن إثارة ما لاحدله من المجادلات حول أهميته . فإذا كانت طبيعة ذلك « الديكيو Dieio » أى حق السيادة والسلطة التي ادعى البابوات أنهم يمارسونها بالنيابة عن الإمبراطور على الأراضي الإيطالية ؟ وماذا كان آخر مدى « ممتلكات القديس بطرس » وحدود إمارته التي تحولت البابوية بسبب امتلاكها لها حوالى ذلك الوقت

إلى سلطة زمنية ؟ أو ما المقصود بمنحى يبين وشرلمان وهماهما المتتالية ؟
لقد كانت كل حركة تصدر ، ترتفع إلى منزلة الأهمية الدستورية ، كما أن
ما دار من الجدل فى العصور الوسطى بعد ذلك حول علاقة الإمبراطورية
بالبابوية ، كان الأصل فيه إرسال راية وبعض المفاتيح إلى ملك الفرنجة ، أو
الإنعام بلقب « البطريقى Patrieian » أو الإمساك بعنان فرس . وكانت
الصور والأساطير تتخذ قوة الوثائق . ويبدو أن القصة الشهيرة التى حدثت
بين الإمبراطور قسطنطين والبابا سالمستر^(١) ، التى ظلت طوال العصور
الوسطى تؤلف مظهراً أساسياً من مظاهر الجدل والدفاع عن مدعىات البابا ،
قد ظهرت بأوضح صورة فى تلك الفترة ، وربما جاز اعتبارها عملية تبرير
أكثر منها تزييفاً مقصوداً ، أو عدها ترجمة نقلت مصطلح الفكر الجارى
أو مصطلح التقوى السائدة وعبرت عن علاقة البابا السياسية بالإمبراطور
بميزنطة . وتؤكد القصة أن قسطنطين الأكبر لم يتنازل فقط عن قصر
اللاتيران الخاص به للبابا ، ولم يعطه فحسب حق السيادة أى الديكيو على
الغرب ؛ بل وهبه كذلك التاج والأرجوان ، نمشياً مع وظيفته المقبلة ، على
حين أن رجال الإكليروس التابعين له الذين عمار لزاماً عليهم منذ تلك اللحظة
أن يحلوا محل مجلس السناتو بروما ، مثلما احتل أتباعه من الأساقفة مناصب
حكام الأقاليم ، — قد أصبح من حقهم استخدام زخارف الخيول البيضاء
واتخاذ أحدىة رجال السناتو التى يشتهونها . وبهذه الصورة العجيبة المحرفة
للتاريخ تنعكس لدى القارى بوضوح تام هيئة الأحوال والمنازعات المعاصرة ،
ويشهد المنافسة الدائرة بين المجلس البابوى والموظفين البيزنطيين فى إيطاليا ،
والتنازع حول صحة الهبات الفرنجية ومشكلة مدعىات اللومبارد فى امتلاك
الأقاليم المغزوة .

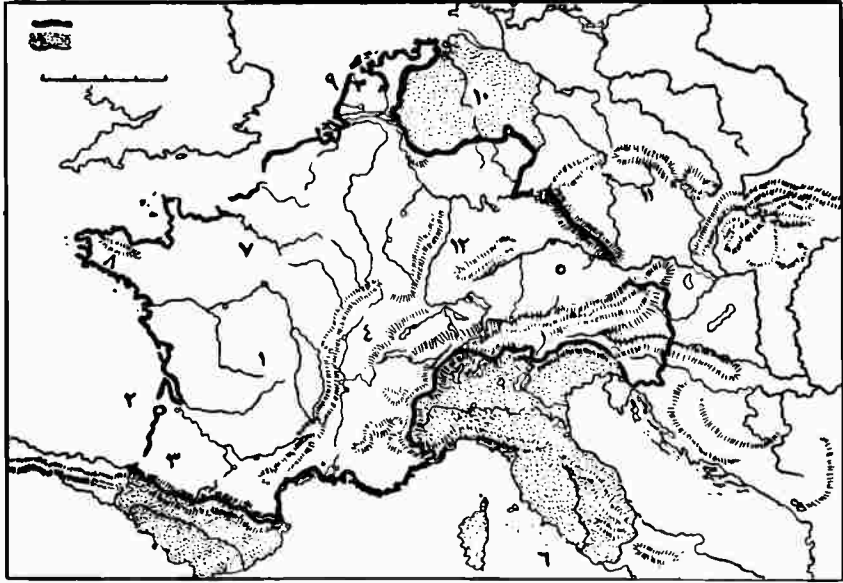
(١) انظر الفصل الثانى عشر بعنوان الفنون والآداب والحرفات .

على أن أهم ماله دلالة هنا إنما هو بقاء فكرة الإمبراطورية حية بوصفها المادة الأساسية التي تشكل عليها رؤى عالم الأحلام ذاك من حيث قيام دولة دينية (ثيوقراطية) بروما . إذ إن إيطاليا ظلت أكثر من خمسة وعشرين عاماً تعد أباطرة حركة تحطيم الصور لاجابة ضرائب وظلمة فقط ، بل تعتبرهم كذلك دعاة انفصال غير أتقياء . وعلى الرغم من ذلك لا نمثر في أى مكان على لسان يعبر - ولو همساً - عن إمكان قيام وجود مستقل للبابوية خارج ممتلكات الإمبراطور . وليس هناك ما هو أوضح من هذا دليلاً على أن عقل القرن الثامن لم يزل يعتبر إمبراطورية روما العالمية التي يرأسها الإمبراطور في القسطنطينية ، هي الصورة السائدة عقلاً والأنموذج الوحيد المقبول عن النظام الأرضى في هذه الدنيا . وروما هي المركز العريق للإمبراطورية . وهي من وجهة نظر الرومان المركز الأوحد الحقيقي للإمبراطورية . ولن يتيسر لإنسان أن يبرر نظرياً تنويج إمبراطور غربى ، إلا بنقل ثورة التركيز من شخص الإمبراطور إلى مركز الإمبراطورية العتيق « روما » ذاتها ؛ ولا يخفى أن مبرر الوجود (Raison d'être) للإمبراطور غربى من وجهة النظر البابوية كان حماية مصالح الكنيسة بالسلاح فى غرب أوربا ، وكان فوق كل شيء ، حماية العاصمة العريقة عاصمة أوغسطس و قسطنطين ، الكرسي المقدس والمسكونى للقدس بطرس وخلفائه .

البابا والكارولنجيون

وعلى الرغم من أنه بدت فى الأفق مقدمات مبهمه أنذرت بمثل هذه الإمكانيات ، فإن الموقف المباشر ظل غامضاً . والواقع أن السنوات الثلاثين التالية شهدت هبوطاً مطرداً فى آمال البابوية التى اشتد ارتفاعها عند سقوط مملكة اللومبارديين . لقد انقلب ميزان القوى فى إيطاليا ، فإن ييبين عبر

جبال الألب بمحمتين صليبيتين ليفوز بالخلاص جزاء له على استجابته للاستغاثة
البطرسية (Petrine) . أما شارل فإنه استقر بالأراضي الإيطالية وصار سيداً
أعلى ثابتاً وكبيراً علمانياً للبلاد . وكان لكفاح اسبوليتو وبنقنتو ومحاولتهما
في سبيل الاستقلال فضل عظيم في رفع شأنهما كحليفين للبابا لما قيمة عظيمة
وإن لم تكن محققة . ولكن هاتين الولايتين أصبحتا آنذاك تابعتين إقطاعيتين
لأمير الفرنجة ، ولم تعد معاندتهما تعود على البابا بأية مصلحة . ومنذ تلك
اللحظة أصبح واضحاً أنه لو اختلف البابا والكلرولنچيون ، فلن يجد البابا
مدافعاً يستطيع أن يشخص إليه التماساً للعون . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ،
فكلمات شارل ففتح جديد رائع ، ازدادت رقعة إمبراطوريته اتساعاً ،
وتضاءلت أبعاد مملكة البابا وقلت أهميتها . ثم إن توحيد أوروبا الغربية
بزعامة سيد واحد ، أبرز العلاقات الدولية وجعل لها أهمية كبيرة ، وصار لزاماً
أن تخضع مدعيات البابا في استيريا وجنوب إيطاليا للعلاقات الدبلوماسية
المتبادلة بين آخن وبيزنطة ، وقد جأر البابا بأمر أنواع الشكوى من تمرد
كبير أساقفة رافنا واعتمادات دوق اسبولينو ، ولكن شكواه ذهبت أدراج
الرياح يوم كان شارل يقوم بحملاته على التحوم السكسونية . والواقع أن البابا
كان يتعين عليه بوصفه زعيماً لعالم المسيحية في الغرب القيام بدور أقرب إلى
السلبية من دور نصير العقيدة المسلح ، ولكنه انطلق وقد نقش على عملته
عبارة الديانة المسيحية (Christiana Religio) ، وأضيفت القداسة على
أسلحته وبفضل صلوات الكنيسة ودعواتها—انطلق ليبيد الوثنيين في وسط
ألمانيا ويقم أسقفيات جديدة وراء حدود بافاريا . وتردد صدى الإشاعات
في الخارج بأراضي الشمال نفسها ، حيث تولى إذاعتها أوطا ملك مرسيا ، بأن
شارل عزم على خلع البابا وإحلال أحد رجال الكنيسة من الفرنجة محله .
ذلك أن عالم العقيدة نفسه لم يسلم من عبث الأوتوقراطية المستبدة الجديدة في



(١٦) خريطة إمبراطورية شرومان

- | | | |
|--------------|---------------|---------------|
| ١ - أكتانيا | ٢ - بوردو | ٣ - فاسكونيا |
| ٤ - برجنديا | ٥ - بافاريا | ٦ - روما |
| ٧ - نوستريا | ٨ - بريناني | ٩ - فريزيا |
| ١٠ - سكسونيا | ١١ - الصقالبة | ١٢ - الالامان |

الغرب . إذ حدث في مجمع (سينودس) فرانكفورت الذى دعاه شارل إلى الاجتماع ، رداً على مجمع نيقية الذى انعقد حديثاً فى الشرق ، أن ارتفع صوت لاهوت الفرنجة الفتى وأعلن بنبرات حادة مليئة بالنفحة تنديده بكل من حركة تحطيم الصور ومذهب عبادتها بدرجة سواء ، ودمغه للإمبراطور والإمبراطورة بسجّة الهرطقة ، بل حتى اتهم اليونانيين بالافتقار إلى الروح العقلية الناقدة فيما يتعلق بأسطورة سلقستر . على أن البابا الذى وافق على قرارات مجمع نيقية ، لم يستطع أن يقوم بأى احتجاج ذى أثر . بل الحق أنه كان مستعداً لإعلان كفر الإمبراطور الأرثوذكسى إذ أراد شارل ، وذلك فيما لو أصر الإمبراطور على الاستمسك بالأبروشيات اليونانية وإمارات جنوب إيطاليا التى كان البابا يدعى ملكيتها . بيد أن إخضاع الشئون المذهبية للعصالح الدنيوية لدويلة البابا ، ليس أقل أهمية من خضوع البابا واستكانته إزاء أهداف شارل التى انقلبت مؤقتاً على بيزنطة . إذ لم يحدث قط منذ أيام جستنيان أن انحدرت البابوية إلى مثل هذا الدرك الخفيض . ومن العجيب أن سلطة الحبر الأعظم فى روما ذاتها لم تسلم من التحديات . فإن الانتخابات البابوية كان يصحبها على الدوام القتال الذى يدور فى الشوارع عنيفاً عارماً ، ويوجه من داخل القصور المحصنة ، وهو أمر يعتبر ظاهرة مألوفة فى المدن الإيطالية فى أثناء القرون الوسطى ، وكثيراً ما كانت المنافسات بين البلاء الإقطاعيين وموظفى الكنيسة تجد فرصتها التى تتشقى بها فيما ينشب من المنازعات الدموية بين البابا الشرعى والبابا الخصم .

الفصل الرابع عشر

شرلمان

حدث في يوم عيد الميلاد من عام (٨٠٠) أنه بينما شرلمان ينهض في أثناء إقامة القداس ، من ركوعه على ركبته أمام قبر القديس بطرس بروما ، أن وضع البابا على رأسه تاجاً وحياء أهل روما بصيحات مدوية قائلين : « إلى شارل أوغسطس الذى توجه الله ، إمبراطور الرومان العظيم المحب للسلام ، نتمنى النصر والعمر الطويل » . لقد أشعل هذا المنظر خيال المؤرخين ناراً متأججة . فهناك فى الباسمليكة العتيقة التى تتلألأ بأنوار الشموع والحلل الكهنوتية المرصعة بالجوهر ، وقف محارب أوروبا الأول ، قاهر العرب والآفار والسكسون ، الذى تمتد مملكته من البلطيق إلى شاطئ الأدرىاتى ، وتترامى من شمال أسبانيا إلى الدانوب الأوسط ، يفرض وصايته الدفاعية على المسيحية الغربية ، بقبوله ذلك التقليد الجليل المأثور عن روما الإمبراطورية ، كما أنه « بأتحاد الرومان والتمبوتون واندماج ذكريات الجنوب وحضارته مع طاقة الشمال الفتية . . . يبدأ التاريخ الحديث »^(١) .

ولا شك فى أن تلك الساعة كانت من أروع اللحظات فى تاريخ البابوية، لا يضارعها من حيث تأثيرها الدرامى سوى ذلك المنظر الآخر الذى حدث ذات شتاء فى يوم عاصف تساقط فيه الجليد بفناء قصر كانوسا^(٢) ، حيث

(١) انظر ج . برايس فى (The Holy Roman Empire) ص ٤٩ (ط ٨ —

لندن ١٨٩٢) .

(٢) يشير السكاتب إلى ما حدث للإمبراطور هنرى الرابع بقاعة كانوسا بالقرب من ريجيو اسيليا بإيطاليا ، حيث وقف يطلب الغفران من البابا جريجورى السابع فى ١٠٨٧ على معارضته فى مسألة التعيينات . (المترجم)

وقف إمبراطور ذليل ينظر ثلاثة أيام ليحصل على غفران البابا . ولكن أهمية ذلك النصر كشأن أهمية انتصار هلد براند كانت عميقة متغلغلة . فلم يكن الاحتفال الذى أقيم بكنيسة القديس بطرس حلا دستوريا للمشكلات التى تكمن بطبيعتها فى علاقات شارل بالبابوية . إذ إنه لم يغير من الموقف الفعلى شيئاً ، ولم يسو أية مشكلة من مشكلات المستقبل^(١) . ومع ذلك فإنه على حد قول برايس : - بداية عصر جديد ، من حيث إنه حدد خطوط ما نشب بين البابوية والإمبراطورية من نزاع لانهاية له ، وهو النزاع الذى تتألف منه خلفية السياسة الأوروبية فى العصور الوسطى .

ومنذ أيام ثيودورسيوس ، يوم أصبحت المسيحية الدين الرسمى للإمبراطورية الرومانية ، لم يتم التوصل إلى صلح دائم يوفق بين مدعيات الكنيسة والدولة . ولم يكن فى الإمكان الوصول إلى حالة الاستقرار إلا بخضوع أحدهما للأخرى خضوعاً تاماً . ويزداد الأمر تفاقماً فى ذلك الحين صعوبة تحديد مصالح الطرفين يوم أصبح نفوذ الكنيسة الزمنى (الدنيوى) أشد تنظيماً منه فى أى يوم سابق . وتتمثل مدعيات البابوية بأوضح صورها فى خرافة منحة قسطنطين . أما وضع شرلمان فيمكن أن تعبر عنه كلمات ألكوين حيث قال : « أيها الملك ... إني لأدعو الله أن يخضع لذلك حاكم الكنيسة ، وأن تحكمك اليد اليمنى للقوى القاهره » . وإن جستنيان نفسه يصح أن يقر هذه العبارة ، وذلك مع التجاوز عما تمجه إليه من الازدواج بين الكنيسة والدولة . ومن ثم فلن يستطيع حل هذه المشكلة وإيقاف النزاع بين الإمبراطورين الروحية والزمنية إلا حلاً وسطاً يوفق بينهما مؤقتاً أو سيادة أحد الطرفين على الآخر سيادة جارفة

(١) عن الآراء الحديثة المتعلقة بتفويض شرلمان ، انظر ك . هلدن فى (Das Kaieer-

tum Karls des Grossen) (ويعار ١٩٢٨) .

قاهرة . وطالما كان شرلمان على قيد الحياة ، لم يكن أحد ليجرؤ على وضع سيادته موضع نزاع أو جدال ، ولم يستطع أحد من الكتاب أمثال جوناس أسقف أورليان وهنريك رئيس أساقفة ريمس ، أن يجرؤ على تأييد النظريات التي تجعل سلطة البابا السيادة على سلطة الإمبراطور (*auctoritas sacra*) (*penitificum*) ، إلا حينما أخذ الانحلال يدب في إمبراطوريته في ظل الحكم الضعيف لابنه وأحفاده . وراحت القرون المتعاقبة بما اجتمع لها من موفور السوابق ، تصوغ بإحكام وتفصيل مسألة العلاقة بين الكنيسة والدولة . وقد لفتت هذه المسألة في أثواب فلسفة عامة ، استوحيت مما دار بين الفقهاء ، وعلماء اللاهوت من كتابات متنازعة متضاربة ، وكانت القالب الذي صيغت فيه أعظم قصيدة أشدت في العصور الوسطى ، ومع ذلك فعلى الرغم من أن أشد البابوات والأباطرة نزوعا إلى السياسة ، ربما ترددوا في مواصلة الفكرة حتى نهايتها المنطقية ، فإن الصراع بين السلطين الاستبداديتين لم يكن يحله عمليا إلا الدفع بقوة « الأمر الواقع والظرف القائم —

Jorge maeure

ومع ذلك فإن تلك المتناقضات لم تتم صياغتها حتى وقتذاك بوضوح تام ، حتى ليخالجنا الشك في أن شرلمان قد تدبر تماما في المشكلة الدستورية من حيث علاقتها ببيزنطة . إذ كان في الغرب جماعة زعمت أن العرش الإمبراطوري يعتبر شاغرا ، وذلك نظرا لأن إيرين سملت عيني ولدها الإمبراطور وزجت به في السجن ، وبذلك انفردت بالحكم امرأة تولت عرش القياصرة . غير أن مفاوضات شرلمان مع بيزنطة التي طال أمرها وانتهت آخر الأمر بالاعتراف به إمبراطورا « باسيليوس » في (٨١٢) مقابل تنازله عن فتوحه في دالماتيا ، تدل أنه لم يكن يشارك في هذا الرأي . ولا شك أن الفكرة التي ظلت قائمة

أن هناك إمبراطورية رومانية (Imperium Romanum) واحدة يحكمها في الشرق والغرب إمبراطوران متعادلان ، بيد أن أحوال أوروبا الصغيرة قطعت كل علاقة بينها وبين الحقائق القائمة . ذلك أن الفروق والاختلافات بين الشقين في القانون والإدارة وفي الدين والثقافة واللغة وفي المصالح الاقتصادية قد فصلت بين الشقين الشرقي والغربي ، اللذين افتراقا حتى في ذلك الحين نفسه افتراقا جغرافيا ، بما اندس بينهما في شبه جزيرة البلقان من ممالك صقلبية . والواقع العملي أن العلاقات بين الإمبراطورية الغربية (التي يمكن منذ ذلك الحين إطلاق ذلك الاسم عليها) وبين شقيقتها البيزنطية كانت أشبه تماما بالعلاقات بين دولتين أجنبيتين ، لا تحفلان إلا بالحرص على المحافظة على حدودهما والتسوية السلمية لما بينهما من منازعات ، وإن لم تعد تجمعهما بعد نظرة مشتركة إلى المتبررين . ولا شك أن المركز السامي الذي بلغه شرلمان في أوروبا الغربية والذي أضفيت عليه الصفة الرسمية بعد تنويجه إمبراطورا في (٨٠٠) ، لم يتهيأ له إلا بفضل نشاطه المدهش الدائب في إدارة الحكم داخليا فضلا عن الفتوح الخارجية . فقد تمت في حكمه الطويل الذي امتد ستا وأربعين سنة مالا يقل عن ستين حملة حربية ، قاد الملك الفرنجي نصفها بنفسه . ففي كل عام ، وبعد عقد الاجتماع السنوي للجمعية العامة في ميدان مايو ، كان المجندون الوافدون من أقرب المناطق إلى التخوم المتنازع عليها ، يقادون على بلاد العدو في حملات عاتية مجردة من كل رحمة . فما قرره الكوين ببساطة تامة في إحدى المناسبات قوله : « خرج الملك بجيشه لينزل الخراب بسكونيا » .

على أن عددا كثيرا من هذه الحملات قد أُجريت دفاعا عن الحدود ، فإن فتح بيبين لمقاطعة أكيثانيا دعا شرلمان فيما بعد إلى عبور البرانس لتأسيس « ولاية ثغور » أسبانية . كما أن تحويل باقاريا من دوقية شبه مستقلة إلى جزء حقيق من الإمبراطورية اقتضى تدمير مملكة الآفار الواقعة على نهر الثيس

والتي تنزع دائما إلى العدوان . على أن أعظم فتوح شرلمان قاطبة وهو فتح وسط ألمانيا وشمالها ، وإن كان الأصل فيه الانتقام من السكسون بسبب غاراتهم على أديرة منطقة الراين ، إلا أنه تجاوز كثيرا هدفه الأول . ولم يفته عهد شرلمان حتى كانت حدود الإمبراطورية قد زحفت من نهر الراين إلى نهر الإلب ، وبذلك تكون المنطقة المترامية الواقعة بين النهرين قد ضمت إلى الإمبراطورية في أيامه ، كما اتخذ التنظيم الإداري والكنسي بألمانيا صورته في العصور الوسطى . على أن السجلات المعاصرة لا تلقى الشيء الكثير من الضوء على الناحية العسكرية من هذه المنجزات الباهرة ، وذلك لأن تلك السجلات كثيرا ما تنقسم بسمة البلاغات الرسمية . وكانت البلاد مليئة بالعوائق الطبيعية الكثود ، إذ كانت مناطق مترامية منها مكسوة بالغابات أو المستنقعات . وكانت ممتلكات السكسون تبدأ على مسافة بضعة فراسخ من الشاطئ الأيمن لنهر الراين ، وتمتد إلى نهر الإلب عبر سهول وسط ألمانيا المكسوة بالغابات ، وهي المنطقة التي نزلها على التعاقب الوستفاليون والأنجاريون والإيستيفاليون . وإلى الشمال الذي هو أعسر مدخلا بكثير ، كانت تمتد منطقة المستنقعات الساحلية الموجودة بين مصبي الويزر والإلب ، ويقوم وراءها عند قاعدة شبه الجزيرة الدانمركية ، موطن النورد البنجيين (Nordalbingians) آخر المدافعين عن استقلال السكسون . ومع أن الحملات التأديبية كانت تجرد في كل صيف تقريبا بين عامي (٧٧٢ و ٧٨٠) وهي السنة التي بلغت فيها الفتوح نهر الإلب ، فإنه يبدو أن أحدا لم يفكر قط في القيام بحملات فتح منظم حتى ذلك الحين ، باستثناء ما كان من إقامة حكومة أطراف بمنطقة الرور ، تدعمها مجموعة مثلثة من الحصون المشيدة في هرزبرج وزيبيرج وكارلزبرج . ومع ذلك فإن تعاون المبشرين الذي شهدناه قائما في فترة التحالف بين بونيفاس وشارل مارتل^(١) ، قد تواصل ،

(١) انظر الفصل ١٣ بعنوان روما والكنيسة الكاثلية .

كما يبدو أن الجمع بين هجمات الإرهابيين والدعاية للمسيحية كان من سياسة شرلمان التقليدية الثابتة التي اتخذها لبث التعليم والثقافة في سكسونيا . وهي سياسة غير رشيدة ، لم تلبث عواقبها السيئة حتى ظهرت وشيكا . إذ كان العصيان السرى ينتشر في الغابات الجرمانية . إذ ظهر بوستاليا زعيم اسمه ويدو كند ، وانضم إليه الأنصار في جميع النواحي الأخرى . وكانت نتيجة ذلك أن كانت الأديرة تحرق ويضطر القساوسة إلى الفرار ، كما أن قوة فرنجية ضخمة كانت تزحف نحو الشرق على الصقالبة ، مزقت على نهر الويزر وتشتت شملها . وعندئذ صمم شرلمان أن يفتح تلك المناطق فتحا فعليا . وهنا لجأ ويدو كند إلى الدانمركيين ، وأعمل الفرنجة الذبح في ٤٥٠٠ من الأسرى السكسون عند فردان بدون أدنى مبالاة . على أن حملات الصيف الغنيمة ما لبثت أن أخضعت إيستفاليا خضوعا ظاهريا ، واضطر شرلمان في (٧٨٤) أن يقضى الشتاء كله في ألمانيا استعدادا للحملة النهائية . وعند نهاية (٧٨٥) تم إخضاع سكسونيا بأكملها ، فيما عدا منطقة المستنقعات الساحلية في الشمال والمنطقة الواقعة من وراء الإلب .

على أن النصر لم يكن تاما مؤزرا على الصورة التي تحدثت بها رسائل شرلمان المزهوة إلى البابا . ولا كانت التدابير اتخذت من النوع الذي يتمخض عن توطيد المكاسب وشد أواصرها . ومن ثم فإن مرسوم إعلان تسليم السكسون (Saxon Capitulary) الذي يرجح صدوره غداة الفتح ، يمكن اعتباره دراسة شائقة في الإكراه والقهر . إذ قسمت البلاد بمقتضاه إلى مناطق يحكمها كونتات ، من حقهم وحدهم بالإضافة إلى مندوبي الملك (Missi) ، توجيه الدعوة لعقد جمعية عمومية . على أن الكنيسة كانت الأداة القوية التي يستخدمها طغيان الفرنجة . إذ يختم المرسوم بالعبارة التالية : « على القسس أن يراعوا

ألا تعصى هذه الأوامر . ومعنى هذا أن جرة قلم واحدة كانت فى نظرهم كفيّلة بإزالة الوثنية ، وقادرة على إجراء تغيير شامل فى أسلوب الحياة السكسونية بأكلها من المهد إلى اللحد . إذ إن الامتناع عن قبول التنصير كان جزاءه الموت . وكان أكل اللحم فى أثناء الصيام الكبير يستوجب العقوبة عينها . كما فرضت الغرامات الفادحة على كل من لم يعمد ابنه قبل نهاية السنة ، على حين صار إحراق الجثث الجنائزى على ماجرت به عادة السكسون والنورسيين يعتبر من الكبائر العظمى . ومما يشهد بما تنطوى عليه ديانة السكسون من طبيعة بدائية وتوحش ، ما صدر من أوامر تحرم ممارسة شعائر من أمثال أكل لحوم البشر وتقديم الأضاحى البشرية وتفرض عقوبة الإعدام على مخالفة هذه الأوامر . ومما يزيدنا عجباً أن يظن ولاية الأمور آنذاك أن من الممكن أن تطبق فى هذا القطر العسير القياد وغير المروض أحكام نظام يتولى فيه قسيس الأبروشية الأجنبي الذى يعيش على ما يستخلصه من جمهور المصلين من الخدمات القهرية والعشور ، باستخدام شعيرة الاعتراف^(١) سلاحاً سياسياً ، يكفل الخضوع والولاء للملك والشعب المسيحى ، أى الفرنجة .

وأدرك ألكوين الخطر ، وعبر عن معارضته لتلك الإجراءات بطائفة لازعة من الأقوال المأثورة . فهو يصرخ : « يقول الناس إن العشور هى التى قوضت عقيدة السكسون » - ويقول : « وينبغى للمرء أن يدرك فوق هذا أن العقيدة تنبع من الإرادة الحرة ، لا من القهر . فكيف يستطيع إجبار الإنسان على الإيمان بما لا يؤمن به ؟ وربما أمكنك أن تجر إنساناً إلى حوض التعميد جراً ، أما إلى العقيدة فلا . ولكن أحداً لم يأبه بتحذيراته . وانقضت بضع سنوات بدا فيها أن كل شىء يعضى على خير ما يرام ، حتى لقد

(١) انظر إعلان تسليم السكسون المادة ١٤

استخدم السكسون في حرب النجوم وسُيروا على الصقالب والآفار . ولكن صدورهم كانت تضطرم خفية بالاستياء الغاضب ، الذي اشتعل في النهاية عصياناً ، لم ينشب لهيبه حتى انتشر بسرعة في كل أرجاء ألمانيا . فعرضت الكنائس للحريق والنهب ، ولقي الأساقفة والقسس مصارعهم ، وأصبح كل ما أقامه الفرنجة من نظم عرضة للدمار . وأخذ شرلمان على غرة ، فلم يستطع حشد قواته على الفور ، بيد أن مقاومة السكسون لم تلبث حتى قضت عليها في السنوات التالية قضاء نهائياً حملات جيوش زحفت من جميع الجهات ، وفي (٧٩٧) أخضع كل شيء حتى منطقة السواحل الشمالية ذاتها ، ملجأ النافرين الفارين من وجه الدولة . وفي خريف تلك السنة ، صدر في آخن (ايكس لاشابل) دستور جديد لسكسونيا ، بعد مشاورات لم يشترك فيها لحسب كونتات وأساقفة من الفرنجة ، بل حضرها أيضاً مندوبون عن الأقطار الجرمانية . وبمقتضى ذلك الدستور ألغيت جميع القوانين الجائرة التي أصدرها الفانج ، ومنذ تلك اللحظة أصبحت سكسونيا تحكم بطريقة تماثل طرق الحكم الشائعة بالأقطار الفرنجية الأخرى . وكانت المرحلة الأخيرة هي مرحلة ترويض منطقة نورد البيبجيا المسيرة القياد ، ولكن ذلك لم يتحقق إلا في (٨٠٤) ، يوم سمرت عليها آخر حملة نظامية في حكم شرلمان ، بإرغام السكان على النزوح قهراً إلى شطر آخر من مملكة الفرنجة ، ومنح بلادهم للأبوديين Abodrites ، وهم شعب صقلي مجاور أظهر ولائاً كحليف للفرنجة .

حروب الآفار ورونيسيفال

كانت منطقة الحدود التي أطلق عليها فيما بعد اسم منطقة «دانيا» ، هي المعقل الشمالى لمجموعة من مناطق الأطراف العسكرية ، التي يتولى ضبطها نخبة منتقاة من القواد أحسن اختيارها ، وقد أطلق عليهم فيما بعد اسم

المارجريف (Margraves) أى كونتات وحكام (Grafs) الأطراف والنفور (Mark) . ومع أن دولة الفرنجة لم يكن لها إلا سيادة مفككة على الصقلية فى الشرق ، فإن نهري الإلب والسال يعتبران فعلا الحدود الحقيقية لمملكة الفرنجة . ثم هناك فى أقصى الجنوب بافاريا التى ألحقت بالإمبراطورية ، والتى تقع وراءها ببلاد المجر مملكة الآفار . وقد استولى الآفار كأسلافهم الهون البدو الرحل ، على موقع ممتاز فى أوروبا الوسطى ، على الحافة الغربية لنطاق السهوب الآسيوى العظيم ، وظلوا قرنين من الزمان يلغون الرعب فى قلوب الشعوب النازلة فى المنطقة المترامية بين البلطيق والبيلوبونيز (المورة) ، وقد هددوا بيزنطة نفسها أكثر من مرة . على أن قوتهم أصابها الوهن قبيل تلك الفترة ، فتخلص من نير الآفار كثير من القبائل الصقلية التى كان الفاصبون يعيشون على كدها . بيد أنهم كانوا لا يزالون من القوة بحيث يهددون الحدود الشرقية للإمبراطورية الغربية ، حتى إذا هدا السكسون قليلا وأتاحوا للدولة فترة هدوء قصيرة ، بادرت جيوش شرلمان بأخذ خطة الهجوم . وتقدم إريك (Eric) دوق فريولى على الدانوب فافتحم الحلقة الكبيرة ، التى تتكون من متاريس ترابية مستديرة تؤلف المعقل الرئيسى لدى الآفار ، واستولى على كنوز هائلة من الذهب والمنسوجات النفيسة والأوعية الغالية ، وهى الغنائم التى حصلت عليها أجيال الآفار المتعاقبة ، التى يرجح أن معظمها قد انتهب من مدن الإمبراطورية البيزنطية وأديرتها وكنائسها . ثم توالى بعد ذلك الحملات التى تم بها القضاء على الآفار .

وقد أصبحت النمسا تؤلف عند ذاك جزءا من الإمبراطورية ، وشرع مستوطنون من جرمان بافاريا^(١) يستقرون فيها وفى الجزء الغربى من المجر .

(١) انظر الفصل الحادى عشر بعنوان انحلال إمبراطورية الآفار .

وهنا أصبحت المناطق الشرقية نفسها من المجر تعتبر جزءا من الإمبراطورية .
وبذلك عاد إلى الوجود بعد قرون عديدة خط حدود بانونيا المعروف عند
قدماء الرومان .

هنا أصبحت الكتلة الضخمة الفسيحة من أراضي أوروبا الغربية عدا
أسبانيا وجنوب إيطاليا تحت سيد واحد المرة الثانية ، يسطر سلطانه على طبقة
حاكمة من نبلاء الفرنجة والأكيثانيين والألمان واللومبارد ، ويحرك بسرعة
مدهشة لا يكاد يصدقها عقل جيوشاً من أحد أطراف ممتلكاته إلى الطرف
الآخر ، لكي يدفع إلى الخلف نخوم الوثنية المعادية . ولا شك أن هذا المثل
الاتحادي الأعلى للإمبراطورية المسيحية المقاتلة ، هو الذي فرض طابعه القاهر
على حضارة القرون الوسطى في الغرب ، وهو الذي عاش بعد تقسيم المملكة
الكارولنجية إلى عدد كبير من الإمارات المقاتلة ، والذي لعله لا يزال يعمل
عمله باعتباره ضرباً من مجتمع للشاعرة داخل نطاق مجموعة الأمم الأوروبية .

ولم يتجل ذلك المبدأ الاتحادي بوضوح أشد من تجليه في تلك الهالة
السحرية الرومانسية التي تحيط بذكريات يوم رونسيشال الفاجع . إذ انحدر
شرلمان إلى أسبانيا بدعوة من حليفه المسلم حاكم برشلونة العربي ، الذي كان
يحاول التخلص من سيطرة الخليفة الأموي بقرطبة . وعندئذ أن تحالف
شرلمان مع ذلك الحاكم المسلم له أهميته التي تعادل في قيمتها أن أول نصر
أحرزه الفرنجة هو استيلائهم على مدينة بامبيلونا ، وهي مدينة تابعة لمملكة
استورياس المسيحية . على أن الحملة أخفقت في الاستيلاء على سر قسطة ،
وبينما كانت طوابير الجند المنهكة تعرج ببطء في ممرات البرانس الضيقة ،
تعرضت مؤخرتهم لهجوم الباسك (البشكنس) ، وهم شعب مسيحي معاد
للفرنجة - حتى أبيدت برمتها . ولم يتيسر للفرنجة الانتقام منهم على تلك
الكارثة ، غير أن الحملات التالية التي وجهت على ذلك الإقليم الوعر ،

تمكنت في النهاية من إنشاء منطقة الأطراف (الثغور) الأسبانية في المنطقة التي تقع جنوب جبال البرانس مباشرة . على أن الأساطير التي تطلق لنفسها العنان في العبث بالحقائق التاريخية ، تحول غارة (٧٧٨) الفاشلة تلك إلى حملة صليبية مجيدة . أما اشتباك المؤخرة مع الباسك وما أصابها على أيديهم من حظ عاثر ، فقد حولته الأسطورة إلى معركة احتشد فيها من جيوش الوثنيين مالم تشهد بلاد لعددهم مثيلاً ، وقهروا فرسان الإمبراطور المغاوير الذين سقطوا في ساحة الشهادة دفاعاً عن الإيمان والعقيدة . وبعد ذلك بثلاثة قرون تناول الشاعر تلك القصة الشعبية لا في تفاصيلها الحقيقية الدقيقة بل في صورة المثل الأعلى الذائع الانتشار للفروسية المسيحية ، وجعل منها تلك الملحمة الفاخرة التي تسمى « أنشودة رولان Chanson de Roland » ، فأصبحت بذلك قطعة خالدة من تراث أوربا الخيالي .

نظام الإدارة الكارولنجية

كان الجهاز الذي سيطر به شرلمان على شئون إمبراطوريته الضخمة جهازاً غلبت عليه السمة الجرمانية ، شأن الجهاز الذي استخدمه الميروفنجيون . فإن معظم النظم كانت لاتزال قائمة ، مثل إدارة الحكم المحلي بواسطة الكونتات ومرءوسيه من الموظفين ، ومثل نظام القضاء العنصرى والمجالس السنوية . هذا إلى أن الطابع الشخصى والمرن غير المحدد الذى يتسم به الحكم لدى الفرنجة ، والذى سبق لنا موازنته بالحكم الرومانى الثابت التجريدى^(١) ، ظل قائماً ومعمولاً به في ظل الحكم الإمبراطورى نفسه . إذ لم يبرح الإمبراطور يعد إلى حدماء قائمى المقاتلين التيسوتون في الحرب ، الذى يحيط به ثقافته من زملائه في السلاح ، الذين كانت خدماتهم له موضع التبادل بين الطرفين دائماً .

(١) انظر المصل الثانى عشر . منون الحكم الرومانى والجرمانى .

ويمحور أن يتولى كوتنتات القصر قيادة الجيوش على الحدود، كما يقوم «الصنجيل» (Seneschal) بإدارة حركة المطبخ، أو يرسل «القهرمان» في سفارة دبلوماسية إلى بافاريا .

وكانت الإدارة المالية بدائية بالمثل . إذ إن نظام الخدمات العامة المحكم الذي كان لدى الرومان قد اندثر في عهد المبروفنجيين ، وجعل نظام الضرائب في أبسط الصور ، إذ اقتصر على رسوم المعديات وعلى مكوس الطرق والدخولية فضلا عن المكوس المفروضة على حيازات فردية معينة . وكان يطلب من الناس في بعض حالات معينة صيانة الطرق والكبارى والتحصينات ، فضلا عن استضافة مندوبى الإمبراطور ومدعم المؤن . على أنه ينبغي ألا نضلنا اللوائح والتنظيمات الكثيرة والتفصيلية التى نجدها فى مجموعات الأوامر والمراسيم التى أصدرها شرملمان رغبة فى تنظيم التجارة وضبط الأسعار ، تضليلا يخفى عنا الحقيقة المجردة ، وهى أن المبدأ الذى تقوم عليه مالية الدولة عنده وعند غيره من ملوك الجرمان يقوم على فكرة « الخزانة » الملكية . وكان الأساس فى إيرادات الدولة هو ما يحصل من الضياع الملكية من ريع ، تزيد فى مقداره الغرامات والمصادرات وغنائم الحرب والهدايا الإجمارية . ومن هنا يستبان أن القائم التيوتونى كان يكافئ أتباعه بما يمنحهم من الأراضى ، وما يهبهم من الامتيازات المحلية فى القضاء والضرائب التى ينزل لهم عنها باعتبارها ملكا خاصا له . على أن الظروف المعقدة الناجمة عن المزج بين الثقافتين الرومانية والجرمانية ، وتولى الجرمان السيادة فى أقطار منحتها روما حضارة متقدمة ، عرضت هذه القرارات إلى ما لا حصر له من صنوف التفرقة والقيود . ومع ذلك يظل الفرق والتباين عظيما بين الإمبراطورية البيزنطية التى هى الاستمرار المباشر لروما بما لها من جهاز خدمة مدنية ، وما لها من جهاز للضرائب معقد ومنظم ، وما لها من جيش وأسطول دائمين ؛ وبين الأقطار الرومانية الجرمانية فى غرب أوروبا ،

التي كانت السلطة المركزية فيها لا تقوم على موارد مالية مستديمة ولا تستند إلى تنظيم إداري ، وإنما تركز فقط على التزامات من خدمات شخصية وولاء شخصي يؤديان للحاكم مباشرة من كل فرد من أفراد رعيته . على أن هناك سلطة متوسطة تمت بين الملك والرعية ناجمة عن ظهور عوامل النظام الإقطاعي التي بدت بوادرها في تلك المدة ، ولم يكن بد لنموها من أن تقوض سلطات ملكية من ذلك النوع لا تستطيع فعلاً أن تتخلى عن شطر من سلطتها دون أن تضيعها بأكملها .

وتتجلى العملية واضحة في الجيش السكارولنجي . ولعل الخدمة العسكرية كانت أفذح الأعباء التي تفرضها الدولة على رعاياها ، كما أن نفقات التسليح كانت تبهظ الرجل الحر الفقير ، الذي كان لا يزال عرضة لحمل السلاح طبقاً لما جرت عليه عادة الجرمان . واتخذت بعض الإجراءات للتخفيف عنه ، فلم يعد يدعى للخدمة بأية منطقة سوى الطبقات الغنية إن كانت الحملة موجهة إلى منطقة نائية من الحدود ، وكثيراً ما كان يسمح لاثنتين أو ثلاثة من صغار الملاك بالاشتراك معاً في إرسال رجل واحد إلى « الجيش » ، وتزويده بالعتاد . على أن ذلك لم يكن كافياً . فقد ولت منذ زمن بعيد تلك الظروف التي كانت تيسر في الأزمان السابقة البدائية حشد مجموعة مسلحة مكونة من جميع الأعضاء الأحرار في القبيلة الذين يتساوون على وجه التقريب في الوضع الاقتصادي . إذ تزايد التفاوت في ثروة الأفراد ، وأخذ القتال يصبح رويداً رويداً الحرفة الوحيدة التي اختص بها السادة الإقطاعيون ، كما يقوم به كل من يملكون الخيل والدروع . وينتمي إلى الفئة الأخيرة كل من وهب إقطاعاً ، أو توصلوا عن طريق « التوصية » ، إلى الارتباط بعلاقة تبعية مع « السيد الإقطاعي » ، اقترنت بالالتزام بالقيام بالخدمة العسكرية^(١) . هذا وإن التغير الذي تحول بمقتضاه

(١) انظر الفصل الثاني عشر بعنوان الحكم الروماني والجرماني .

الجيش - وهو فى الأصل مجموعة من الأحرار لا يرطهم بقائدهم فى الحرب إلا رابطة الولاء - إلى هيئة مجمعة من الفصائل التابعة لسيدها الإقطاعى التى لا يتولى فيها الملك بوصفه المولى الإقطاعى الأعلى القيادة إلا عن طريق أتباعه من النبلاء ، إنما هو وضع لا ينتهى فى الحقيقة إلا إلى القرون التى أعقبت ذلك . ولكن شرلمان اعترف فعلاً بالوضع الرسمى لكبار السادة الإقطاعيين عندما أمر المجندة بالتقدم إلى مواطن الاحتشاد المحددة إما بقيادة السكونت الحاكم الإمبراطورى بالمنطقة ، وإما تحت إمرة سادتهم الإقطاعيين المحليين ، ولم يعد بعيداً الزمن الذى أصبحت فيه التبعية وراثية ، والذى صار فيه ولاء الأتباع مقصوراً على سادتهم المباشرين ، والذى يقوم فيه النبلاء فى ظل ملكية ضعيفة كريمة ، بقيادة قواتهم لتدمير السلطة المركزية .

ومع ذلك فقد حدث مؤقناً أن شرلمان بفضل ما اشتهر به من شخصية قوية وفتوة دافقة ، استطاع أن يحافظ على ما أقامه من وحدة الإشراف والضبط على أملاكه المترامية الأطراف . وكان كل كونت من أتباعه بحكم منطقة من الإمبراطورية ، وقد فوضوا لآ فى مراجعة أتباعهم فحسب ، بل فى الرقابة أيضاً على أعمال موظفى السادة الإقطاعيين من الكهنسيين والعلمانيين سواء . يضاف إلى ذلك ما حدث من نمو نظام المبعوثين المملكين رغبة فى حبك أطراف السلسلة التى تربط بين الحاكم وبين كل فرد من أفراد رعيته . وبمقتضى ذلك النظام قسمت المملكة بأجمعها إلى مجموعات تتألف كل منها من عدة كونتيات ، يطوف بها اثنان من المبعوثين فى كل عام عادة ، أحدهما من رجال الكنيسة والآخر من العلمانيين ، ويتوليان الشئون القضائية . وكان مجال واجباتهما رحيباً . فلم يكن من واجبهما فقط الإشراف على يمين الولاء الذى تقسمه الرعية للإمبراطور ، وأن يتحققا من انتظام ورود إيرادات غلات التاج وممتلكاته ، وأن المراسيم مفهومة ومنفذة ، وأن المجرم يلقى جزاءه على جريمته

وأن العدالة تجرى مجراها ، وأن الخدمة العسكرية تنفذ على وجهها الصحيح ، بل لقد أمرا كذلك بالتفتيش على الكنائس والأديرة ، « لكي يتأكدوا أن القسس يراعون نظمهم ، وأن الرهبان يتبعون بإخلاص قواعد القديس بنيدكت ، وأن ما أصدره الإمبراطور من لوائح عن ترانيم الصلوات ينفذ ، وأن كتب الإيمان مطهرة من كل خطأ ، وأن المباني تصان ، وأن الشعب يحضر القداس في أيام الآحاد ، وأنه يعرف عقيدته فيعلم « قانون الإيمان » وصلاة « أبانا الذي في السموات ... » ، وأنه لم تضلله الخزعبلات القديمة »^(١) .

القوانين الكارولنجية

وقد خلف لنا ثيودولف أسقف أورليان صورة وصفية رائعة لمسير هذين المبعوثين ، وهو أوسع شعراء عصر النهضة الكارولنجية ثقافة ، وكان هو نفسه أحد هؤلاء المبعوثين وإن تصويره الدقيق للتفاصيل ، وما عرف عنه من روح إنسانية رحبة وفكاهة ما كره ونظرة ناضجة حصيفة ، مختلفة كل الاختلاف عن نظرة رجال الأديرة المشوبة بالبراءة أو التعصب اللذين اتصف بهما كثير من معاصريه ، — كل ذلك يبعث الثقة في روايته التي تعرض علينا في وضوح مشرق ، الأحوال في جنوب فرنسا عند نهاية القرن الثامن . وهي تروى مرحلة أخرى جديدة في عملية التحول التي سجلها من قبل أوسونيوس وسيدونيوس وأبولينارس وجريجوري أسقف تور^(٢) . وتنجلي ذكرياته الشخصية في رسالته : « نصيحة إلى القضاة » وهي ثمرة الخبرة التي اكتسبها في أثناء جولاته في الجنوب . وهو يصف بلهجات من قلمه ضروب التباين بين مناظر بروفانس — كالتلال الصخرية الوعرة الشديدة الانحدار والسيول المندفعة والخوانق والآخايد

(١) انظر لافيس في (Histoire de France) ج ٢ ص ٣١٩ (باريس ١٩٠٣) .

(٢) انظر ما قبله ص ٦١ ، ١٢٠ ، (الفصل ١٢) وخريبطي فرنسا في عهد الميروفنجيين .



١٧ - صورة صليب بيوكاسل ، نقوش على وجهه الشرقى

الراكدة الخائقة الهواء ومستنقعات المناطق الساحلية القاتلة كربة الراثة ومنحدرات نهر الرون العريضة والمدن الفاخرة التي تحيط بها الأسوار العالية : مثل آرل وأفينيون ونيم وأورانج ومارسيليا وكثير غيرها مما ورد ذكره في تلك القصيدة . ثم يحملنا السكائب بعد ذلك إلى دار المحكمة في (ناربونة) . وهي لاشك ليست إلا بناء مجلس مدينة رومانيا قديماً ، كان حتى ذلك الحين يزين العاصمة السابقة للإقليم . وقد احتشد حول مدخلها المرتفع جمهور من المتقاضين يعج بالضجيج . ويدخل القاضى إلى قاعة المحكمة بعد حضوره القداس يصحبه كاتب ، ثم يعمد الحاجب بعد إدخاله إلى ساحة المحكمة كل من لهم الحق في حضور الجلسة ، إلى إقفال الأبواب دون أعين جمهرة من المشاهدين الفضوليين . ويتخذ القاضى جلسته الوقور على الكرسي ذى الأرجل المقوسة يحيط به وجهاء المدينة ، ثم يعمد إلى اختيار مستشاريه القانونيين . وعندئذ يبدأ عمل اليوم . ويتوقف ثيودولف عند هذه النقطة لكي يوجه النصيح في الإجراءات . فيقول : ينبغي للقاضى ألا ينكلم بسرعة شديدة ولا يبطئ شديد ، وينبغي له أن يوجه المتقاضين ويساعدهم على شرح قضاياهم أمامه ، فيشجع الخجول والوجل ويشكم الوقح ويسكت الثرثار ويسيطر على ضجيج الصائحين باستخدام صوته القوي - على أنه ينبغي مع ذلك أن يلزم مكانه ، وأن يمتنع عن استخدام العصا يقرع بها الأكتاف والرؤوس ، كما ذاع عن بعض ضيق الصدر من القضاة .

ويؤكد المؤلف وهو ينحدر من سلالة القوط الغربيين ومن درج على التقاليد الرومانية القانونية - تشديده على عيوب الطريقة الجرمانية في الإدلاء بالمعلومات ودحضاها بواسطة الأيمن - وهو يرى أن وسائل حلف اليمين بأجمعها وبكل ما حوت من أساليب إثبات واتهامات يدعمها القسم وتملأ (٢٣ - المصور)

المحكمة بالصيحات الصاخبة التي تجار « بنعم وكلا » ليست جميعاً إلا أموراً قاصرة تعوزها السكفاية ، وهو يفضل أن يمضى القاضى فى عمله « بالتحقيق » والاستقصاء ، الذى يتم عن طريق شهود عدول ثبتت أهليتهم ، بعد أن استجوبهم القاضى على انفراد . وإنه لىأبى كذلك الموافقة على المبدأ الجرماني الذى يجعل العقار والممتلكات أهم كثيراً من الحياة ذاتها . وقد راعه أن يجازى مرتكب السرقة بالصلب أو قطع اليد وفقه العين ، بينما يمكن التغاضى عن القتل بدفع الدية اللازمة . على أن أسوأ العيوب هو شيوع استخدام الرشوة للحصول على حكم فى صالح الراشى . فشكل إنسان فاسد ومرتش : - الحاجب على بوابته والمستشارون القانونيون على منصتهم ، بل إن زوجة القاضى نفسها قد أغواها فريق له مصلحة خاصة ، فهى لا تزال تحوم حول عنق زوجها متشفعة إليه ضارعة ، فى حين أن مربيتها وخادمتها الوقحة الصغيرة تلومان سيدهما على قسوته عليهما .

ومن الجلى أن ثيودولف عالج فى حديثه كثيراً من الأشياء التى قذفت عليه ، كأنما هى آلات حصار عديدة سلطت عليه لتدمير حصون استقامته . فمن هذه القذائف (أعنى الرشى) الأوانى الزجاجية والجواهر الشرقية والنقود الذهبية الرائعة التى تحمل حروفاً عربية والديباج الموشى بأشكال الثيران وبماذج هندسية ذات تصميم أسبوى ، وهناك أيضاً الأسلحة والخيول ، على أن أثنى هذه الكنوز جميعاً وعاء من الفضة يرجع إلى عهد الإمبراطورية الرومانية يحمل ظاهره نقوشاً بارزة توضح أعمال هرقل اليومية . أما المتقاضون من الفئات المتواضعة ، فلم يكونوا أقل إصراراً على تقديم ما لديهم من هدايا من جلود قرطبة المبيضة أو المصنوعة والمنسوجات الكتانية والصوفية ، والأحذية والقبعات والقفازات ، فضلاً عن مناشف الوجه ، على حين أن شخصاً ما كرا عرف فيما يحتمل ذوق الأسقف الأدبى ، فأخرج إليه لفافة من « رق » الكتابة

الأرجواني مبتسما ابتسامة الظفر بالأرب . ولكن القاضى النزيه يرفض كل هاته الهدايا ، على أنه ربما قبل بعض الهدايا الصغيرة من بعض الأصدقاء رغبة فى عدم جرح مشاعرهم - مثل نمار الحقائق والبساتين والخبز والبيض والجبن المصنوع من لبن المساعز وصغار الدجاج اللينة والطيور الصغيرة حجما واللذينة طعاما .

والركب الذى يمر أمامنا فى ضياء شمس بررفانس المشرقة ، موكب بالغ التنوع زاخر بالألوان ، مؤلف من أجناس مخلطة . ولا شك أن قدرا كبيرا من حياة روما القديمة لا يزال باقيا ؛ فعلى الرغم من أثر الفرنجة ونفوذهم ، فإن الإجراءات العامة بالمحاكمة ، بما لها من قاض رئيس وجو أرستقراطى ، وما لها من مراسم تبعث الرهبة ، وما حفل به جدول قضاياها المعقد الذى تدور منازعاته حول العقود والوصايا ، إنما هى أبعد ما تكون حقاً من الجمعيات (المجالس) الجرمانية البدائية المكونة من المحاربين الأحرار . ومع ذلك فإن ما حفل به خيال العصور الوسطى من الرعب والخاوف القائمة ، يقف بكامل قوته من وراء هذا العالم المائل أمامنا . فإن ثيودولف يروح فى مجموعة قوية ومعتمدة من اللوازنات ، فيوازن بين ثياب الذهب والحريير والفراء والعطور ورقيق الأطعمة والخمور وللساكن الرحبة والممتلكات العديدة ، وتزاحم الموالى والعملاء حول الرجل الغنى فى هذه الحياة الدنيا وبين القنطرة والضيق والفقر والوحدة المطلقة ، وما يصيب الجسد فى القبر من تحلل رهيب . وإن أوصافه لليوم الآخر بما فيه من رعود ونفخ مدو فى الصور^(١) ، وإن عولجت بالطريقة التقليدية ، إلا أنها يمكن أن تتخذ شرحاً ونصاً صريحاً يعبر عن العديد الذى لا حصر له من النقوش البارزة المنقورة على بوابات الكاتدرائيات المشيدة على الطراز الرومانسكى أو القوطى .

بلاط شرمسان

والراجح أن شخصية شرمسان الأسطورية ، التي جعلت منه عملاقاً ضخماً تمتد لحيته إلى وسطه لا تقوم على أساس من الحقيقة . إذ الظاهر أنه كان طويل القامة حقاً ، ولكنه ليس ذا طول خارق للمعتاد ، وأنه كان قصير العنق ، وكان له بطن بارز ورأس مستدير وعينان كبيرتان معبرتان ، وكان له أنف أقرب إلى الطول وشعر غزير ؛ وكان حليق اللحية ، إلا من الشارب الفرنجي المألوف . ويتسم طبعه بالمودّة والبساطة ، فكان يستطيع من ثم أن يتجول بين حشد من رعاياه في أثناء الاجتماع السنوي ، وتوجيه العبارة المناسبة لكل منهم فيسكتسب بذلك ثقتهم ، ويلتقط منهم التعليقات الحكيمة على الأحوال المحلية . ولما اشتهر به من الاستقامة والإخلاص وخلق القوى والحساسية المرهفة وبعد الهمة الذي لا حد له والشفف بجمع التفاصيل ، أثر في معاصريه بقوة شخصيته وعدوبتها بقدر ما أثر فيهم بعظمة أعماله .

وقد وصلت إلينا ثروة ضخمة من الحوادث والنوادر التي تدور حول شرمسان وبلاطه ، وذلك لأن الحوليات الهزيلة التي كتبها مؤرخو الأديرة لم تلبث أن عززها فجأة مجموعة رائعة من الشعراء الذين حاولوا في محاكاة دقيقة لأوفيد وفرجيل تصوير المناظر التي يعيشون بين ظهرانيها . ولعل الترجمة البسيطة الطريفة والذائعة الصيت التي كتبها رينهارت عن حياة شرمسان أثمن لنا من هذا كله أو تكاد . فهي وإن تعرضت دون ريب لشيء من النقد في تفاصيلها^(١) ، تدفعنا إلى الاقتناع بصحة ما فيها بفضل قوة بيانها في اللاتينية ، التي هيأت للكتاب أسلوباً مشرقاً اختص به شخصياً ، لا يضارعه فيه فيما

(١) ولكن أصداءها السوفيتونية أثارت الشكوك ، ومن الجلي أن المؤلف الذي كتب ماكتب بعد وفاة شرمسان لم يكن في مركز يتيح له الحصول على معلومات جديدة من مصادر مباشرة أصيلة عن نواح مدينة من سياسته .

يحمل إلا بيده (Bede) في أثناء القرون الثلاثة الأخيرة في الغرب . وكان
شرلمان نفسه هو السبب في التعجيل بالانجاس الرائع لهذه الطاقة الفكرية
التي تشهد ثمار القرائح فيها بالتدريب السليم الدقيق في علمي البيان والأجرومية
(النحو) . وقد استدعى شرلمان إلى بلاطه أشهر علماء غرب أوروبا في
عصره من إنجلترا وإرلندة ولومبارديا ، فاجتلب بطرس الپيزى وبولس
الشماس وأبناء وطنهما الآخرين كنوز العلوم الإيطالية إلى فرنسا ، كما واصل
الاسكوتس (Scots) أى العلماء المتجولون القادمون من الأديرة الإيرلندية
عمل أسلافهم المبشرين وأنثروا أثرهم التعليمى فى الإمبراطورية الفرنجية . ومع
ذلك ، فلاشك أن السكون هو أهم شخصية قامت بتنظيم النهضة السكارولنجية ،
فبفضل تعاليمه تحمكت المثل العليا للثقافة النورمانيانية وطرائقها فى حركة إحياء
العلوم ببلاط شرلمان . وفى أثناء القرن الثامن ، شهد الطرف الشرقى من
إنجلترا الآثار المدهشة التى ترتبت على ازدهار حضارة أنجليا . وكان ذلك
العصر ، هو عصر أناجيل ليندزفارن بما حوت من خطوط مونة وتصوير
فاخر ، وهو أيضاً عصر الأديرة العظيمة ومراكز العلم السكثيرة الزاهرة بكل
من هكسهايم وچارو وبورك ، وهو عصر بيده أشهر كتاب أوروبا الغربية ،
وكان عصر صلبان بيوكاسل وراثويل الضخمة التى يشهد ما نحت عليها من
مناظر مقدسة تفوق فى وجدانها التشكيلى كل ما فى القارة من أعمال ، بوجود
إمكانيات لم نصادفها فيما بعد لدى الفنانين الإنجليز المتأخرين من تصميمات
لأشكال ورسوم خطية نمطية معبرة عن القصص . كانت ثقافة منتقاة سريعة
النمو تولدت عن التقاء مؤثرات مختلفة فى أرض مملكة قوية لقوم من أشباه
البرابرة . وربما أمكن التماس الإلهام السكتى فى موضوعاتها الزخرفية وفى
مجال دراساتها الكلاسيكية ، وكانت نتيجة استيراد بيسكوب البندكتى
للمخطوطات وزخارف الكنائس من فرنسا وإيطاليا لزخرفة مؤسساته فى

جارو ومونكسويرماوث (Monkswearmouth) دخول المؤثرات البيزنطية المنتشرة في ذلك الوقت بجميع أرجاء القارة . ولا شك أن كفاية الكوين في تنظيم المدارس وإعداد الخطط الدراسية ، تومى إلى بقاء ما اشتهر به اليونان والرومان من طرق التدريس ، التي انتقلت فيما يبدو إلى حاضرة العلم في يورك على يد ممثلي البابا بكانتربرى : هادريان وثيودور . على حين أن الشعر العجيب الذى كان يقرضه الغزاة الجرمان بكل ما حوى من أبطال ووحوش ، ومن فكاها بشعة ومن محاورة خفية ، كان لا يزال موضع إعجاب الرهبان النورمانيين ، كما أنه انتقل إلى السكتب المدرسية السكارولنجية في صورة أغاز ومسائل في شعر الحكمة ، لا بد أنها كانت تبعث البهجة في قلب شلمان، المعروف بشدة ولعه بأدب ملاحم الساجا التي خلفها أجداده الفرنجة . وبعد أفول نجم مملكة نورمبيريا وما تلاه من ارتفاع شأن مرسيا أولا ثم وسكس بعد ذلك ، اعتلت تلك الثقافة ثم توارت في النهاية عن الأنظار ، وداستها أقدام المغيرين الفيكينج ، ولكن نظراً لأنها غرست في تربة غالة ، مكتملة الازدهار، فإنها أصبحت العنصر المتسلط في أثناء عودة الحضارة الغريبة إلى الانهـاش في عصر السكارولنجيين .

النهضة السكارولنجية

منذ اللحظة التي وجد فيها المدافعون عن المسيحية أنه ينبغي لهم أن يحددوا مراكزهم بالنسبة إلى الدراسات الكلاسيكية القديمة ، أصبحت دراسة الآداب تعد تمهيدا لغاية أعلى منها ، هي فهم أصول الدين (اللاهوت) . وقد أقر شلمان قصدا هذا المثل الأعلى، بيد أن الاعتبارات السياسية دفعته هي أيضاً في ذلك الاتجاه نفسه ، بالنسبة لرجال الإدارة لديه سواء كانوا كنسيين أو علمانيين ، رغبة منه في أن يحصلوا على مستوى خلقى وفكرى

أعلى ، ولا يخفى أن وضع تنظيم وثيق الأركان محكم الربط لسكل من الكنيسة والدولة كان يرفع من شأن مصالح الاثنين التي اجتمعت كما هو معروف داخل وحدة الإمبراطورية المسيحية التي لا سبيل إلى فصمها . وبذا أصبحت مدرسة القصر في آخن (Aix) مركزاً للنشاط الثقافى ، يشهده أفراد الأسرة الملكية وأبناء النبلاء الفرنجة . وكثيراً ما كان تلاميذها يتولون رئاسة بعض ما كان بأرض الراين ومواطن أخرى من الأديرة الكبيرة التي ما لبثت أن أصبحت مواطن للعلوم والفنون في مناطقها ، ومراكز تضم المكتبات والمدارس وأساتذة الخورس (مرتلى الكنائس) وصناع الزجاج وتجار الجواهر ونساخي المخطوطات . وقد نظم تيودولف الأورليانى التعليم المحلى بأبروشيته . وأخذت مدن معينة بإيطاليا تشهد فعلاً بمعاهدتها التعليمية .

غير أن وسيلة التعبير التي استكشفت أخيراً قد استخدمها كتاب البلاط لاقى التعبير عن الأغراض البيانية فحسب ، بل وأيضاً في وصف ما يحيط بهم من ملابس . وهم يعرضون أمامنا مشهداً ذا ألوان زاهية بهيجة لبدائيات ناضرة جديدة على خشونتها وسذاجتها . فيقولون عن قصر آخن الجديد ، إنه يقع في وسط بقعة غنية بالغابات تنتشر فيها أسراب الغزلان ونشقه الجداول ، التي ترتادها الطيور المائية المختلفة . ولما نسمع - من أوصافهم - صرير العربات وهي تجلب الكتل البيضاء ، ونسمع صوت الأحجار وهي تقطع وتسوى ، على حين ترتفع الكنيسة العظيمة شيئاً فشيئاً ، حتى تطل قبتها المذهبة الشاحخة على المباني المنخفضة الممتدة التي يشغلها الملك وأفراد أسرته العديدون ، وتشرف على الفناء الذى يقع فيه تمثال لنيودوريك في هيئة فارس ، وهو أعظم من سلف من الحكام الرومان الجرمان ، وقد نقل التمثال من رافنا ، وتطل أيضاً على حمامات السباحة في الهواء الطلق التي تحيط بها درج الرخام والتي يستطيع أن يستحم فيها في وقت واحد شرلمان ومعه مائة من الرفقاء . وهناك

كثرة موفورة من الذهب - نجدها في آنية الذهب الخالص الموجودة بالكنيسة وعلى المائدة الإمبراطورية في أيام الحفلات ، وفي السلاسل والخواتم الذهبية وفي الذهب المصوغ في حائل السيوف ومقابضها ؛ وفي شعر الأميرات الذهبي الباهت عندما يخرجن للقنص ساعة الفجر ، وتنفتح بوابات القصر عندما ينطلق منها الفرسان ويملأ صهيل الخيل ، ويشند نباح كلاب الصيد العميق وترتفع الصيحات التي يتردد صداها في الغابة المجاورة . وهناك الثياب الزاهية الألوان مابين عباءات طويلة بيضاء وزرقاء أو أردية صوفية قصيرة تلونها الخطوط المستقيمة أو المتقاطعة واللقم . على حين أن ثياب الحرير والسكتان الرقيق تلبس داخل المنزل ، كما أن ملابس الحفلات وحلل التشريرة غنية بوشبها الجزل مطرزة الحافات بحبات اللؤلؤ .

ويزدحم القصر بمبعوثي جميع الشعوب ، فيهم ممثلو ملوك مرسيا أو نورميريا أو الرؤساء الدائميين أو الصقالبة أو رسل البابا أو الموظفون البيزنطيون أو المسلمون من أسبانيا وإفريقية . بل إن هرون الرشيد نفسه يرسل الهدايا من عاصمته النائية بغداد ، وبفضل ما كان لشرلمان من نفوذ عند الخليفة تمكن من الحصول على الامتيازات لحجاج بيت المقدس المسيحيين . وقد حرص كتاب هذا العصر على أن يدونوا بدقة أسماء السلع الأجنبية الواردة من أقطار نائية ؛ كالتوابل الآسيوية من الفلفل والقرنفل والقرفة وما شابهها - وهي تستخدم بكثرة لإخفاء نكهات الطعام والحمر ، أو كمواد مساعدة على الهضم . ولما كانت حاجات القصر الإمبراطوري كانت تسدها بصفة أساسية منتجات المزارع الملكية الضخمة ؛ التي تزود ذلك القصر بما يحتاجه من السمك ولحم الصيد والحب والخبز والزبد والخردل والخل والشهد والشمع والصابون والحمر ، على حين يرد اسم الخيار والشماع والخرشوف والبازلاء والجزر والبصل والسكرات والفجل أيضاً في مرسوم الضيعة (Capitulare de villis) الذي يحتوي على التعليمات

اللازمة لتزويد الدور الريفية المملوكة بطلباتها . والراجح أن طرق الرومان في الزراعة بقيت بتلك الأراضي ، التي يحتمل أن بعضها كان من أملاك أباطرة الرومان المتوارثة .

الحياة في آخن

إن الحياة هنا خليط عجيب من الحياة البربرية القوية والحضارة القديمة الذاتية . فإن إينهارت ورفاقه يدرسون فتروفيوس فضلاً عن ثرجيل ، كما أن مانهب من راقنا من أعمدة ورخام أدخل في المائر الجديدة ، مثلما أن ماقتبس من أوفايد وسيتونيوس من عبارات يتجلى بوضوح في مصنفات ذلك العصر . ومع ذلك ، فإن بالمارة المعاصرة آيات تشهد بالنشاط ومحاولة التجريب ، كالتصميم النادر لكنيسة ثيودولف في جرميني دي بريه (Germigny-des-prés) كالمارة الشاخنة لكنيسة سانت ريكييه أو دير القديس واندريل ببرجه الضخم الذي تعلوه منارة مميكة قصيرة مذهبة ، وتزينه غرفة الطعام الفسيحة التي تزدهن جدرانها بمنظر تمثل الشهداء والشهادة والقصص المقدسة . ولا شك أن في جو البلاط نفسه من المتناقضات ما لا يقل عن هذا استعلاء للأناظر . ففي داخل أسواره يختلط الحجاج والتجار والجنود والرهبان والنبلاء والعلماء والسيدات المرحات والغلمان الرشقاء ، على الرغم مما قد ينشأ بينهم من خلافات في بعض الأحيان . ويتردد شمرلمان نفسه على المدرسة طلباً للتعليم ، ويتنافس هو وأصدقائه ببالغ الشغف في نقاط عجيبة في علم الصرف أو العلوم . ومع ذلك فلم يكن هذا سوى متنفس واحد لطاقته الجسمية والفكرية الهائلة . ومن وراء كل هذا المرح وهذه الفخامة التي تتجلى في آخن من ممارسة الصيد والسباحة والمؤامرات والفضائح ، يسير العمل الإداري الجدي قدماً في طريقه ، وفي كل صيف ينطلق فرسان الفرنيجة للقتال خارج حدود العالم المسيحي .

على أن أحوال فرنسا في مجملها لا يجوز استنباطها من هذه الصورة لحياة البلاط . أجل إن حكومة شرلمان القوية حفظت النظام في البلاد ، فانتعشت التجارة تبعاً لذلك ، ولا سيما في مدن بروفانس ومنطقة الراين ؛ غير أنها لم تكن أساساً إلا تجارة في أدوات الترف . ولم يحدث أى تغيير فجائى فى النظام الاقتصادى بأوروبا الغربية . وتواصل قطع الغابات وترتب على ذلك نقيضه الطبيعية من زيادة رقعة الأرض القابلة للزراعة ؛ وأحرزت المزارع الضخمة المكاسب على حساب المزارع الصغيرة ، وأخذ مركز المالك الحر الصغير للأرض يزداد على الأيام تقلقاً واضطراباً . وكما كان الشأن قديماً ، تركزت حياة السكان حول الدور الريفية للسادة العلمانيين والسكنسيين ؛ وصار الحد الأقصى للسكان الطاحون ودكانة الحداد والسوق المحلية والمحكمة .

عيوب سياسة شرلمان

توفي شرلمان فى آخن فى يوم ٢٨ يناير ٨١٤ ، وبزوال شخصيته البارزة لم تلبث الإمبراطورية الفرنجية الضخمة التى أتم بناءها ، أن هوت فريسة للتمزق والفوضى . فإن إينهارت الذى سطر مآلفه فى عصر خلفه لويس التقي كان ينظر إلى ماضى من أيام شرلمان ، نظرة الناس إلى عصر ذهبي أسطورى مضى . فما كان يتلأأ به بلاط شرلمان من الفخامة المتألقة التى بهرت أبصار معاصريه أعمتهم عن حقيقة إمبراطوريته وأنها دولة قلقة غير ثابتة ، مثلما أن ما اشتهر به شرلمان من هيبة وجاذبية شخصية وحصافة وكفاية إدارية ، أخفى عن أعينهم ما كان يعوزه من تدبير السياسة وبعد النظر . وإذا نظر إلى شرلمان على ضوء الأحداث التالية ، لم يبد فى صورة أول إمبراطور روماني غربى ينحدر من سلالة أوغسطس وقسطنطين ، وإنما يبدو بوصفه آخر ممثل لتلك السلسلة الطويلة من الأبطال والزعماء الذين قادوا المتبربرين فى هجراتهم

وتجولاتهم والذين يقوم على رأس قائمتهم العاقلة الأريك وأنواف ، فإنه مائلهم جميعاً في احترامه للحضارة اليونانية الرومانية (الجرايكورومانية) ، أو أقل . إنه انخرط إلى حد ما في محرزات تلك الحضارة ؛ ولكن مما له دلالة أنه يشاطر ثيودوريك الأكبر أميته وعدم قدرته على كتابة شيء سوى توقيعه . على أنه يتفق وإياهم ، في الحدود التي تحدده ، وهي أنهم جميعاً غزاة فاتحون عتاة أقوياء من الناحية التنفيذية ، ولـسكنهم يفتخرون إلى النجاح في دعم المكاسب وربط ما فتحوه بعضه ببعض . وقد مد شرمسان حدوده إلى الإلب والدانوب ، وتجاوز سلطانه جبال البرانس ، وامتد إلى المنطقة الواقعة جنوب روما . ومع ذلك فإنه لم يثبت بصورة فعالة أى حد من حدوده باستثناء منطقة سكسونيا فيما يحتمل . ذلك أن إعوازه إلى أسطول وجيش دائم جعل شواحل فرنسا وإيطاليا تحت رحمة المغيرين من أهل الشمال والمسلمين ، كما أن هذا الظرف نفسه أفضى بمضى الزمن إلى استقلال كثير من مناطق حدود الدولة وأطرافها فعلا التي أصبح بعضها نواة لكثير من الدول الأوروبية التي ظهرت فيما بعد مثل النمسا (Austria) وروسيا . ولا شك أن إعواز شرمسان إلى سياسة مدروسة في البحر المتوسط ، تعادل في مستواها ما اشتهرت به بيزنطة من سياسة ناضجة ، هو الذى منعه من جلب قواته جميعاً لمهاجمة بنفنتو والضغط عليها — التي احتفظت باستقلالها طوال حكمه — ولو أنه فعل ذلك لثمت تسوية مسألة جنوب إيطاليا التي أثبتت الأيام للأجيال التالية أنها أعوص مشكلة في شبه الجزيرة الإيطالية . وغير خاف أن الوضع الجديد بما انطوى عليه من الافتقار إلى ما كان لدى الرومان من أساليب إدارية وما اقترن بها من فرق الجيش والنزلاء المستعمرين والجهاز الإدارى البيروقراطى المتشابك والمجرد من كل صفة شخصية ، جعل تمزق الإمبراطورية أمراً لا مفر منه متى زالت يد حاكمها القوية ، وقد تجلت نتائج ذلك واضحة في إيطاليا حيث بدأت النزعات

الإقطاعية تبدو للعيان فعلا بظل الحكم اللومباردى ، إذ ظهرت تلك النتائج في زيادة قوة السلطات المحلية في شئون القضاة وفرض الضرائب على حساب السلطة المركزية . وحتى الأساقفة الذين كانوا يعملون مبعوثين مملوكيين ، أخذوا يدعون أن هذه الحقوق امتيازات وراثية ترتبط بمناصبهم ، على حين أن الكونتات لم يعودوا موظفين من قبل الإمبراطور يمكن عزلهم بإرادته ، بل أصبحوا أتباعاً إقطاعيين ، يحوزون ممتلكاتهم على أنها إقطاعات (Beneficia) ، وليس بوصفها كسباً طارئاً مرتبطاً بالمنصب . وقد أصبح النبلاء الفرنجة والبافارون المستقرون بإيطاليا أقطاباً محليين من أعيان ملاك الأراضي ، وسطح نجم ثلاث عائلات عظيمة عالياً بمناطق فريولى وتوسكاني واسبوليتو^(١) . على أن عوامل تمزيق وانفصال . كانت تعمل عملها في أجزاء أخرى من الإمبراطورية ، فزادت كل من أكتانيا وبافاريا من استقلالها ، كما أن الانقسامات القبلية التي كان يتزعمها بالمانيا الأدواق ، قدر لها أن تكون من أهم العوائق التي اعتاقت نهضة المثل العليا الإمبراطورية التي حدثت بعد ذلك في عهد أوتو .

ولا شك أن الاتجاه الجرماني في فكر شلمان السيامي يتضح تماماً من الترتيبات التي وضعها لوراثته العرش . فالتقسيم الصادر في (٨٠٦) لا يستشف فيه أى أثر لفكرة استمرار الإمبراطورية بعد وفاته — إذ قسمت الدولة بين أبنائه الثلاثة على نحو ما فعله كلوفيس^(٢) وخلفاؤه وقد مات قبله اثنان من

(١) إن هذه المناطق الثلاث يمكن اعتبارها مناطق حدود يهددها على التعاقب الصغالية وقرصنة العرب وغارات بنفنتو . وعندما مات المار جريف (حاكم الثغر) إيرهارد المعروف • بدرع إيطاليا • ، وهو من أصل سواوي خلفه في عرش إيطاليا فريولى ابنه ثم حفيده . وسيطر كونتات لوكا البافاريون على جزير كورسيقة ، وكان لهم سلطان على لوني وبستويا وفولتيرا وفلورنسا ، وقد قسم شلمان اسبوليتو إلى ولايات ، ولكنها استردت استقلالها في زمن أسرة لامبرتيني الفرنجية النبيلة .

(٢) انظر ص ٣٠٧ بعنوان الفرنجة (الفصل الثاني عشر) .

أبنائه ، وهكذا كانت الصدفة وحدها هي العامل الذي جعل جميع فتوح الفرنجة تظل تحت سيد واحد عند وفاة شرلمان في (٨١٤) ، وقد منح الوالد قبل وفاته بسنة واحدة اللقب الإمبراطوري لابنه لويس الملقب بالورع ؛ ولكن كان من أوائل أعمال هذا الأخير إعادة توزيع الإمبراطورية بين أبنائه الثلاثة. أجل إن الابن الأكبر صار فعلا شريكا لأبيه في سلطانه ووريثا له ، وإن أخويه جمعا تابعين يخضعان له . ولكن هذين الأخوين كانا يسيطران بالفعل على ما في مملكتيهما من موارد عسكرية ، ولم يتوانيا في استخدامها ، ومن ثم زخرت المدة الباقية من حكم لويس بما ثار بينهم من منازعات اقترنت بالتمرد ، وبما ترتب على ذلك من إعادة تقسيم الأراضي .

ونعمة مرحلة أخرى في تفكك هذه الإمبراطورية ، آذنت بها معاهدة فردان (٨٤٣) ، وبمقتضاها اتفق أحفاد شرلمان بعد صراع عنيف على إنشاء ثلاث ممالك ، تتألف من ثلاث شرائح مستطيلة من الأرض تمتد من الشمال إلى الجنوب . فالشقة الشرقية تحتوي على جميع ممتلكات الفرنجة الواقعة شرق الراين ، والشقة الوسطى وهي طويلة وضيقة ، كانت تمتد من الأراضي المنخفضة مارا بأوستراسيا وبرجنديا وپروفانس ، حتى شمال إيطاليا ووسطها . أما الشقة الغربية فتألفت من بقية فرنسا فضلا عن منطقة الأطراف الأسبانية . ولسنا في حاجة إلى تأكيده أن هذا التقسيم صناعي محض ، ولم تلبث هذه الحقيقة حتى تجلت حين تمزقت المملكة الوسطى عند وفاة ملكها .

ولم ينته القرن التاسع حتى استحوالت إمبراطورية شرلمان إلى خمس دول منفصلة متعادلة : وهي فرنسا وألمانيا وإيطاليا وبرجنديا العليا وبرجنديا السفلى .

الفصل الخامس عشر

أوروبا في مرحلة انتقال حركات الأقوام

ربما أمكننا الآن عرض صورة للتغيرات التي تمخضت عنها أربعة قرون من الظلام والفوضى . ولو أننا نظرنا إليها من علٍ ، كمن ينظر من طائرة وهمية تحلق في سرعة على مسرحي الزمان والفضاء ، لبدت كتلة الأراضي الأوراسيوية (الأوربية الآسيوية) كأنما تمر في دور عنيف من أدوار الحركات المستمرة التي يقوم بها السكان ، تلك الأدوار التي تكون الطبقة السفلى التي يرتكز عليها تاريخ العالم ^(١) . وقد كانت الحاجات الأولية ، تدفع السكان إلى الانثيال غدوا ورواحا في موجات فجائية للغزو ، أو في انسيابات بطيئة للنوغل ، لا يضبطها ويتحكم فيها شأن مياه الفيضان - سوى قوى لاشعورية وعوائق جغرافية ، أو ما كان للبقاع المختلفة من قدرات متفاوتة على كفالة حياة البشر . وكلما اقترب المنظر ، تكشفنا أمامنا جهود الإنسان في ابتكار الحواجز المصطنعة . ففي الطرف الأقصى من الدنيا ، يقف سور الصين العظيم رمزا لإمبراطورية مستقرة ، وشاهدا على نصر باهر أحرزه الإنسان في صراعه الأبدي الدائر بين أرض السهوب والأرض التي يشقها المحراث . وفي الطرف الأقصى الآخر من الدنيا ، تقوم الحدود الرومانية ، التي تناحها كالجناح حدود الفرس الساسانيين ، وتعارض حركات القبائل الجرمانية المتجهة غربا . وتنسبط بين الطرفين السهولة المترامية بوسط آسيا ، التي هي مجال التكاثر

(١) انظر . أ. و. كرايفسكي Kriegs-und Wanderzuge ص ١-٤٦ (برلين ١٩٣٢)

للشعوب البدوية (المرحلة) التي تنطلق من الصحراء إلى الأراضي الخصبة التي تناخها ، حاملة إليها في العادة الدمار والخراب ، ومزودة لها في بعض الأحوال بالقوة والحيوية الجديدة . وكلما هبت عاصفة على آسيا كان فيها نذير الخطر على جميع الحضارات القديمة . فإذا اخترق المغول والمانشو سور الصين العظيم ، سقطت عن عروشها أسرات الصين العريقة المالكة . وإذا تدفق الهون والآفار عن طريق السهوب الواقعة جنوبى روسيا ، ترتب على ضغطهم من الضربات المتتالية ، ما يدفع أمامهم الجموع الجرمانية ، إلى القضاء نهائياً على ما كان لروما من سلطان في الغرب^(١) ، كما أدى ذلك الضغط نفسه بعد ذلك بقرنين ، إلى القذف بجموع الصقالبة بحكم قوة الطرد المركزى على شعوب وسط القارة . ثم تأتى في عهد قريب من ذلك ، موجة الغزو العربى فتغمر بلاد الشام ومصر وتفيض حتى تغطى شمال إفريقيا وإسبانيا ، وتتقدم فى الحين نفسه شمالاً بشرق إلى ما وراء فارس ، حتى تلتقى بطليعة الجموع التركية ، التي كانت تنظر الإشارة لتقوم بالدور الأخير فى آخر صاعقة هبطت من آسيا على مسرح أوروبا .

التجارة والصناعة

فإذا زدنا بطايرتنا الوهمية دنوًا من الأرض لحظنا أن شبكة الطرق الرومانية لانزال تغطى وجه المناطق الريفية ، ولكنها لم تعد فى عام ٨٠٠ للميلاد تزخر بحركات الموظفين ولا بما كان للتجار من نشاط تجارى بعيد المدى ، ولا تنص بالفنادق ودور البريد المشيدة بالأحجار . وهى الأشياء التي قال عنها

(١) ظلت حدود روما على الراين تصد هجرة الجرمان مدة أربعة قرون ، وبذا أصبحت منطقة ضغط للشعوب المتنقلة غرباً . وقد خفف من شدة هذا الضغط مخيماً جزئياً . مرور كثير من الجرمان بسلام ، إما فرادى وإما فى قبائل ، ودخولهم إلى الإمبراطورية إما بهجرة قبائل جرمانية شرقية كبرى من مناطق البلطيق إلى حوض الدنوب والبحر الأسود . على أن هاته القبائل كانت أول من أحس بضغط الهون الذى دفعهم أمامهم حتى عبروا حدود الدانوب .

سأفح صيني مر في القرن الأول لإنها من المعالم المميزة للإمبراطورية الرومانية^(١). على أن التجارة لم تتوقف بأية حال . إذ من الواضح أن شطراً كبيراً من البنيان الاقتصادي الذي كان موجوداً في العهد الإمبراطورية ، ظل قائماً بمناطق ضخمة من فرنسا وإيطاليا . وحتى المدينة نفسها — كما تدل على ذلك كثير من الأمثلة — ظلت محتفظة بأهميتها القديمة كركز محلي للتجارة . فإن السفن تسير مصعدة في نهر بو والراين ، كما أن المدييات والسكبارى التي وجدت منذ العهد الرومانى بروما وإيطاليا وغالة ظلت تدفع الجزية للفرنجة واللوبارد ، وإن لم يكن من الضروري أن يدل ذلك على شيء يتجاوز التجارة المحلية . وعلى الرغم من أن في الإمكان إيراد أمثلة لا حصر لها عن النشاط التجارى ، فالواقع أن هناك بونا شاسعا في الأحوال الاقتصادية بين العصور القديمة ومستهل العصور الوسطى ، ولذا فإن أبحاث الأستاذ دوبش (Dopsch) وغيره من العلماء لم تزد على أن حددت الفكرة ببعض الأوصاف دون أن تقضى عليها . إذ إن الذى كان يحدث في ظل السلم الرومانى في أثناء القرنين الميلاديين الأول والثانى أن جميع أنواع الإنتاج الكبير الخاص بالأقاليم كانت تتبادل بوفرة تامة بواسطة التجارة المحمولة براً وبحراً من بريطانيا إلى سوريا ، وهى التجارة التى كانت تزود السكان أو الجيوش بضروريات الحياة العادية مثل القمح والحبور والزيت والمعادن والخشب والملابس والفخار . فالزراع السرى من أبناء بوسكورىالى الذى كان يعيش في تلك الأيام على التلال المطلة على خليج نابولى بما اشتهر به من التخصص في إنتاج النبيذ على نطاق واسع من أجل التصدير ، تخصصاً أدى به إلى إهمال كل ما عدا النبيذ من لوازم البيت ، وبما كان لديه من صنوف الجصيات (الفريسكو) والبرونز والأثاث المطعم الحديث الطراز وصحف الفضة الفاخرة ؛ بل حتى ما لديه من القراميد والفخار وجواربه وما يستخدمه

(١) انظر ف . ميرث China of the Roman Orient ص ٣٨ (ميونخ ١٨٨٥)

من مناجل تقليم الشجر وما يرتديه من الثياب ويتناولوه من صنوف الأطعمة ، وكل هذه أشياء مجلوبة من المدينة أو من وراء البحار — إن ذلك المزارع السرى إنما هو عضو رئيسى فى نظام تجارى يشمل العالم كله ويعتمد بعضه على بعض : — فهو وحدة طرازية تمثل الحضارة الرومانية^(١) . ولا مرأى أن الحضارة كانت ترق وتضمحل خارج عالم البحر المتوسط حتى تتحول إلى مجرد طلاء سطحي ، ومع ذلك فإن الفخار الذى انتشر بكل مكان والأوانى المعدنية المصنوعة بالقارة والمسكتشفة بمواقع رومانية بريطانية لشهد بأهميتها فى الحياة اليومية حتى فى الجزائر البريطانية نفسها .

على أن الموقف فى حوالى ٨٠٠ الميلاد يختلف عن ذلك اختلافاً بليغاً . فلو أغلفنا مالا بد منه من اختلافات ، لأمكننا أن نطق بحق على النظام السائد بأوروبا الغربية فى ذلك الزمن اسم نظام الاقتصاد المغلق — أو الاكتفاء الذاتى (*Geschlossene Hauswirtschaft*) وهو نظام يتكفل فيه بحاجات الحياة عمل مجتمعات ذات اكتفاء ذاتى ، وليس لتبادل السلع فيه إلا مركز ثانوى فى الإنتاج^(٢) . أما التجارة التى تنقل إلى مسافات بعيدة فهى على الجملة مقصورة على سلع الترف اللازمة للبلاط والكنيسة — كالتوابل والجواهر والعاج والبخور والمصنوعات الفنية . بل إن فرنسا نفسها ، وهى القطر الذى تهيأت فيه أطيب الظروف الموائمة لإعادة بناء المجتمع ، لم يكن ما فيها من مزارع ضخمة جيدة التنظيم وتابعة للبيت المالك ولاضياغ الأديرة القوية (مثل دير سان جرمان دى برى) مما يمكن تسميته باسم المصانع بأية حل ، كما توهم البعض أحياناً ،

(١) انظر تينى فرانك فى (*An Economic Hist. of Rome*) (ط ٢ لندن

١٩٢٧) ف ١٤ وخاصة ص ٢٦٦ .

(٢) انظر ل. كولينبرى فى (*Allgemeine Wirtschaftsgeschichte*) ص ٢٩٩، ٣

(برلين ١٩٢٨ — ١٩٢٩) .

ولا هي كانت مصانع تفتج للأسواق الخارجية بالجملة كميات ضخمة من السلع الزراعية والصناعية ، وإنما هي مجرد مزارع بالغة الضخامة ، تزود البيت الملكي والدار الكنسية بما تحتاج إليه من الضروريات ، وذلك مثلما كانت الأوقاف الإيطالية تقدم تلك الضروريات لكنيسة روما في عهد جريجوري الكبير^(١) . وغنى عن البيان أن هذا النظام المعروف باسم « الآفاق المحلية » إنما يرجع بصورة مباشرة إلى انهيار الحكومة الرومانية والمواصلات والتجارة . ويبدو أنه لا يصح تحديد نقطة التحول على أنها القرن الخامس ، بل بالأحرى على أنها سنوات الفوضى والغزو الخمسين فيما بين (٢٣٥ - ٢٨٥) ، وهي السنوات التي دمرت بالفعل ما كان للإمبراطورية الرومانية من لسيج اقتصادي محكم . وقد أعاد دقلديانوس وقسطنطين للنظام السياسي سيرته الأولى . إذ ثبتنا العملة وحددا مستوى أسعار السلع ، وأحكاما ربط الصناعة بمجلة الجيش والإدارة المدنية — ولكنهما لم يتمكنوا من تعويض ما كان للنشاط التجاري من خيوط دقيقة ، كما أن مهلة القرنين الهادئين التي أتاحها جهودهما لبلاد الغرب لم تشهد أى انتعاش في التجارة بين الأقاليم ، بل شهدت ارتداداً إلى الوضع البدائي القائم على الاكتفاء الذاتي المنعزل . وتبجى ذلك بوجه خاص في بلاد مثل بريطانيا وشمال فرنسا اللتين كانت الأنظمة السكتية قائمة بهما ، وهي أنظمة تناقض ما هو معروف عن البحر المتوسط من مراكز تركز بها المدن^(٢) .

ونتيجة لهذا فإن التجارة والصناعة في الغرب ، لم يتبد فيها انقطاع ظاهر

(١) انظر ما قبله ص ١٣٢ من هذا الكتاب . وانظر كذلك Greg. Epp. بموضع متفرقة وأيضاً إسبيرنج في : (The Patrimony of the Roman Church in the time of Gregory the Great) .

(٢) انظر ب فينو جرادوف في (The Growth of the Manor) ص ٦٦ (لندن ١٩٠٥) .

عند الانتقال من العصر المتأخر للإمبراطورية الرومانية إلى أوائل العصور الوسطى. وقد قضى قراصنة الوندال على الملاحة في البحر المتوسط أو على الأقل على معظم ما تبقى منها حتى القرن الخامس، ولم يكن إحياء النشاط التجارى زمن السكارو لنجيين أمراً ممكناً بعد ظهور البحرية الإسلامية^(١). وذلك على حين أن الطريق التجارى البرى إلى الشرق قد أوصده كذلك حشود الغزاة الزاحفين صوب الغرب، ثم احتلال الهون والآفار لأرض المجر، فضلاً عن هجرة الصقالبة. ومع ذلك فمن المحقق أن أنواعاً معينة من المنتجات احتفظت بأسواقها أو حصلت على أسواق جديدة، ومنها أسلحة طليطلة وصناعات قرطبة الجلدية ومنسوجات فريزيا. ومن المدن الشمالية التى تشير إليها السجلات بوصفها مراكز تجارية: إيتابل وأوترخت ولندن وسيلسفيج وبركابا بالسويد. وعقدت الأسواق السنوية — كالتى قامت فى تروى (Troy) وسان دنيه — فاجتذبت إليها التجار الجوالين من كل البلاد، وأصدر المفوك التشريعات المنظمة للتجارة، وصار بالمدن الكبيرة عادة أحياء خاصة بالتجار. وهناك أسواق الراين العظيمة القائمة على التخوم منذ العهد الرومانى^(٢)، وهى التى كان يطاولها صف المحطات التجارية التى أذن باقامتها شرلمان على الحدود الصقلبية. على أن بعض الطرق بالغة الطول، كالطريق المائى الذى يربط بين بحر البلطيق والبحر الأسود، تبدى فيها دلائل تدل على تزايد النشاط التجارى إبان القرن الثامن، على حين أن المدن الفرنجية لم تكن تبجل بأية حال وجوه من يترددون عليها من العرب واليهود والسوريين، بما يحملون

(١) انقذ ن. م. باينز فى (J. of Roman Studies) ١٩ ع (١٩٢٩) ص ٢٣٠ مع رأى بيرن الفائل بأن التجارة المنظمة الممتدة من أقصى البحر المتوسط إلى أقصىها ظلت موجودة حتى القرن الثامن. وعن مراجع أخرى لهذه المسألة انظر كتاب (Byzantium) ج ٧ (١٩٣٢) ص ٤٩٥ — ٥٠٩، وانظر أيضاً ل. بانزك فى: (Die frankische Kultur und der Islam) (فيينا ١٩٣٢).
(٢) انظر (Tac. Germ. C. 41 & Hist. iv. 64).

إليها من النفائس والتحف الشرقية . ومع ذلك ، فإن من الحقائق الثابتة أن الفترة المبكرة من العصور الوسطى لم تشهد من النشاط التجارى المنتظم فى الغرب ما يمكن أن يقال فيه إنه لا غنى عنه للإبقاء على المجتمع — وكانت الأحوال فى الإمبراطورية البيزنطية مغايرة لذلك تماماً ، وذلك لإن البنيان الاقتصادى الرومانى ظل هنا سليماً محافظاً على وحدته وتماسكه بكل ما حوى من نقد وائتمان (Credit) وأسواق وتشريعات تجارية ، على حين أن العلاقات التجارية البحرية مع الشرق الأقصى التى قطعت منذ القرن الثانى قد عادت إلى مجاريها تقريباً .

الزراعة فى الغرب

على أن للزراعة صورة مخالفة لذلك قليلاً وإن لم يترتب على غزوات البرابرة أى انقطاع حقيقى فى هذا المجال أيضاً ؛ ذلك بأن مطالع العصور الوسطى فى غرب أوروبا إنما هى استمرار للتقدم المضطرب الذى بدأ فى عهد قيصر ، والذى انتشرت فيه — متفرعة من دائرة الإمبراطورية — الطرق البارعة فى فلاحه الأرض منتقلة إلى خارج الإمبراطورية فإلى جوف القارة الأوروبية . ومن إقليم الراين وشمال شرقى فرنسا اجتازت آلات الزراعة وأساليبها الفنية الرومانية مناطق الحدود إلى ألمانيا^(١) ، حتى إذا استقرت قبائل البرابرة ، زالت من الوجود حياة الرعى والقتص ، وحلت محلها المهن والأعمال الزراعية الثابتة ، التى أخذت تنتشر رويداً رويداً فوق شطر متزايد الرقعة من أوروبا . ومن وراء هذه المنطقة كان هناك عالم يستره الظلام حافل بالمستنقعات والغابات والسهوب وزاخر بالأقوام البدوية والشعوب البدائية التى تعيش على التقاط

(١) وبفضل الرومان أيضاً عرف الألمان البسائين والحدائق ، كما يتجلى ذلك من أسماء الفواكه والأزهار والخضر المشتقة من اللاتينية . وواصلت الأديرة العظيمة بث هذه المعرفة .

انتمار . لقد كانت حدود هذا العالم تتراجع على الدوام ، غير أن مناطق كبيرة منها بقيت على حالها من التأخر ، منها أصقاع مترامية من الغابات العذراء بفرنسا وألمانيا ، ومنها شعوب رعاة تطوف في أرجاء مرتفعات البلقان . على أن هناك تعديلات وتغييرات أخرى دخلت إلى خريطة أوروبا الزراعية بتأثير خصائص التربة والمناخ وتقاليد القبائل والعرف المحلي . وبذا يمكن التمييز بسهولة بين طرائق الألمان الشماليين والألمان الجنوبيين ، على حين أنه حدث في إنجلترا ، أن سلاح المحراث السكسونى الثقيل ، الذى كان يقلب التربة الطينية العميقة فى الحقول المستطيلة الضيقة غير المسورة التى تحيط بمسوطات الغزاة ، قد قضى تماماً على الزراعة الرومانية السكتية بكل ما حوت من حقول صغيرة مربعة تقع فى تربة طباشيرية أو رملية حصائية . وبفضل هذا المحراث نفسه ، ابتدأ أول التحولات الثلاثة التى مرت بريف بلادنا^(١) .

ولكن خط الانفصال الرئيسى ببلاد الغرب لا يزال إلى اليوم قائماً واضحاً بين الزراعة الاستغداية الشديدة الاستغلال للرقاع الضيقة بإقليم البحر المتوسط التى تتمثل فيما يملكه الأفراد من قطع يزرعونها قحاً وكروماً وزيتوناً ، والتى اشتهرت بالخطوط القصيرة الضحلة والمحارث الخفيفة وبين الزراعة المترامية الرقعة بالمناطق الشمالية ، حيث يتحكم المناخ القاسى وقلة عدد السكان والمناطق الضخمة من الغابات أو المستنقعات ، وتنتج نظماً للزراعة يلعب فيها دوراً كبيراً بل دوراً سائداً متسلطاً ، ويكون عمل الإنسان نادراً قليل المهارة ، ويشق المحراث الثقيل بثيرانه الثمانية شتوقاً مديدة فى الحقول المستطيلة الشقة .

(١) لاشك أن السياجات التى أقبمت أثناء الفترة الأخيرة فى المصور الوسطى واتى بامتدورتها فى أثناء القرن الثامن عشر ، هى السبب المباشر فى التحول الثانى ، كما تمتد الثورة الصناعية التى أتت فى أيامنا هذه استخدام الوسائل الميكانيكية فى الزراعة مستوحاة عن التحول الثالث .

والواقع أنه ليست لهذه الأحوال المتناقضة من أهمية إلا من الناحية
السيكولوجية فقط . فإن نظام الزراعة المحدد المعالم في البحر المتوسط ، الذي عمّ
إيطاليا وجنوب غالة وأسبانيا وشمال إفريقيا زمن حكم الرومان ، بما اتسم به
من الفردية والاكتفاء الذاتي والملكية المطلقة للأرض ، كان خير معوان
لأهداف نظام الضرائب وتحديد الوضع الاجتماعي للأفراد ، على الرغم من أن
عبارات القانون الروماني الطنانة ، قد أخفت الحوافي الخشنة لكثير من
صنوف الشنوذ . ومع ذلك ، فإن الأحوال الطبيعية في الشمال تمخضت
عن عقلية تعاونية ، وعن عالم فكري ، حقوق الملكية فيه غامضة ومعرضة
لصيافة مبهة عسيرة الفهم . وكان للدورة الزراعية واختلاط الأنصبة في الحقول
والشيوخ في استخدام الغابات والمياه والمشاركة في منتجات الرعي ، وعادات
الحياة التي تولدت من أمثال هذه التقاليد ، — كل ذلك كان له الفضل في خلق
اقتصاد ريفي أكثر مرونة وعدم انتظام من اقتصاد منطقة البحر المتوسط .
وقد رُسخت عناصره المميزة إبان العهود السكثية لغالة وبريطانيا واستمرت
إلى ما بعد الفتح الروماني (على الرغم من أن نظام الضياع (القبيلات) المركزية
سار أشواطاً في سبيل التقدم بكل من القطرين ، إذ وجد فيها تربة صالحة
لنموه) . وتتضح هذه العناصر في كل مرحلة من مراحل الزراعة الجرمانية
ابتداءً من الاحتلال المؤقت في أثناء عهد الهجرات حتى التطورات السكاملة
النمو بإنجلترا في عهد الأنجلوسكسون . وقد تركت تلك العناصر أثرها في حياة
القرية وفي نظم الحكم الذاتي المحلية الشائعة في العصور الوسطى ، وهي تشكل
عنصراً جوهرياً في نمو الضيعة (Manor) (أي دائرة حكم النبيل) ، إذ إنها
عطلت بل منعت تماماً في كثير من الأحيان ذلك التماثل التام الذي ربما فرضته
— لولاها — المؤثرات الإقطاعية .

الطبقات الاجتماعية

وربما كان هناك شيء من زائف التبسيط في مد ظلال هذا التباين على أوائل العصور الوسطى وعرض المسألة على اعتبار أنها اختفاء مال للألمان من حرية شخصية ونظم ديموقراطية في غمرة مال الرومان من المفاهيم الفقهية التي أقامتها قرون طويلة تعرضت فيها الطبقات الدنيا لظلم منظم، والتي غذتها الفكرة السائدة في البحر المتوسط عن تفاهة حياة الإنسان وزهادة العمل البشرى . أجل إن هذه الفترة تتميز بما سادها بصفة عامة من : « إهدار لكرامة طبقة العامة ونحطيم نكباتها »^(١) . فإن الفلاح الصغير (Bonde) لم يظل مستقلاً أى قادراً على الاحتفاظ بحقوقه إلا في أقاصى الشمال في بلاد النرويج والسويد . ولكنه في الدانيمرك وإنجلترا لا يصبح فلاحاً (Husbandman) أجيراً فحسب ، بل عبداً رقيقاً (Bondman) . وهنا تتحول اللفظة الفرنجية فيلانوس (Villanus) أى العامل بالضيعة إلى لفظة (Villein) السائدة في العصور الوسطى ، والتي يقصد بها « رجل وضع الأصل رقيق الحال » . وتختفى الطبقات الوسطى من المجتمع في مملكتى كنت ووسكس ، مخلفة وراءها ثغرة هائلة بين طبقتى النبلاء والدماء . وحدثت هذه العملية أيضاً بمناطق أخرى . ومع ذلك فإن التقاء الاتجاهات عند الجانبين الرومانى والجرمانى ، مهد الطريق لهذا « التحول الأرستقراطى للجماعة البشرية » . وقد أفصى سقوط الحكم الرومانى إلى انتقال السلطة الحقيقية — على الرغم من أنها لم تكن بأمرها دستورية — إلى أيدي الأعيان المحليين الذين أصبحوا سادة صغاراً على فلاحهم يتولون النظر في شئون مستأجرهم القضائية ويقررون عليهم الضرائب .

(١) انظر (Cambridge Medieval History) مج ٢ ص ٦٥٢ (كمبريدج ١٩١٣)

ومع ذلك فإن ما حل بالإمبراطورية من هبوط اقتصادى ، وإن أدى إلى تحول صفار الملاك إلى أتباع لمالك الأرض ، وقيد حرية حركتهم ، قد جعلهم شيئاً ضرورياً لا يستغنى عنه نظراً لندرة اليد العاملة ، وبذلك أتاح لهم ميزة القدرة على المساومة . وفى الحين نفسه أدى تحسن الوضع الاجتماعى للارقيق ، الذى يرجع إلى التشريعات ذات النزعة الإنسانية أولاً ، ثم ذات الصبغة المسيحية فيما بعد ، — إلى التقريب بين وضع الفلاح الصغير (Colonus) ومكانته ، وبذلك أسهم فى تكوين طبقة كبيرة شبه حرة ، هى طبقة العمال (Laborantes) التى ألفت مع رجال الكنيسة (Orantes) والنبلاء (Bellantes) العناصر التى يتركب منها المجتمع فى غرب أوروبا^(١) .

وإذا حولنا أبصارنا إلى الجانب التوتونى من الصورة لم نجد به يمثل بأية حال المثل الأعلى للحرية والديمقراطية البدائية ، كما تصور ذلك وأعلنه أحياناً بعض المتحمسة من مؤرخى القرن التاسع . ويشير الأستاذ فينوجرادوف أنه : « لاشك أن الرجل القبلى المسلح الحر كان يستمتع بقسط لا بأس به من الحقوق ، وإن لم تكن هناك أدنى علاقة بين الاعتراف بوضعه الاجتماعى وبين النظريات الديمقراطية العصرية » . وقد كان المحاربون فى أى مجتمع بدائى كبلاد الإغريق أو روما فى عهودها الأولى ذخراً ثميناً تعزز به الدولة ، ومن ثم لم يكن بد من استرضائهم ، حتى لقد كان لهم فى بعض الأحيان نصيب فى تدبير السياسة . ومع ذلك لم يكن بين الجرمان حتى فى زمن تا كيتوس نفسه مساواة فى المسكنة ، وعندما استقرت نهائياً القبائل المهاجرة ، زاد الإقطاع ومنح الأراضى المقطعين فى مدى التفاوت بين الطبقات . وكما ازدادت سلطة الملك ، حل مكان طبقة النبلاء الوراثية طبقة نبيلة أخرى قامت على أساس ما تؤديه من الخدمات . على أن هذه الطبقة الجديدة من النبلاء لم تسكن تلبث حتى تصبح وراثية ، وإنما لنجد منذ

(١) انظر تذييل ب .

أبكر أيام الاستقرار وإلى جوار القرى الحرة ، أن رقعة أملاك النبلاء ورؤساء الأديرة يطردهم منها . فإذا حلت الفوضى التي وقعت في عصر الميروفنجيين أورت أوروبا من النتائج ما أورثه لها انهيار الإمبراطورية الرومانية ، وعندئذ أنزل الرجال الأحرار أنفسهم منزلة الأتباع ليحصلوا على حماية أحد الملوك الأقوياء ، على حين أن السلطة المركزية ظلت على الدوام تجري المساومات والمقايضات على سلطاتها أو التخلي عنها . ومع ذلك فإن العملية التي يعتبر النظام الإقطاعي ذروتها ، سارت ببطء . ففي أيام شارلمان كان اتساع ما في حوزة صغار الملوك والمجتمعات الحرة من الأراضي يفوق في مساحته مساحة الضياع الكبيرة ، بل الواقع أن مناطق الأملاك الكبيرة يتجلى فيها بوضوح وجود سلطة الضياع الريفية (Menorial) جنباً إلى جنب مع الوحدات والنظم الشعبية المعروفة منذ القدم .

ومن الطبيعي أنه لا يجوز أن نتطلع في قرون الفوضى والاضطراب إلى النظريات السياسية المكتملة النطور التي تتولد دائماً من الظروف المعاصرة، وذلك لأن عصور الفوضى تكون فيها المحافظة الفعلية على الأمر الواقع (De facto) وعلى السلطة أهم كثيراً مما للشخص الذي يمارسها من دعاوى شرعية (De jure) ، ومع ذلك ففي الإمكان أن نلاحظ في أفكار الناس عن الدولة تغيرين أساسيين، تولداً عن سقوط الدولة الرومانية في أوروبا الغربية ، وقدر لها أن يؤثر في العصر الوسيط بأكمله . وأول هذين التغيرين هو العلاقة الجديدة المتغيرة بين السلطتين العلمانية والإكليريكية (الكنسية)، تلك العلاقة التي لم يكتمل وضوحها إلا بعد انهيار الإمبراطورية الكارولنجية . أما التغير الثاني فهو انتشار العادات الفكرية المستمدة من الظروف القبلية^(١) لدى البرابرة . فإن السكان المختلطين أصولاً ، المتفاوتين في درجة الثقافة، النازلين بالملك الرومانية الجرمانية أثاروا مشاكل عسيرة في الإدارة ، لم ينهياً حلها إلا باتخاذ المبدأ العجيب

(١) انظر س. م. في (The Growth of Political Thought in Europe)

ص ١٧١ ع ٥ . (لندن ١٩٣٢) .

المعروف « بشخصية القانون »^(١) . إذ كان كل إنسان يعيش وفق قانون قومه ، سواء كان رومانيا أو برجنديا أو من القوط الغربيين أو من البافاريين أو من الفرنجة السالين أو الريبورين . يقول أجوارد الليوني مدافعاً عن ضرورة وحدة النظام القانوني في إمبراطورية الفرنجة : « لو أن خمسة رجال يجلسون أو يمشون معاً ، لما كان لأحدهم من القانون ما لزميله ورفيقه^(٢) » . ولا مرأ أن عملية المزج بين هذه النظم تعد مرآة لما نالته أوروبا الغربية من ازدياد في التطور الثقافي . فإن الشخصية كبداً تخلى مكانها فعلاً للإقليمية ، ولكن ذلك لا يتم إلا بعد أن تؤدي الغرض منها في ضمان بقاء نواحي العرف القانونية المتضاربة في أثناء مرحلة انتقال حرجة . والواقع أن الأمر ينتهي بأن يصير « العرف » هو القانون النهائي ، وبهذا الوضع الجديد يتضح لنا انتصار الفكرة الجرمانية القديمة عن القانون القبلي ، الذي اكتسب طابعه منذ الأزمنة السحيقة والتزم به الملك والرعية جميعاً^(٣) . وما يرتبط ارتباطاً وثيقاً بفكرة سيادة القانون هذه ، فكرة الملكية « التي تقوم أساساً على خدمة الأمة »^(٤) . وهذا المبدأ الأول مبدأ السيادة المستولة ، الذي يتعارض ويتنازع على نوع الحكم في أوروبا مستقبلاً مع نظيره الأسوي ، وهو المبدأ الثاني الذي يجعل الملك يحكم بمقتضى الحق الإلهي ، وبوصفه نائباً عن الله في الأرض من الناحية الروحية الكهنوتية ، هذا المبدأ الأول إنما هو بالضرورة مبدأ جرمانى ، على الرغم من أنه ليس جديداً على الغرب بحال . وذلك لأنه متأصل أيضاً في روما الجمهورية ذاتها^(٥) ، التي كانت

(١) انظر ما قبله ص ١١٦ بعنوان الممالك الرومانية الجرمانية .

(٢) M. G. H. Legg. iii, 504.

(٣) Tac. Germ. c. 7. Nec regibus infinita aut Libera potestas .

(٤) ميكيلون في الموضوع السابق ص ١٧٥ .

(٥) إن إيزيدور الأشبلى الذي عاش في القرن السابع يلحظ التريمية الرومانية القديمة للأطفال ونصها (Rex eris si recte, facies, sinon facies, noneris) وعن صورة قديمة أكثر لهذه التريمية انظر Hor. Ep. i. i, 59 . Atpueri Ludntes « rexeris » aiunt ' Sirecte facies ' .

تفوض السلطة العليا إلى موظين منتخبين ، وبقي هذا النظام معمولاً به حتى
آماد طويلة من عهد الإمبراطورية في صورة قانون السيادة (Lex de imperio)
ومراسم هتاف الجيش والشعب اعترافاً بشرعية الإمبراطور الجديد .
ولو أُرجمنا البصر إلى العصور البيزنطية المتأخرة ، يوم بدا أن التصورات
والأفكار الهلينية والبرانية عن الملكية قد أحرزت انتصارها النهائي ،
لوجدنا الأفكار الرومانية لا تبرح متشبثة بمكانها في الألقاب الإمبراطورية
وما ارتبط بالحاكم من واجبات وفضائل تقليدية . فأما في الغرب ، فإن آباء
الكنيسة كانوا متفرقي الكلمة بين ميلهم إلى نظام الحكم الثيوقراطي
(الديني) وفق ما ورد بالعهد القديم ، وبين فكرة شيشرون عن الدولة^(١) ،
وبذا أصبح من المحتم الاعتراف بالعامل الجرمانى لاستمرار اتحاد السلطة
والمسئولية ، الذى مهد السبيل لما أعقب ذلك في بلاد الغرب من تطورات
دستورية .

الحكومة الثيوقراطية

ولعل ما هو أهم من ذلك ، بالنظر إلى التغيرات الهائلة التى أدخلها
قسطنطين ، يوم طابق بين مصالح المسيحية والإمبراطورية ووحدهما ، أنه
جعل الكنيسة شريكاً له فى الحكم ، وزاد فى قوة المسحة الدينية للسلطة
الحكومية . فإن الكنيسة أصبحت منذ تلك اللحظة بفضل ما خوله لها من
ولاية وسلطة ، جهازاً من أجهزة الإدارة ، كما أن الفجوات والفراغ الذى تخلف
عن الاختفاء التدريجى لسلطة الإمبراطور فى إيطاليا ، كان يسد ثغراتها على الدوام
نمو النظام البابوى المطرد . ولم يفت ملوك البرابرة على الرغم من موقفهم

(١) انظر ا. ج. ر. و. كارليل فى (History of Medieval Political

Theory in the West) مج ١ ف ١٨ (لندن ١٩٠٣) .

المستقل أو الخافل بالتهديد نحو البابوية ، أن يستفيدوا من الكنيسة في خدمة أغراضهم القومية ، وذلك لأن رجالها كانوا المرجع الوحيد الذى يجدون لديه من المعرفة بطرائق الرومان ونظمهم القدر الكافى لمعالجة المشاكل المعقدة فى مجتمع متحضر. على أن نقطة التحول فى هذه العملية لم تتم إلا بذلك التغيير العظيم فى الخطط السياسية الذى يسميه المؤرخون باسم «تغيير القلب» والذى استحدثه بالنسبة « للبرابرة » جريجورى الكبير فى السياسة البابوية . وربما صح عند كل من ليو الأول وأوغسطين وچيروم أن تكون رسالة الكنيسة عالمية من الناحية النظرية ، غير أنها كانت فى الواقع محددة بجدول الإمبراطورية الرومانية^(١) . وقد كان الغزاة المغيرون يعتبرون حتى فى نظر سالفين نفسه الذى اشتهر بالإشادة بما اتصف به الألمان من فضائل ساذجة ، — سوط عذاب من الله ، كما أن ما يرتدونه من ثياب وما ينبعث من أجسادهم من روائح كان كفيلا بأن يجعلهم خارج نطاق المجتمع الإنسانى المتحضر . وقد وضع جريجورى حداً لذلك كله بما قام به من نشاط تبشيرى وديبلوماسى فى أوروبا الغربية ، فهدد بذلك السبيل لإمكانات جديدة لم تدر بأحلام الناس ، وكلما زاد النفوذ البابوى فى الممالك الجديدة ، ترتب عليه بالتبعية تسويق الانفصال عن بيزنطة عقلياً ، وهى المركز الإمبراطورى للعالم . فقد هيمنت فى أسبانيا المجامع الأسقفية على مملكة القوط الغربيين إبان السنوات الأخيرة من وجودها . فأما فى إنجلترا فإن الحكام الإنجليز السكسونيين اعتمدوا فى حكمهم على مشورة مستشاريهم الرومانيين وما يبدلونه لهم من معاونو فى السياسة والتشريع . كما أنه حدث فى فرنسا أن رجال الكنيسة لم يلبثوا أن دخلوا فى خدمة الفرنجة — وبفضل تعاونهم تدمر كل

(١) انظر ل. كاسبارى (Geschichte des Papsttums) مج ١ ص ٥٥٨

(توبنجن ١٩٣٠) .

ما تم من الفتوح من عهد كلوفيس إلى عهد شارل مارتل — وأخذ شرلمان نفسه . واصله التقاليد الميروفنجية ، فاحتفظ للكنيسة بمركزها بوصفها أداة هامة جوهرية للحكم ، وإن كانت خاضعة لسلطان الملك في كل الأمور . ولم يكن بد من التخلص من مساوئ الكنيسة ، حتى تستطيع القيام بوظيفتها الأساسية في فرض الصبغة المسيحية على تفكير الرعايا الفرنجة وطبائعهم . ومن ثم وضعت بأيدي رجال الكنيسة شئون التعليم والإدارة بل القمع (كما حدث في سكسونيا) . ولا مرأ أن الطابع الديني (الشيوقراطي) في نظام شرلمان بلغ من القوة والبروز ما بلغه في عهد جستنيان وخلفائه . وكان أباطرة القرن التاسع بشرق أوروبا وغربها سواء ، يحكمون رعاياهم باعتبارهم مفوضين من قبل الله ، وتمسك الرجل العادي بقواعد الديانة الرسمية وأحكامها ، تمسكا لا بد أنه ينير دهشة أي مواطن روماني ممن عاشوا في العصر السابق لقسطنطين .

التغير الثقافي

ربما جاز وصف طابع التحول الثقافي الذي تولد في تلك القرون عن انهيار الحكم الروماني في الغرب ، بأنه مجرد « تفتت » وتحلل للقشرة الخارجية للحضارة . وعلى الرغم من أن أجزاء بعضها من تلك القشرة ظلت حية وتماسكة في بعض الأماكن أو تكاد ، فإنها لم تعد بأية حال من الأجزاء الأساسية التي يتألف منها الإطار العام . إذ برزت عند ذاك إلى السطح للمرة الثانية تقاليد إقليمية أقدم عهدا طمسها لعدة قرون تلك الخطط النظامية المرسخة الأصول التي ابتدعها الجهاز الإمبراطوري الروماني وغمر بها تلك التقاليد ولم تلبث أن تجلت نتائج خائر جديدة ثورية كانت تعمل في الخفاء مدة طويلة .

فن الناحية الاقتصادية ، انحلت روابط التجارة العالمية ، وحل محلها

نظام الاختفاء الذاتى المحلى . ومن الناحية السياسية ، تمزقت الأقاليم الغربية ، وتحولت إلى ممالك جرمانية رومانية . واتحدت تلك الممالك أمداً قصيراً من الزمان تحت تاج شermann ، ثم عادت فتمزقت عدداً من الدويلات المتعادية . وفى مجال التعليم ترتب على اختفاء الإدارة الرومانية ، أن زال الباعث على تعلم البيان . واختفت من الوجود المدارس والجامعات باختفاء ما كان يساندها من نظام سيامى واقتصادى ، على حين أن الطبقات الناعمة بالمتعة والفراغ التى تبادلت من الرسائل الرشيقة الحافلة بالتهليلات والإشارات ما حفظ للأدب مكانته الاجتماعية ، لم يعد لها وجود باعتبارها طبقة المفكرين الأوربيين . ولاشك أن عدداً كبيراً منهم هلك فى أثناء الغزوات أو انحدر إلى مرتبة الفلاحين . كما هاجر إلى بيزنطة عدد كبير من الأسرى النبيلة . وانزلت عائلات أخرى منهم فى دورهم الريفية انيسة ، فشغلوا أنفسهم بالقنص والطراد أو انضموا إلى حرفة الجندية ، وهى الحرفة الوحيدة المجزية فى مثل ذلك العصر . وكانت الأديرة تفتح أبوابها أمام قلة من هذه العائلات اتخذتها ملاذاً ، على أن حياة الأديرة وخدمة الكنيسة لم تكن لتبهى الفرص لتلقى التعليم العلمانى .

ومن الناحية الفنية ينحط الطراز الرسمى للإمبراطورية الذى ظهر فى أسوأ صوره فى أنواع « الإنتاج الصناعى الكبير » الذى كان يصدر إلى الأقاليم النائية (كأوانى ساموس الفخارية وما أشبهها) بتداعى الأسباب التى دعت إلى إنتاجه وتوزيعه ، كما أن التقاليد المحلية غير الرومانية استمر تأثيرها فى بعض المناطق — كالتماذج السكلتية المرنة والجواهر التيوتونية الضخمة ، والتصاميم الخيالية العجيبة التى ابتدعتها يد الصانع الأسكنديناوى فى الخشب والمعادن . وفى روما ذاتها يتجلى الانتقال من العصور القديمة إلى العصور الوسطى بمقارنة النقوش البارزة لمهد تراچان (حوالى ١٠١ م) التى كانت تؤلف فى الماضى جزءاً من منصة الخطيب فى الفوروم (السوق) بما يماثلها

في الموضوع من نقوش بارزة رسمت على قوس قسطنطين (حوالي ٣١٥ م) وفيها تتجلى بوضوح^(١) الخصائص الطرازية البيزنطية . والنقش الأول يصور الإمبراطور تراجان وحاشيته بأقصى غاية المهارة في التمثيل كالمعالجة الدقيقة للثياب ، والبراعة في تأخير المستويات المتتالية ، وهي الأمور التي ترتبط بالطراز اليوناني الروماني . وفي النقش الثاني ، يتصدر قسطنطين للمشهد ممثلاً في صورة جامدة في قمة سلم الوظائف ، ويملأ صفوفاً ضئيلة مصفرة ومكتلة من رجال السناتو والرعايا . ولا شك أن التباين بين الحالين بالغ الوضوح . إذ تتجلى خشونة النهج الفني وغلظه ، كما يتجلى التركيب الشكلي المبالغ في «سيمتريته» فضلاً عن الافتقار إلى الحاسة التشكيلية والميل إلى سوء معالجة الأشكال باستخدام «التخطيط الكروكي بالأزميل» ، اعتماداً على قيام اللون بملء التفاصيل ، وهو تحول ظاهر من طرائق النحات والنحت إلى طرائق المصور والتصوير . على أن من الخطأ اعتبار هذا الوضع «تداعياً»^(٢) ، أو تطوراً أصيلاً يقوم على ما للتطور من خطوط فنية بحثة ، ارتبطت بمسائل فنية لا بد من حلها . أما الانحطاط الحقيقي في الفن القديم فيظهر في تلك التماثيل التي تماثل في واقعيتها الصور الفوتوغرافية والتي تمثل صيادي الأسماك المصابين بالروماتيزم والمعجزات الناحلات والملاكين الوحشين — التي ترضى مطالب الجمال الروماني في القرن الثالث^(٣) . ومن المؤكد أن في إمكاننا أن نستنتج وجود الانحطاط في كل من المهارة والدق العام ونتعرف عليه من نقوش قسطنطين البارزة ، ولكن التغير يكن فيها هو أعمق من هذا . ذلك بأنه تغير الروح والنظرة ،

(١) انظر هـ . لايتزمان في «Das Problem der Satantike» Sitz. d. Preuss. Akad. d. Wiss.

(٢) انظر ل . فون . سيل في (Shättrömische Sculpture) مج ١ ص ٤٥ ع ٤ (فيينا ١٩٠١) .

(٣) انظر أ . و . لويس في (Classical Sculpture) ص ٣٧٠ (لندن ١٩٢٩)

تغلغل في كل ناحية من نواحي الحياة ، وهو يسعى هنا باحثاً عن وسيلة للتعبير عن نفسه ، وذلك بصورة غلب عليها التردد في البداية ، ولسكنه تطور فيما بعد حتى وصل إلى الظفر الراسخ المحقق المتمثل في الفنين البيزنطي والرومانسكي . والسمة الغالبة في هذا التطور شرقية . وقد تجلّى التغير في الحقل الديني في انتشار العبادات والنحل الباطنية (ذات الأسرار الخفية) ، كما يتجلى في النصر النهائي لأعظم هذه النحل جميعاً ، وهي المسيحية . وفي ميدان الفكر ، يمكن رسم تغيير جاء في صورة تطور مصاحب للرمزية الشرقية . فإذا انتقلنا إلى مضمار الفن ، وجدنا النظرة المسيحية والصوفية تحدث تغييراً في الداخل في نمار التقاليد الكلاسيكية ، ويميزها من الخارج المؤثرات للمادية للأساليب والتكنيكات الآسيوية^(١) . ثم يصبح هذا المؤثر بعد أن تركزت الإمبراطورية في بيزنطة ، أشد ثباتاً وأعظم قوة ، ويتمخض تفوق العاصمة الثقافية والاقتصادي عن انتشار إنتاجها الفني في كل أرجاء أوروبا المنبرجة ، حيث صارت نماذج يحذونها تطور الفن في العصور الوسطى أو يصحح عليها أوضاعه .

الآداب واللغة

وهناك اتجاهات مماثلة تتمثل في انبثاق الأشكال والصور الشعبية القديمة وتأثير خيائ جديدة ، وهي تنجلي فيما أحدثته في الأدب واللغة من التغيير . فإن أناقة وأرستقراطية أوزان الشعر اليوناني بما ترقق في مقاطعها المتسقة السك والعدد من موسيقى رقيقة ، قد احتفظت لنفسها بسيطرة قلقة على الشعر اللاتيني ، الذي تعمقت جذوره الطبيعية في إيقاعات الفلاحين القوية عن أرض بيادر الحبوب وعن عجلة المغزل والرقصة الريفية ، والأقوال المأثورة

(١) بطبيعة الحال ، ليست الرمزية بأى حال منافية لأشد أنواع الواقعية نصلاً . وهذه حقيقة تنجلي بوجه خاص بمدرسة أنطاكية . وتتجلى آثار الفن السامى في التمثيل بالصور في فريسكوهاوت ديورا (Dura) التي ترجع إلى القرن اثالث الميلادى .

التي ينطق بها الوحي الربي . وما يصدر عن أقدام جند الكتائب من وقع ثقيل . ويتمالى صوت الفناء من جوقة المنشدين الإمبراطوريين ، ولكن جذاذات صغيرة من هذا الشعر الشعبي تستطيع الأذن التقاطها من دون صوتهم المتعالى ، ومن الشذرات ترنيمة للطفولة أو قفشة مفحشة عن جنود قيصر المسرحين أو سطر من الشعر الفرامي كتب على جدار بأحد شوارع يومپياى . وقد تبنت هذا الشعر المشدد النبر والإيقاع فى أثناء القرن الثانى الميلادى جماعة من الأدباء المجددين ، وعن تلك الحركة ازدهر الفن الرائع المسمى باسم التهجد فى عبادة فينرس (*Pervigilium Veneris*) ولا شك أن ما أصاب المعايير الثقافية من الضعف قد شجع على ظهور هذه التطورات . كما أن الروح الجديدة استكشفت وسيلة مناسبة للتعبير الذاتى هى الإيقاعات القوية وما لها من مؤثرات عاطفية عريضة . وكانت أسبانيا وإفريقية تربة صالحة منمرة لهذا التطور فى الأوزان . ومما له دلالة القوية على تغير الظروف ما كتبه أوغسطين ضد الدوناتيين من أناشيد فجّة لىكى تؤدبها الجماعات المحتشدة بطريقتها الخشنة فى التشطير والتقطيع وجوقاتها الزاعقة ، وذلك فى حين أن ترانيل برودتقوس فى المراكب الرسمية رغم تفوقها فى الجمال والروعة ، ليس بوسعها أن تخفى أطراد الإيقاع المنتظم للأشعار الشعبية تحت الألحان الواهنة والانسجام الموسيقى المتنقل . وهنا يبرز فى وقت واحد كل من الروى والسجع مجتمعين معاً ، وهما من الظواهر المعروفة فعلاً فى الشعر الشعبي^(١) ، وبذا يستكمل ما للمصور الوسطى من ترانيم أشكاله وصوره .

أما النثر فقد سار فى الاتجاه نفسه ، على الرغم من أن انعدام التشطير الثابت فيه يحول بيننا وبين تتبع مراحلہ التالية . ومع ذلك فإن نبرة الضفط المشدد وتصفير حجم الفقرات تمنحلى فى الخواتيم (*Clausulae*) ، أو ما يرد من

(١) اطرا . نورون فى (*Die antike künstprosa*) ص ١١٨ (ليزج ١٨٩٨)

إيقاع شكلى فى ختام الجمل والفقرات ، التى استخدمها كتاب الحقبة المتأخرة من القرن الرابع الميلادى ، واكتملت فى عهد جريجورى الكبير مرحلة الانتقال من النثر المسجوع إلى النثر الإيقاعى^(١) .

أما لغة الحديث نفسها ، فتعرضت لتغير مماثل . وهنا أيضاً كان الأصل فى التغير سيكولوجياً . على أنه لابد من التزام الحيلة فى معالجة أداة كهذه لها مثل تلك المرونة والتعرض للفناء ، غير أن بعض النزعات البارزة تبدو فيها واضحة . على أن الأساس الجوهري للفرقة بين اللاتينية العامية واللاتينية الأدبية الراقية ، هو نوع الفكر الذى تعبر عنه . وعلى الرغم من أن اللاتينية العامية لا بد أنها تأثرت بما سلفت الإشارة إليه من التفكير اليونانى ، الذى تطرق إلى لغة المتعلمين كتابة^(٢) وحديثاً ، فإن روحها حافظت على مناعتها إزاء كل أثر للعصر اليونانى القديم ، وبذا ظلت ملكاً خالصاً للعامية ، ودامت طويلاً بعد تفكك الغرب من الناحيتين السياسية والاقتصادية ، ولم تلبث بعد ذلك أن تفرعت إلى مختلف لغات الرومانس . على أن اللاتينية المهلّنة (أى المتأثرة باليونانية) لم تستطع أن تعيش ولا أن تموت بعد سقوط دولة الرومان بفضل حفظها محنطة جامدة فى قالب الآداب . فظلت باعتبارها لاتينية متوسطة تعيش حياة غير طبيعية بين أروقة الكنائس والمدارس وفى بطون الأوراق ، وعلى ألسنة الدارسين^(٣) وآذانهم . وعلى الرغم من أن الأغاني الجولياردية هبطت بها حتى

(١) انظر أ . س . كلارك فى (The Cursus in Medieval of Vulgar Latin) ص ١٣ (أوكسفورد ١٩١٠) .

(٢) وهى اللغة الحضريّة (Sermo urbanus) بالمناقضة مع اللغة العامية (Sermo plebius Vulgaris) انظر ف . ف . أبوط فى (Classical Philology) ، ١٩٠٧ ، ص ٤٤٤ - ٤٦٠ .

(٣) انظر ك . فوسلر فى (The Spirit of Language in Civilization) ص ٥٧ - ٧٥ (لندن ١٩٣٢) .

اقتربت قليلا من الأرض ، فإنها ظلت معلقة بين الأرض والسماء بعيداً عما
لحديث الناس الجارى من تيارات لا شك أنها هي القوى المؤثرة في تطور اللغة.
وفي تلك الأثناء ، كانت لغة العامة - بعد أن تخلصت من ضغط الطرائق
الأجنبية في التفكير - عرضة لمؤثرين توأمين متلازمين ظهرا في ذلك الزمن :
انتعاش التقاليد المحلية وتأثير البواعث المنبهة الجديدة . والواقع أن ما حدث
من تغيرات في المحصول اللغوي والصرف ، مرآة تعكس ما يقابل ذلك من تغير
في العقلية . وصحب اختفاء ما كان للحياة من اتجاه رواقى أرسقراطي شخصى ،
زوال ترتيب الكلمات وضبطها ، فضلا عن الإعراب الذى يتيسر به هذا
الترتيب . وحل محلهما الأسلوب غير الشخصى الذى يهدف إلى التواصل بين
الناس لا التعبير الذاتى ، ويتمثل ذلك الأسلوب في المبالغة في التعبير التى
يقسم بها حديث غير المتعلمين ، وفي التغير الذى ألم معنى المستقبل الذى لم بعد
الناس يتقبلونه بالاستسلام ولا بالعزم المقود ، ولكنه أنحى موضع المخاوف
والآمال الحارة . وأشد ما يتجلى فيه التباين هو الفجوة الواضحة التى تفصل بين
الأسلوب الذاتى الرصين الذى يكتب به كبار الكتاب القدامى (الكلاسيكيين)
وبين ما يتميز به في الوقت الحاضر خلفاؤهم من أبناء عصرنا من الفرنسيين
والإيطاليين من اختلافات دقيقة رغم اشتراكهم في التراكم اللغوية .
« ولو قارنا بين صفحة مما سطر ليثى أو تاكيتوس أو فرجيل وبين لغات
الرومانس العصرية جميعاً . . . لبدت الثانية كأنما هي كتيب ساذج بالمقارنة
إلى لوحة من البرونز^(١) » .

التطورات اليونانية

ربما زادتنا تطورات الأدب واللغة عند اليونان قدرة على استجلاء
ما سبق إجماله من الاتجاهات . فإن دراسة لغة الحديث وطريقة النطق تعتبر

(٢) انظر ك فوسلر في الموضوع السابق .

دائماً من الأعمال الفنية كما أن إحلال النثر محل الشعر لأغراض معينة لم يزد على أن أتاح المجال للاكتمال الفنى . وقد ظهر في عصر عظمة أثينا أسلوب نثرى باهر ظل متحكماً في السكتابة اليونانية ألفاً وخمسةائة سنة ، بعد أن نجح في مقاومة جميع المؤثرات الشرقية التى ابتدأت بحكم خلفاء الإسكندر (Diadochi) ، وعاش طويلاً بعد الفتح الرومانى ، وتبناه مع قدر ضئيل نسبياً من التغيير - سلسلة طويلة من مؤلفى بيزنطة^(١) فى العصور الوسطى . على أن لغة الحديث لم تبلغ هذه الدرجة من الحصانة إزاء تأثير التطورات السياسية والاقتصادية ، ومن ثم يمكننا هنا اكتشاف تغيرات مماثلة لتلك التى حدثت فى اللاتينية . إذ إن لغة مشتركة تتألف إلى حد كبير من لغة أتيكية محرفة ، طفت على اللهجات المحلية ، وأصبحت أداة للتفاهم بين الناس فى أرجاء الشرق الهللىنى قاطبة . ومحب ما أصاب الثقافة الإغريقية من وهن وضعف ، تعرض اللغة لخطر بالغ الشدة ؛ فأخذ التغير يداخل طريقة النطق بالكلمات وركت حروف العلة المنغزمة المعروفة فى عصر بركليس حتى استحالت إلى أصوات حرف e o ، التى ظهرت فى اليونانية المتأخرة وهى عملية امتد أثرها إلى الحروف الساكنة نفسها ، ولم يلبث التمييز بين المقاطع الطويلة والقصيرة أن اختفى مع دخول نبرة تشديد أجنبية^(٢) .

إن هذه التغيرات التى أملت بلمغة الكلام استأصلت أسس الشعر والنثر اليونانى القديم الذين كانا يقومان على الكم العددى وعلى الطبقة الموسيقية . ومنذ تلك اللحظة أخذت الفجوة تتسع بين اللغة الشعبية وبين فنى المنبحرين فى العلم : - قرض الشعر والبيان ، إذ ما برحت الدوائر المحافظة بالجامعة والحياة الرسمية ، تظهر بالغ الاهتمام وتقدر بمزيد الإعجاب قرناً بعد قرن وتشيد بعلم

(١) انظر ل . نوردن فى الموضوع السابق ص ٣٦٧ ع ٥ .

(٢) عن تخطيط موجب لهذه التطورات انظر ه . ليزمان بالموضع السابق .

العروض وتكليف الصوت المعروفين في الأيام الخوالي ، وهو تقليد لم ينقطع عنه الناس يوماً واحداً كما حدث في الغرب . وربما جاز لنا أن نستنتج أن من كان كريكزوستوم وباسيل يجتذبانهم من جماهير المصلين من أبناء الطبقة الراقية إلى كنيسيهما في القرن الرابع الميلادي ، لم يكن يجتذبهم إليهما فقط حديث هذين المبشرين الزاكي في وصف الأخلاق المعاصرة وشذرات علمي النبات والحيوان التي كانا يستخدمانها مداراً للتربية الخلقية ولشرح الكتاب المقدس ، بل كان يجتذبهم كذلك إليهما مهارتهما البارة في استخدام جميع الخصائص الفنية الموسيقية التي طبعت عليها الخطابة الكلاسيكية . ومع ذلك ، فإن خواتيم العبارات التي كان باسيل يلقيها تحتوى من الدلائل ما يشهد بظهور بوادر الإيقاع المشدد الجديد ، حتى إذا انتهى القرن الرابع ، صارت هذه الخواتيم هي الصورة السائدة .

وظل الشعر المنظوم في الأوزان القديمة بكل ماله من مقاطع محدودة العدد وما نحكم فيه من قواعد الحكم ، بعيداً عن التأثير بالنبرة الديناميكية الدافعة أو المشددة ، وإن كان طابعه المصطنع يتجلى في الزلات ، التي يقع فيها أحياناً بعض من مارسوه بعد القرن الرابع . بيد أن روح التصوف المسيحي التمسّت لنفسها متنفساً بابتكارها بعض الإيقاعات الجديدة التي استلهمت من النماذج السورية ، التي زخرت بها تراتيل ذلك العصر ، بما حوت من مُرجعات شرقية وعاطفة نشوانة حارة ، والتي بلغت ذروة التطور فيما ترددت تحت قبة كنيسة القديسة صوفيا من تراتيل رومانوس الفخمة .

وقد كان للتراث الجذل الخصب لفكر العبرانيين ودينهم الذي تبنته الكنيسة المسيحية في أثناء القرن الأول من حياتها ، أعق الأثر في تشكيل الطقوس الدينية المسيحية . غير أن هذا التراث لم يكن إلا مظهرًا واحدًا من مظاهر الإحساس الديني أي تعرفًا إلى سر الله الباطن غير المرئي ، اشترك فيه

سكان الشرق الأدنى ، وينبغي التماس أصوله في الماضي السحيق ، فيما كان لمصر وبابل من تقاليد^(١) . على أن التأمل السلبي المتمعن في الجوهر الإلهي ، والحرص على نبذ الفردية ، اللذين يميزان التدين الشرقي عما اتصفت به المفاهيم الإنسانية للفكر اليوناني من النشاط والحس العمل ، يتطلبان للتعبير عن نفسيهما إيقاعات عاطفية جديدة ، ويستلزمان مفردات لغوية جديدة بل يحتاجان إلى تركيب جديد للجمل . وفي إمكاننا أن نتعقب في شعر السكينة المسيحية وطقوس صلواتها بعض المظاهر المشتركة في العهد القديم والقرآن والبرديات السحرية ، وكما هو الحال في فلك الغنون ، حيث حدث أن الانقلاب تشكل بالشكل اليوناني الروماني الذي نقله إلينا ، حدث هنا بالمثل أيضاً أن ما كان للإله من صفات سلبية غير معقولة وانصراف التعبد إلى طبيعة الله وذاتيته ، لا إلى مظاهر نشاطه ، كل ذلك جرى التعبير عنه ، في تراكيب العبارات بالجل الوصفية والحالية وصلة الموصول ، كما جاء في شكل مواظ عجيبة ، ومختارات شعرية مهوشة حرة الحركة ، أدت آخر الأمر لا سيما في حالة الطقوس إلى خلق شكل جديد من النثر الشعري اليوناني .

وكان للمؤثرات الشرقية في فن عالم البحر المتوسط وديانته وأدبه ، أثر دائم وقوى لا يتفاوت إلا في مدى شدته ، وهو أثر يرجع إلى ما قبل التاريخ من أزمته . فالعقائد الباطنية التي ترجع إلى أصل شرقي ، إنما دخلت منذ زمن مبكر في تركيب الديانة اليونانية ، كما أن ما اشتهرت به مصر وآسيا الصغرى وسوريا من الشعائر العاطفية الخفية ، التي أدخلها في أعقاب الفتوح الرومانية كل من كتائب الجند والأرقاء والتجار ، سرعان ما انتشرت في أنحاء الغرب ونحمت في أخيلة السكان^(٢) . ومع ذلك فعلى الرغم من أن العقيدة الرومانية

(١) انظر إ - نوردن في (Agnostos Theos) ص ٢٢٢ (برلين ١٩١٣) .

(٢) وكتابات فرسيكوس ماترفوس ترجى إلينا صورة أخاذة لأصفاة الحققة للوثنية الشعبية في القرن الرابع الميلادي .

انهزمت تماماً أمام العبادات الآسيوية ، فإن السيكولوجيا الدينية في الغرب احتفظت بطابعها الأصلي ، كما أن في الإمكان تفسير كثير من مظاهر المنازعات الدينية في القرن الأول للمسيحية على أساس التباين والتناقض ، ليس فقط بين ما اشتهر به اتجاه اللاهوت اللاتيني من الصفة القانونية والحسية ، وما انصف به كتاب اليونان من ميول خيالية ميتافيزيقية ، بل وأيضاً بين ما أكدته الغرب فيما يتعلق بشخصية المسيح وأعماله في سبيل الخلاص ، وبين ما انصف به التفكير الشرقى من الاستغراق العاطفي فيما لطبيعة الله من جوهر مفرط الدنيوية .

الرمزية والمجازية

وأظهر الغرب نواحي خلاف أخرى مماثلة باستخدامه الرمزية والمجازية ، اللتين تعتبران على وجه الجملة العمليتين العقليتين المميزتين لتلك الحقبة . فإن التأويلات الساذجة بل المضحكة أحياناً لآيات الكتاب المقدس التي لقيت التأييد من جريجورى الكبير ، ترتبط تقريباً بأخيلة أوريجين الشعرية الرفيعة بنفس الطريقة التي ترتبط بها الأخيلة الثائرة الصاخبة والجمال الواقعي المائل في المصغرات والنحات الرومانسكية ، بما عرف في الفن البيزنطى من معالجة للرموز تنصف ببالغ الرقة والتجريد والكبح . ففي ذلك الفن ، ازداد الضيق في تحديد إنتاج الصانع لعدة أسباب متنوعة في كل من الموضوع والأسلوب . ذلك بأن النظر إلى ما وراء اللغة ، وإلى ما وراء العالم المرئى الذى يدركه العقل والحواس ، والتطلع إلى لغة أخرى خفية ، وإلى عالم سرى لا يعرفه إلا « المريد الدينى Initiate » ، إنما هو الامتياز الذى اختص به الشاعر والمتصوف في كل العصور . وقد استخدم أفلاطون الرطازة (Myth) مع إحساسه بتحديددها ، لتزيد في توضيح ما ليس في الاستطاعة التعبير عنه

باللفظ . على أن فلاسفة آخرين قبله حاولوا الاحتفاظ بما كان للعقائد البالية السالفة من تعبير مقدس ، بالإشارة رمزاً أو مجازاً إلى سخافاتها أو استحالة وقوعها . ومع ذلك فإن الطريقة (Subject metha) الدائمية طريقة شديدة الخطر ؛ فإن الفرد نظراً لافتقاره إلى الضوابط الموضوعية ، يظل عرضة على الدوام لتيارات زمانه الخفية . وقد حدث أن مذهب اللاحيائية البدائي - (وهو الاعتقاد بوجود روح Mana في الألفاظ والأفعال والأشياء غير الحية) الذى عاد من جديد فى صورة إحياء الشعوذة والتنبؤ - نفذ إلى الأفلاطونية الحديثة ، حينما ضعفت قواها وقدرتها الشعرية على التنظيم ، واختفى التمييز بين الرمز وبين ما كان يمثل^(١) ، وكان لذلك الاختفاء عواقب وخيمة . ودمر السحر وهو شئ مَادى فى جوهره ، ما كان للإشارة المجازية ، من أساس روحى . وكانت نتيجة اضمحلال الطاقة الفكرية والخيالية القضاء على ما كان للرمز من وضع سليم مناسب^(٢) وقد حاول فيلون اليهودى المتملن التوفيق بين التوراة السبعينية وبين الأفكار السائدة فى عصره بإدخاله تحريفاً شعرياً للجوهر على المعنى الحرفى للتوراة ؛ مثال ذلك أن الأباريق والطسوت وغيرها فى الآثات والمتاع الموجودة بهيكل سليمان ، كانت عنده بمثابة مال الروح النقية من فضائل وسجاياء . وحرص الشراح المسيحيون على نقل طرائقه ، وبلغ الأمر بالقديس أوغسطين نفسه وهو يجادل بشدة أحد أتباع المانوية حين سأله عن المعزى الخلقى فى قصة داود

(١) انظر أ . فرن . هرنالك فى (History of Dogma) مج ٢ ص ١٤٤ (أدنبره ١٩٠٧) . إن مفهوم كلمة « رمز » أدبنا فى هذه الأيام ليس ما تمثله تلك الكلمة ، فى ذلك الوقت (القرن الثانى الميلادى) كانت كلمة « رمز » تدل على شئ هو نفسه بشكل ما ، عين ما يدل عليه معناه .

(٢) انظر الانحراف الذى طرأ على الفكر لأفلاطونى فى سفر الحكمة (Ecclesiastieus) من الأسفار الخدمية الإصحاح ٣٣ . آية ١٥ ، « تأمل فى كل ما صنع العلى ، وهناك اثنتان واثنتان أحدهما ضد الآخر » . وإصحاح ٤٢ آية ٢٤ ، « كل الأشياء مزدوجة أحدهما ضد الآخر » .

وَبَشَّعَ، أنه استطاع أن يؤكد أن داود هو المسيح وأن أوريا هو الشيطان ، وأن بَشَّعَ وهي تقتل على سطح البيت ، إنما تمثل الكنيسة التي سرعان ما تصبح العروس السماوية التي تتمطر من أدران العالم السفلى . ومع ذلك ، فإن القوم لم يهتموا باستخدام الرمزية على الوجه المشروع . إذ إن أوريچين وهو شاعر حقاً ، ولعله أعظم المفكرين المسيحيين الأوائل ، حاول التوفيق بين اختلافات العهدين القديم والجديد وبين كتاب الأنجيل الأربعة (متى ومرقس ولوقا ويوحنا) وبين الاختلافات الواردة في كتابات بولس ورفاقه ، بما لجأ إليه من استعارة موسيقية أبرزها في لحن إيقاعى سيمفونى^(١) ، وهنا يمكن التقريب بين الأنغام المتنافرة بواسطة ممارسة ما قد يصل إلى الخيال الشدى ، كما أن فى الإمكان إساعة مفاهيم بدائية كالذى الحرفى للأيام الستة التى خلق الله فيها العالم ، وذلك بالالتجاء إلى التفسيرات الخيالية الأسطورية . وكانت نتيجة هذه الطريقة إفساح المجال لكاه الأذكاء ، وفتح باب الأمل فى استحداث تطورات جديدة : ولكن لم يقدر لهذا أن يحدث ، كما أن ازدياد اللجوء إلى اللعنات ، واشتداد جود العقائد ، واتخاذ حلول منهجية مخالفة للمعقول ، اجتمع ذلك كله ففقط الطريق على المفكر المستقل^(٢) . وترتب على انهيار الثقافة العامة ، أن ما كان للألفاظ من معنى أخذ يتراجع رويداً رويداً إلى الأوهام بعد أن حرم من ضبط العقل له ، وعلى هذا الأساس أقام العقل فى العصور الوسطى بنيانه . ولا تزال مقارنة جيروم الدقيقة الضليعة لمخطوطات التوراة السبعينية تحتفظ بأهمية الحقيقة التاريخية ، بوصفها شيئاً مبرزاً عن تفسيرها ، غير أن أتباع الكوين الذين حرصوا على التمسك بتعاليم معلمهم دون الاهتمام بممارستها ،

(١) انظر خياله الأوركستراالى المعجب فى (Philokalia) ٦ ، ٢ (P. G ١٣)

بحجوة ٨٣٢) .

(٢) تذييل ب .

لا يعتبرون من الإنجيل مقدساً ، فإنهم لحرصهم الشديد على نبذ القشور المادية واسعة: خلاص ما في الكتب المقدسة من معنى روحي^(١) ، أظهروا استعداداً لإدخال التفسيرات وإضافة العبارات التي تتفق مع آراء الشراح من آباء الكنيسة^(٢) . ولم يكن المؤلفون الوثنيون أحسن منهم حالا ، إذ إنهم استخدموا المجازية باستخفاف في الإفادة من محتويات تلك الكتب بقصد التهذيب . فقد بلغ بهم الأمر أن حرفوا معنى الكلمات التي استعملت بها الإنيادة وهي : « إني أتفنى بمدح الأسلحة والرجال » (Arma Virumque Cano) فجعلوا لها سمة خلقية . فإن كلمة « الأسلحة » قد عد بعض الناس أن معناها الفضيلة ، وأن المقصود بالرجال هو « الحكمة »^(٣) . والواقع أن هذه الطرق لم يكن الغرض منها إلا اختصار الطريق للوصول إلى الهدف البعيد الذي جعلته الكنيسة نصب عينها - وهو الدأب على إعادة تشكيل المعرفة القائمة وبذل الجهد الهائل لبنائها في مشروع شامل متماسك للفلسفة المسيحية . وكان مفكرو القرون الأولى هم الذين بدؤوا بالعملية ، ولكن نظراً لما يتسم به الخيال الرمزي من عناد والتواء لم يحدث بعد ذلك أي تقدم عام لمدة تقارب ٦٠٠ سنة ، وهي الفترة التي بدأت فيها الحركة (ولم يكن بدؤها خلواً من أثر الإلهام الإسلامي في أسبانيا الذي حفظت به الترجمات العربية بعض نواح معينة للفكر الإغريقي) التي بلغت ذروتها بكتاب النهاية (Summa) الذي ألفه توماس الأكويني ، وبالتعبير الأسمي لمسيحية القرون الوسطى ، وهو كتاب الكوميديا الإلهية (Divina Commedia) .

(١) انظر بيده في : Retecto cortice Litterae, altius et sacratius in medulla sensus spiritualis invenire .

(٢) انظر هـ . هـ . جلتز في (History of the Vulgate in England from Alcuin) (كبرج ١٩٣٣) .

(٣) ان رادبرتوس (M. G. H Epist vi 6 - 16 , 143) لا يفتنح حتى بهذا ، ولكنه يرغب في استبعاد فرجيل من قائمة المؤلفين الذين ينبغي دراستهم .

الكنيسة والحركة الإنسانية

ومن المقطوع به أن الكنيسة المسيحية بمجموعها كانت في أثناء عصور الانتقال تحشى العلوم الوثنية وترتاب فيها ؛ غير أن موقفها ذاك تخللته بعض الاستثناءات البارزة ، على أن تقاليد تروتوليان البالغة الصلابة كانت أقوى ، وهي التي كانت لها الغلبة في النهاية بفضل تأييد جريجورى لها . على أن رد الفعل الطبيعى لما أصيبت به الكنيسة في « العصور المظلمة » من امتنان ، أن يشتد التأکید في الآونة الأخيرة على ما اتسمت به الكنيسة من روح إنسانية في العصور الوسطى ؛ ولكن المبالغة في هذا الرأى ليست من الأمور المستبعدة ، وذلك لأن من المؤكد أن الغرض الوحيد من التعليم ببلاد الغرب في ذلك العصر ، هو إعداد الكنيستين للاضطلاع بواجباتهم^(١) . وكانت المعرفة اللازمة لفهم الصلوات اللاتينية - وفي حالة التلاميذ الذين هم أكثر تقدما - دراسة المعلومات الضرورية للإحاطة بالأدب المسيحى الجدى والتفسيرى ، وحساب عيد القيامة وشائر الأعياد ودراسة نظام الكنيسة القانونى والإدارى ، كل ذلك يؤلف في حالات عديدة منهجا تعليمياً رائعا . هذا إلى أن الحياة النظامية التى تسود الدير بما لها من ساعات عمل منظمة ومكتبة خاصة وحياة اقتصادية مستقرة ، قد هيا من الفرص للمحافظة على الثقافة إبان عهود الأخطار والأزمات ما لم يهتبه أى نظام آخر . ولكن ما أتمه علماء أفذاذ مثل بيده وأولداهم من منجزات خارقة ، والمستوى الفكرى العالى الذى بلغته - حسبما يترأى من المعايير المعاصرة - كل من كنتربرى ويورك ووير ماوث وچارو بإنجلترا في القرن السابع ، بل بلغته مناطق أقل أهمية مثل المبرى ونيرسلنج ويشوبس والثام-

(١) انظر . روجر في (L' Enseignement des Lettres classiques en

France d' Ausono d' Alucin) ص ٤٢٧ مع (باويس ١٩٠٥) .

كل ذلك ينبغي ألا يخفى عنا أن ماندين به من صون الأدب الكلاسيكي من يد الدمار وما نحس به على ذلك من الشكران ، كان من الأمور التي تستثير سخط السلطات الكنسية^(١) الشديدة المحافظة على سلامة الكنيسة . كما ينبغي ألا يدفعنا إلى الاستهانة بالثغرة الضخمة التي تفصل بين علوم عصرنا هذا وبين علم جيروم ، فضلا عن علم أوريجين ، يوم كانت جميع موارد الحضارة القديمة لا تزال بين أيديهم . وقد ظلت هذه الموارد في تناقص مستمر أمد قرون عديدة ؛ وذلك فوق ما قامت به الكنيسة من التقليل مما يتزود به الدارسون من علم . وانقطع الفكر الخلاق منذ أمد بعيد ؛ وانصرف اهتمام الناس في أثناء ذلك العصر إلى المختصرات والمختارات وكتب النحو (الأجرومية) والمراجع العامة . واختفى من الغرب تماما كل تمكن حق وإجادة أصيلة للسان اليوناني ؛ فلم يظهر أحد بعد بويثيوس أية قدرة حقة على تمثيل الفلسفة الهلينية وفهمها . أجل إننا نعثر في المخطوطات الأيرلندية على بعض الأحرف الإغريقية مستخدمة كحلية وزخرفة ، وعلى بعض العبارات المنعزلة ، وبعض الكلمات المنقولة من المعاجم ، كما أن بيده ينفرد بصفة استثنائية بإظهار شيء من المعرفة بالتوراة السبعينية^(٢) . ولكن ليس ثمة أمانة واحدة تدل على استخدام اليونانية استخداما يتجلى فيه الخلق والابتكار . والواقع أن العلماء الموسوعيين السلبيين أمثال إيزيدور الأشبيلي ورايان ماور ، إمامم النتاج الذي تتميز به مطالع العصور الوسطى ؛ وذلك أكبر شاهد على الضرورة القاسية الملحة ، التي تدعو إلى المحافظة على المعرفة القائمة درءاً لخطر البربرة التي تهدد بابتلاعها .

(١) أي جريجوري الأكبر ومدرسته القوية النفوذ . انظر التذييل ب .

(٢) عن معرفة الإغريقية في ذلك الأوان انظر م . ل . و . لاستنر في (Thought of Letters in Western Europe) ٤٠٠ — ٩٠٠ للميلاد من ص ١٢٥ ع ٤ ، ١٩ ع (لندن ١٩٣١) .

وكان ختام القرن السادس مسرحا لانهايار أ كيد للثقافة بفرنسا ومعها لميطاليا أيضا ، ولكن بدرجة أقل . ومن آيات ذلك أن جريجورى أسقف تور أعظم كتاب غالة لم يكن يستخدم أحد التعبيرات البيانية حين نعى افتقاره إلى النحو والتعليم^(١) ، ولا يخفى أن الأجيال التى أعقبته نردت فيما هو أعمق من ذلك من مهاوى البربرية^(٢) . وقد انحطت اللاتينية الفصحى لغة الأدب ، وهى وسيلة التفكير ، فأصبحت رطانة عجيبة ، كما يتجلى ذلك من الوثائق القليلة التى ترجع إلى ذلك العهد ، كما أن أوسع شعراء عصر النهضة الكارولنجية ثقافة كانوا يقرضون أشعارهم اللاتينية بلسان غريب عنهم لا يقل فى أعجميته عنه لدى أى تلميذ فرنسى فى أيامنا هذه . وفى الحين نفسه وجد كثير من الاعتقادات والخرافات الشعبية طريقها إلى النعالم الرسمية للكنيسة الغربية ، ولقيت التأييد من جريجورى الكبير^(٣) بما كان له من سلطان ونفوذ قوى . وعلى الرغم من إدراك أوغسطين لما تنطوى عليه عبادة المقدسات والآثار الدينية من أخطار ، فإنه أجازها فى أشد صورها تطرفا^(٤) حتى إذا انتظمت المواصلات واضطربت ظروف العيش وغلب الارتباك على المعايير والثقافات ، انتعشت بواعث الإشاعات وسرعة التصديق ، وقوى الاعتقاد فى الأعاجيب والشياطين وفى قوة مفعول السحر وأدواته .

(١) مما هو جدير بالذكر أنه ليس لدينا مخطوط كلاسيكى واحد يمكن إظهار أنه نسخ فى عالة فى أثناء ذلك القرن . انظر س . ك . كروفورد فى (Anglo Saxon Influence in Western Christendom) ، ٦٠٠ - ٨٠٠ م (أوكسفورد ١٩٣٣) .

(٢) م . بونيه فى : (Le Latin de Gregoire de Tours) م ٨٦ (باريس ١٨٩٠) .

(٣) ١ . فون هارناك فى (Dog men geschichte) ، ٣ م ٢٥٧ ع م (الطبعة السادسة توبنجن ١٩٢٢) .

(٤) انظر ج . تسيلينجر فى (Augustin und die Volksrommigkeit) م ٢٤ (برلين ١٩٣٢) .

الوثنية والخرافات

على أنه لا يجوز لنا أن نعتقد أن الأميين كان يسود بينهم قبل ذلك شيء من الاتجاه العقلي . إذ إن العالم القديم كان به من الآلهة ما يزيد على عدد الناس ، ولم تتمكن الديانات الرسمية ولا جهود المتعلمين في التقريب بين الأديان من القضاء على العبادات المتأصلة في الريف من أقدم الأزمان . وكان الجميع حتى الفلاسفة أنفسهم يعيدشون ويتحركون في جو ظلت فيه التقاليد البالية وطرائق الفكر القديم كل دار ، والراجح أنهم حاموا على أحقة الأدب الشعبي (فولك لور) وأطغيا الجليل - وكانوا شبه مصدقين لها إن لم يكونوا مصدقين تماما . على أن هذه النزعات لم تتوار من الدنيا عند نهاية القرون الوسطى ؛ إذ إن الشعوذة بلغت فيما يرجح أقصى غاية تطورها عند نهاية القرن السادس عشر . ومع ذلك فإن المسيحية لم توفق إلى تغيير الوضع في هذه الناحية . وكما أن الدولة الرومانية قد أضفت في النهاية قدراً كبيراً من نظمها وطرائقها على الكنيسة المسيحية المظفرة ، فكذلك فعلت الوثنية في القرون الوسطى ، حيث نفضت على العقول ميراثها وهي تلفظ آخر أنفاسها . وفوق هذا ، فإن انتشار المسيحية بأوروبا في أثناء تلك القرون لم يكن مستكملاً بأي حال . إذ إن روما مثلاً وكثيراً من عائلاتها السنانورية ظلت زمناً طويلاً معقلاً حصيناً للعبادات القديمة^(١) وكانت المناطق الشمالية من إيطاليا فضلاً عن النمسا

(١) انظر ف شفيدر في (Rom und Romgedanke im Mittelater)

(ميونخ ١٩٢٦) - هناك مثال رائع على استمرار الأعراف الوثنية في روما هو

(Cornomania) . فنذ ٨٧٠ حتى زمن جريجوري السابع كان عميد (Séchola Contorum)

يقوم على الملأ يوم السبت الذي يعقب عيد الفصح برقصة عجيبة في ميدان اللاتيران . ويضع على رأسه في أثناء الرقص إكليلاً له قرون وتلوح يداه بصلصل ذي أجراس . وعندئذ ينثر أوراق الغار

وهو يصيح : (iaritan, iaritan, iariar iastri, raphayn, iercoin, iariasti)

وجنوب فرنسا لا تزال تقيم العبادات لأرباب العصور الكلاسيكية القديمة . ولم تبحر الوثنية حتى عام ٦٥٠ تزدهر جهاراً بكل ما أوتيت من معابد وتماثيل بجميع أصقاع غالة ، بل لقد ظلت تواصل بعد ذلك التاريخ نفسه نشاطها شمال نهر السين وبمناطق نهر الراين حتى القرن الثامن أو التاسع . واتخذ آلهة اليونان بمنطقة البحر الأبيض المتوسط أشد ثياب التنكر والاستتار شفوفاً . وكل ما حدث من التغير هو أن ما ينسب إلى الآلهة المحلية والينابيع المقدسة من قدرة على الشفاء ، نقلت بجذافيرها دون أدنى تغيير إلى القديس المختص ، كما أن الميرون (Heroon) وهو ضريح الإله أو شبه الإله عند الوثنيين ، أصبح يسمى في أحوال كثيرة دار الشهداء (Martyreion) ، ومركز الحج الذي يحتوي على مخلفات الشهيد المسيحي ^(١) ذات الأثر الفعال . وكان الشيء الكثير من هذه التغيرات متعمداً - وينطوي على حق تنازلت عنه الكنيسة لإرضاء لقوة المشاعر الشعبية ، وللحاجة الماسة إلى مصدر ظاهر للسلوى ، ومرئاً مادي تلوذ به الأنفس . ولذا فإن أوغسطين يوضح أن تحويل عبادات الأبطال الموسمية إلى أعياد القديسين إنما هو إذعان حتى لما يملأ جوانب الإنسان من ضعف وثني . ففي غالة يحل الاستفتاح ^(٢) بالكتاب المقدس (Sortes Biblicae) محل النبوءات عند الوثنيين ؛ كما أن عادة الفرنجة في المحاكمة بواسطة الحنة والابتلاء أصبحت عملية مستساغة لها ما لقضاء الله وقدره من السلامة والصحة ، على حين أنه حدث في إنجلترا أن مليتوس أسقف لندن تلقى التعليمات من البابا جريجوري بعدم منع التضحية بالثيران قرباناً « للشياطين » ، بل يأمر قومه أن يعمدوا -

(١) وعن الحاجة النافعة إلى الحذر في أثناء تعقب مثل هاته المبقايا الوثنية انظر هـ . ديلهاى في (Les Legendes hagiographique) ص ١٤٠ ع ح (الطبعة الثالثة بروكسل ١٩٢٧) .

(٢) الاستفتاح فتح الكتاب في أية صفحة استبشاراً به . (المترجم) .

عند الاحتفال بعيد الشهيد الذى تقدر خلفاته محليا لديهم — إلى إقامة الجواسق حول كنائسهم ، وأن يولوا الولائم مجتمعين ، وينحروا الذبائح شكراً لله ، (١). ومع ذلك فإن تبني مثل هذه الممارسات وغيرها من العادات الفسكورية ، غالباً ما كان نتيجة لنزعات لاشعورية ، ترجع إلى ما أحاط بالمسيحية في القرون الأولى من بيئة وثنية ، وإلى جهل رجال الكنيسة وإعوازهم في المعرفة مهما علا شأنهم ، وإلى اعتناقهم مبادئ مسيحية غير مفهومة تماماً وإدخالها في حياة أقوام سادتهم أنظمة اجتماعية أقدم عهداً .

على أن بعض الانحرافات لقيت من الكنيسة معارضة صريحة . مثال ذلك أن الرقص وهو مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالطقوس البدائية أوشك في أحد الأزمنة أن يفمر الطقوس الدينية المسيحية بمصر ، فنذ ٥٨٩ إلى ١٦١٧ انعدمت عدة مجالس كنسية منعاقبة وأجمع الوعاظ والمبشرون على تحريم الرقصات المغربية بما ارتبط بها من الأجراس والنقارات والتمثيل التنكرى ، وبما فيها من مخنشين وسارية مايو للرقص وارتداء أقنعة على هيئة رأس الغزال والكرفنالات والأهازيج (٢) . ونددت المجامع أيضاً بأغاني الحب التقليدية ؛ وحرمت على المسيحيين (٣) تعجيد عاطفة الحب الرومانسى والإشادة بما يشيع في الأساطير الكلتية والساجا النورسية من الفرحة الضارى بالمعارك الحربية . واتهم اللسان الجرماني نفسه ، وهو وسيلة الأفكار الوثنية ، بأنه لغة الشيطان .

بيد أن الوثنية ظلمت رغم ذلك حية طوال العصور الوسطى ، إذ بقيت في صورة عالم مستتر ذى أساليب ملتوية ومعتقدات مخملطة ، نشأت عن شعوب

(١) بيده في (Hist. Eccl) ١ ، ٣٠

(٢) انظر ما كتبه الدوم جوجو بعنوان (Las Danse dans Les Egli ses)

في : (Rev. d'hist, eccl) مج ١٥ ، ١٩١٤

(٣) وجه النقد إلى الرهبان النورمانيين لتمسكهم بأغان مثل أغنية بيرواب .

متنوعة وطبقات اجتماعية متباينة ، وجمعت بين الاعتقاد الإيطالي في أرواح النبات ، وبين أرواح المساء وعفارية عند السكتيين ، وبين معتقدات النيونون في الفيلان وجنيات الفيرى . وبين وحوش السكنديناويين ، فضلا عن آلهة اليونان الجميلة الرشيقية في صورتها المصغرة الضئيلة . ومن دون جميع هذه التغيرات التي أملت بالأسماء والمراسم ، طفق الفلاح يقيم حفلاته الموسمية العتيقة ، ويقدم الولاء لأرواح الخصب والنماء المرتبطة بأوقات البذار والحصاد . ولم تفارق أسماء ترستان وبيوولف وأبطال المآثر (نيلونجبلاد Nibelungenlied) الألمانية ألسنة الناس وأفواههم ^(١) ، بل إن أعمال الاسكندر وقصة طروادة القديمة لم تنس نهائيا . ومع ذلك ، فإن هذه الصور التي كانت تنقلها الألسن في العصور الوسطى عن التاريخ الكلاسيكي القديم ، وهي تحريفات وهمية لموضوعات شوهت من قبل في أزمنة التاريخ الروماني المتأخرة ، — كانت أبعد ما تكون عن الحقيقة . فإن صورة فرجيل الساحر صانع المعجائب ، والإسكندر بطل مجموعة القصص الشرقية الحاملة كقصص ألف ليلة وليلة ، ليست إلا انعكاساً مبهماً عن شخصية كل منهما الحقيقية . والواقع أن الناس في تلك العصور كانوا كمن ينظر من خلال منظار معتم إلى أشكال العالم القديم وأحداثه البعيدة ، وهي أشياء بعيدة عن ظروف عيشهم وأحواله بعد أوروبا العصور الوسطى عن أوروبا في زمننا الحاضر . أما روما ذاتها فلم تعد عند الحاج المتلى النفس بالرهبة ، تنطوى على ذكرى العاصمة العريقة النابضة بالحياة والتجارة والرخاء . بل كانت مدينة مقدسة حافلة بالمزارات وذكريات

(١) عن الإحالات السكثيرة إلى ساجا بيوولف في المواعظ التي أُلقيت في المدة المتأخرة من العصور الوسطى . انظر : ر . ر . اوست في (Pulpitin Medieval England Literature) ص ١١١ (كبرج ١٩٢٣) .

الاستشهاد والشهداء ، فضلا عن كونها مدينة خرائب تسكنها الأشباح ،
ومدينة أساطير وأحداث عجيبة ارتبطت بماضٍ مدهش ، وكانت بلداً يطرد
البابوات فيه بالرقى الشعابيين الجالبة للطاعون ، أو يصفدون الوحوش والتنانين
بالأغلال تحت السكايتول بما يتلونه من تعاويذ .

تراث روما

ومع أن الحصول على صورة واضحة للعهد العتيقة ربما كان أبعد منالا
على عقول الناس في العصر الوسيط منه على العقول المعاصرة ، فإن حضارة
الإمبراطورية الرومانية لم تبرح هي القلب الذى تصاغ على غرارهِ القوانين
والنظم وأنماط الفكر التى كانت تنحكم في الحياة البشرية في أثناء العصور
الوسطى ، والتى قدر لها آخر الأمر أن تعم أوروبا كلها . وكان المثالون
والمماريون بكل من إيطاليا وجنوب فرنسا مصدر الإلهام لخلقائهم في العصور
الوسطى . واعترف الناس جميعاً أن الحكمة البشرية كلها قد اجتمعت
للمؤلفين القدماء ، كما أن أدب عصر أوغسطس كان يستهوى بقوة خيال
القارئ ، وإن كان غير راغب فيه إلى حد ما . واحتفظت الكنيسة لنفسها
بإطار التنظيم الرومانى وهيكله ، وعلى الرغم من أن المثل الأعلى للوحدة
الأوربية بكل ما بشر به في نشوء ثقافة أوربية مشتركة قد تحطم عند وفاة
شرلمان ، فإنه ظل حافلا بالآمال في الانتعاش والنهوض في خاتمة المطاف .
وما ذلك إلا لأن ذلك المثل الأعلى أقام لنفسه حصناً منيعاً بفرنسا والأقطار
المحيطة بها تحطمت عليه الموجات العاتية من أعاصير الفكيكنج والمجر والمسلمين
وأوهنت على صخورهِ قوتها بغير طائل ، حصناً كان يحوط بحراسته مانحويه
أديرتها وقصورها من كنوز روحية ومادية ، انتزعت بفاية العجلة والاضطراب
الشديد من بين حطام العالم المهيد .

تذييل (١)

الجهاز الإمبراطوري في القرن الرابع الميلادي

١ — الإمبراطور

لا يزال من الناحية النظرية ينتخبه السناتور والجيش — والواقع أن مبدأ وراثة العرش كان يقوم إلى حد كبير على الأسرات ، وذلك نظراً لأن الإمبراطور في أثناء حكمه كان يستطيع تعيين خلفه بصورة غير مباشرة بمنحه لقب أوغسطس .

٢ — مجلس الشيوخ (السناتو)

كانت العضوية فيه إما لأبناء أعضائه ممن شغلوا منصب برايتور (Praetor) ، وهي وظيفة كان أهم أعمالها في ذلك الوقت دفع نفقات الألعاب أو الأشغال العامة ؛ وإما لأعضاء الهيئات الثلاثة (Illustres, Sherrabiles, Clarissimi) التي تولوها بحكم مناصبهم أو مكافأة لهم عند التقاعد . على أنه لم يكن يحظى بالعضوية إلا عدد قليل بتفضل خاص من الإمبراطور (adlectio) .

٣ — المجلس

كان مجلس الدولة المعروف باسم (Consistorium) تطوراً وامتداداً لمجلس (Consilium) الذي أسسه هادريان . وكانت العضوية فيه آنذاك دائمة (Comites Consistoriani) ، وتشمل كبار الموظفين ، ويقوم بخدمة الإمبراطور ويجتمع دائماً لإسداء المشورة حول سياسة الحدود والمشكلات التشريعية والإدارية . وكان يتولى أيضاً محاكمة من يتهمون بالخيانة .

٤ — الموظفون الإمبراطوريون

كان أهم الموظفين الذين في خدمة الإمبراطور هم :

(١) كبير الموظفين (Magister Officiorum) ، وهو يتولى الرئاسة على عدد من الإدارات المتنوعة ، التي تعالج الاسترحامات والالتباسات والسفارات والمراسيم وبريد الدولة ومصانع الدولة للأسلحة . وكان يقود كذلك الحرس الملكي المسمى « بالاسكلارية (Scholarian) » (انظر مابعده) ورجال المخبرات (Agents in rebus) الذين يوفدون في مهام دقيقة والذين درجوا بوجه خاص على كتابة التقارير حول سوء تصرفات الموظفين في الأقاليم .

(ب) كوايستر القصر المقدس (Quaestor Sacri Palatii) . وهو أكبر مستشار للقانون ، ويتولى وضع مشروعات القوانين والمراسيم الإمبراطورية .

(ج) كونت الخزانة المقدسة (Comes Sacrarum Largitionum) . وهو وزير المالية الذي يرأس موظفي الخزانة ودارسك النقود والجمارك وجميع الجهاز المالي في الأقاليم . وكان كونت الأملاك الخاصة (Comes Rerum Privatarum) يدير إيرادات مزارع الإمبراطور . والراجح أنه بعد أن يدفع أجور مروسية كان يسلم ما تبقى من الإيراد لكونت الخزانة المقدسة ، مثلما كان يفعل البرايتوريون الذين كان لكل منهم خزانة (Fiscus) .

(د) وكان هناك من الناحية العملية موظف لا يقل عن هؤلاء أهمية هو كبير الأمناء (الحجاب) (Praepositus Sacri Cubiculi) وهو في العادة خصي ، وله عادة نفوذ شخصي عظيم على الإمبراطور ، وإن كان في ذلك خروج على الدستور ، وهو الذي يتولى الإشراف على موظفي القصر وشئون الدور الإمبراطورية .

٥ — الجيش

كانت القيادة العليا في أيدي مقدمى الجند (*Magistri Militum*) . وكان هناك في الشرق خمسة مقدمين للراجلة والراجلة (*Magistri equitum peditum*) يعنى الفرسان والمشاة ، كان اثنان منهما يقيمان بالقسطنطينية في خدمة الإمبراطور المباشرة (*in praesenti*) ، وكل منهما يتولى قيادة نصف حرس القصر . فأما القواد الثلاثة الباقون فيتولون الشرق وتراقيا واللبيرية . وكان هؤلاء الخمسة متساويين جميعاً . وكان هناك في الغرب مقدمان للجند يقومان على الخدمة (*in praesenti*) ، وهما يقيمان بإيطاليا : أحدهما لقيادة المشاة والآخر لقيادة الفرسان . وكان مقدم المشاة أهم كثيراً من رفيقه ، ثم أصبح قرب نهاية القرن الرابع القائد الأعلى لجميع القوات العسكرية بالغرب ، وقد اتخذ لقب مقدم الخدمتين (*Magister utriusque militi*) . وهو الذى يقرر إلى حد كبير سياسة الدولة في الغرب ، حيث أصبح الإمبراطور في الغرب مجرد ظل أو دمية . وكان النظام المتبع في الشرق وهو نظام القواد المتعادلين يحول في العادة دون نشوء مثل هذه التطورات .

ويمكن تقسيم الجيوش على الجملة إلى :

(١) جيش الميدان أو الرفقاء (*Comitatenses*) (وهو جيش الميدان المتحرك الذى يتكون منه حاشية الإمبراطور أو الرفقاء (*Comitatus*) . وهو القوة الرئيسية الضاربة التى تصحبها عادة جماعات ضخمة من جند المتبريرين المسماة بالجند المحالفين (*Foederati*) .

(ب) جند الثغور الثابتون (جيش الأطراف (*L. mitanei or ripenses*) وهم جند يرابطون دوماً على الحدود بقيادة أدواق ، وهم تابعون لمقدمى الجند كما أنهم أدنى مرتبة ونوعاً من القوات المتحركة .

(ج) حرس القصر ، الاسكلارية (Scholarii; Palatini) ، وهي ككتائب متنوعة من جنود حراسة « الدار » الإمبراطورية ، منها ما يتخذ للزينة ويستخدم في الموكب ، ومنها ماله قيمة عسكرية بالغة . ومنهم من كان تحت القيادة المستقلة لناظر الدواوين وحده (Magister Officiorum) .

٦ — حكومة الأقاليم

لتحقيق أهداف الإدارة المدنية ، قسمت الإمبراطورية إلى أقسام كبرى أربعة ، وولايات (Prefectures) (اثنتان منهما في الغرب واثنان في الشرق) ، ويحكمها أربعة ولاية برايتورين .

(١) إقليم الغاليين ، ويشمل إلى جانب غالة ، بريطانيا وأسبانيا والركن الشمالى الغربى لإفريقيا .

(ب) إقليم إيطاليا ، ويشمل إلى جانب إيطاليا سويسرة والأقاليم الواقعة بين الألب والدانوب ، فضلا عن المناطق الساحلية بشمال إفريقيا .

(ج) إقليم الليرية (Illyrieum) ويشمل شبه جزيرة البلقان عدا تراقيا .

(د) إقليم الشرق ويضم تراقيا ومصر ، وجميع الأراضي الآسيوية التابعة للإمبراطور . وانقسم كل إقليم من هذه الأقاليم إلى دوقيات (Dioceses) مجموعها سبع عشرة دوقية ، ويتولى الحكم في كل منها فيسكار أى وال ، وكانت كل دوقية تنقسم بدورها إلى مقاطعات (محافظات) . كان لحكامها ألقاب مختلفة هي القنصلارى والسكرىكتورى والرئيس Consulares, Correctores, Fraesides . وهناك مناطق ثلاث بقى فيها منذ أيام الجمهورية اللقب القديم : البروقنصل ، وهي إفريقيا وآسيا وآخيا .

وكان من اختصاص الولاية الأربعة (بأمر الإمبراطور) تعيين ولاية

المقاطعات والإشراف على أعمال كل من المحافظين والفيكارية ، وشئون المثونة والأرزاق والجيش المراقبة في أقاليمهم ، وكانوا هم كبار قضاء الاستئناف ، ومن حقهم إصدار القرارات (البرايتورية) في كل الأمور التفصيلية . ويعتبر الواليان البرايتوريان في الشرق وإيطاليا أعلى موظفي الإمبراطورية مكانة . وكانت لولاية الدوقيات (الملقبين بالفيكارات) ولحكام المحافظات سلطات قضائية وإدارية ، كما أنهم كانوا يشرفون على جميع الضرائب . ولم يكن لأحد من هؤلاء الموظفين اختصاصات عسكرية . إذ كان الفصل بين السلطين المدنية والعسكرية من أهم إصلاحات عهد دقلديانوس وقسطنطين .

٧ — العواصم

كانت كل من روما والقسطنطينية في ذلك الوقت مركزا لحكومة مزدوجة متوازية تدير الأجزاء الشرقية والغربية من الإمبراطورية الرومانية . على أن هاتين العاصمتين وأرباضهما تخرجان عن اختصاص الولاية البرايتوريتين ، بل تتبع كل منهما إلى المدينة (*Præfectus Urbi*) دون غيره ، الذي هو أيضاً رئيس مجلس السناتو وكبير قضاء الجنايات ، كما كان يهيمن على الشرطة (*Vigiles*) بطريق مباشرة أو غير مباشرة ، فضلا عن الإشراف على السقايات والأسواق وزويد المدينة بالقمح وعلى نقابات الصنائع (*Collegia*) .

٨ — الضرائب

(١) الضريبة السنوية (*Annona*) : وتؤديها الإمبراطورية كلها عينا وأحيانا بالنقد . وكانت القيمة الكلية الواجب جبايتها تملن كل سنة بقرار (*Indictio*) يصدره الإمبراطور . وعندئذ يتقاسم الولاية البرايتوريون هذا القدر ويتحمل كل نصيبه . وتمسح الأراضي وتقدر قيمتها حسب قدرتها

الإنتاجية ، ولذا فإن الوحدات (Juga) كانت مساحتها تختلف تبعاً لخصوبة التربة ونوعها . والوحدة الضرائبية (Jugum) من الناحية النظرية قدر من الأرض يكفي لإعالة فلاح واحد (Caput) وأسرته .

(ب) الضرائب الفترية (التى تؤدى فى أزمئة معينة) : عند تولية الإمبراطور الجديد على العرش وعند انتهاء فترة كل خمس سنوات ، كان الناس يطالبون بسداد مبالغ طائلة لتمنح هبة للجنود . وكانت تلك المبالغ تجمع على الأوجه التالية :

١ — الهدايا الإجبارية (Aurum oblativum) وهى هبات يبذلها أعضاء السناتو .

٢ — هدية التيجان (Aurum Coronarium) وهى هبة ممائلة للسابقة يقدمها حكام المدن (Decuriones) وكانت تصنع فى الأصل على شكل تيجان ذهبية .

٣ — الضريبة (أو المساهمة) الخمسية (Lustralis Collatio) (وتدفع كل خمس سنوات) وهى ضريبة على الأرباح التجارية .

(ح) ضريبة (Collatio glebalis) وتدفعها الطبقة السناطورية ، وهى ضريبة مدرجة على الأملاك ، يسميها الشعب عادة باسم ضريبة الأكياس (Follis) لأنها كانت تؤدى فى أكياس (ومعنى لفظة Follis هو كيس العملات الصغيرة) .

(د) الضرائب غير المباشرة وغيرها . ومنها الضرائب الجمركية والمناجم ومصانع الدولة وإيرادات وأرباح الضياع الإمبراطورية الضخمة .

تذييل (ب)

(ص ٢٧) : (١) الاقتصاد النقدي والاقتصاد الطبيعي

إن مسألة الانتقال من الاقتصاد النقدي في القرنين الأولين الميلاد إلى الاقتصاد الطبيعي في مطالع القرون الوسطى قام بدراستها ج . مكفتز في :
(Geld und Wirtschaft im römischen Reich das 4 Jahrh. n. Chr., Helsingfors, 1933) والراجح أنه حتى في القرن الرابع الميلادى نفسه لم تنخل المالية الخاصة بوصفها مقابلا لمالية الدولة عن الأساس النقدي . ولذا فإن التضخم المالى ، الذى حدث فى أخريات القرن الثالث لم يكسب الاقتصاد « الطبيعي » أية ميادين أخرى جديدة ، واقتصر على مجرد زيادة انتشاره فى الدوائر التى سبق أن شغلها - حتى أنه لم يبد فى إيطاليا فى عهد ثيودوريك نفسه إلا تغيير قليل فى نظام المالية العام . فإن مملكة القوط الشرقيين لا تزال بعيدة عن الأحوال الاقتصادية فى دول أوروبا الغربية فى مستهل القرون الوسطى .
(انظره جاييس فى Geld und naturalwirtschaftliche Erscheinungsformen im staatlichen Aufbau Italiens während der Gotenzeit)
(شتوتجارت ١٩٣١) .

وهناك مسألة معقدة لا تزال بحاجة إلى توضيح وهى : إلى أى حد كان نظام التبادل فى الغرب فى أثناء القرون التى أعقبت تأسيس الممالك المتبريرة قائماً على النقود ؟ ذلك أن المقايضة كانت تعيش على الدوام جنباً إلى جنب مع استخدام وسيط فى العملة ، وحق لدوبش فى كتابه (Natural-und Geldwirtschaft)
(فيينا ١٩٣٠ ص ١١٠) أن ينكر الرأى القائل بأن الجرمان دمروا النظام الاقتصادى القائم على النقد فى أواخر عهد الدولة الرومانية ، وأنهم أحلوا

مكانه اقتصاداً طبيعياً أنسب لحاجاتهم البدائية . إذ الواقع أن النقود ظل استخدامها شائعا بين الناس طوال عهد المبروفينجيين والكارولينجيين (وبخاصة في جنوب فرنسا وإيطاليا وفي دفع الغرامات والضرائب) غير أن ما أعقب سقوط الإمبراطورية الرومانية في الغرب من تفكك نظام الحكومة واضطراب للتجارة ، أدى رويداً رويداً إلى قيام مجتمعات محلية تعيش على الاكتفاء الذاتي ، والراجح أن وسيلة المبادلة السائدة كانت المقايضة المباشرة . كما أن الجزاء على الخدمات التي تؤدي لم يكن بالنقد .

(ص ٣٠٣) (٢) معركة تحطيم الصور وما دار فيها من جدل

كان رد دعاة التحطيم على الاتهامات المذهبية التي كان يوجهها إليهم خصومهم قائماً أيضاً على الأصول السليمة لعلم طبيعة المسيح . إذ إن الطرفين اعترفاً أن كل ما يتعلق بالله لا يمكن تمثيله بالصور بغير التعرض للكفر . وللمسيح طبيعتان : طبيعة بشرية وأخرى ربانية . فادعاء تمثيل الطبيعة البشرية وحدها كان يناقض الاعتقاد باستحالة انفصال الطبيعتين ، وفيه انزلاق إلى ما يسمى بالزندقة النسطورية . على أن الزعم بإمكان تمثيل الطبيعتين معاً في صورة ، يكاد يداني إنكار تمايز الطبيعتين إحداهما من الأخرى ، وبذا يصل إلى الاتفاق مع الهرطقة المقابلة ، وهي هرطقة وحدة الطبيعة (المونوفيزيتية) . وذلك ينطوي أيضاً على ضرب من الكفر ، نظراً لدلالته على الرغبة في تمثيل شيء إلهي . وبذا يصبح كل تمثيل للمسيح مستحيلاً ، وذلك لأنه كان يخالف الأسس الجوهرية للعقيدة المسيحية . انظر ج . أوستروجرورسكي (Rom und Byzanz im Kampfe um die Bilderverehrung", Seminarium Kondakovianum, Vi) (براغ ١٩٣٣ ص ٦٢)

(ص ٣٨٤) (٣) التقسيم الثلاثي لمجتمع العصور الوسطى

تتجلى الطبقات الاجتماعية الثلاث تماماً في التأملات الشخصية التي أدرجها الملك ألفريد الأكبر في ترجمته لكتاب بونيفيوس : « سلوى الفلاسفة » ، *De Consolatione* . وفي تلك التأملات يقول إن المادة الغفل وأدوات الحكم لاى ملك إنما هي : بلاد آهلة بالسكان وقسيسون يقيمون الصلوات ، وجند يشنون الحروب ، وعملة يقومون بالأعمال . ومن العجيب أن اقتراب انحلال هذا الطراز من المجتمع ، عند نهاية العصور الوسطى توضحه فقرة في إحدى العظات (exemplum) الواردة في مخطوطة إنجليزية من القرن الرابع عشر (انظر ج . ر . أوست في *Literature & Pulpit in Medieval England*) (كبرديج ١٩٣٣ ص ٥٥٣) . « خلق الله رجال الدين والفرسان والعمال ، ولكن الشيطان خلق اللصوص والمرايين » . ولما أنزعج الواعظ إزاء النظام المتغير الذي كان يحس في إيهام بما يلم به من تغير ، مثل انقسام المجتمع إلى ثلاثة أقسام على أنه جزاء إلهي ، على حين أنه نظر بعين الخوف والكرهية إلى نمو التجارة الذي يؤذن بنهاية العصور الوسطى .

(ص ٤٠١) (٤) بين العقل والاعتقاد

يثاقش ا.ج. ماكدونلد في كتابه *Authority & Reason in the Early Middle Ages* (أوكسفورد ١٩٣٣) التطورات التالية . فالقواعد المنطقية التي كان يعلمها بونيفيوس للناس والتي أرست أسس الفلسفة المدرسانية ، قد أسيء استخدامها إبان القرون الثانية ، غير أن فئة قليلة من المفكرين الأذكياء أمثال برينجار ويوحنا الاسكتلندي استطاعوا استخدامها بصورة نافعة في التفسير العقلي للكتاب المقدس . وكان برينجار يرى أن العقل أو الإدراك

السليم ينبغي أن يكون الفيصل في شأن أية فقرة من الكتاب المقدس : وهل ينبغي أن يكون تفسيرها حرفياً أو مجازياً أو خليطاً يجمع بين الاثنين . ومن هنا فإن عبارة « Hoc est corpus meum » تفسر فيها الكلمات حرفياً بالخبز ومجازياً بجسم المسيح ولكن السلطات لم تكن تطيق قبول هذه الآراء ، ومن ثم استنزلت كنيسة العصور الوسطى اللعنة على أعمال الرجلين . واكتشفت البابوية في ادعائها الحق في الفصل في المذاهب المذهبية ، سلاحاً قوياً تشهره في صراعها مع الإمبراطورية ، ومن ثم فإن تدخلها الذي كلل بالنجاح في قضية برينجار يعتبر مرحلة في توطيد هذا الادعاء . وتم النصر نهائياً بالتعريف الذي وضعه أنوسنت الثالث لمذهب العشاء الرباني في المجمع الرابع باللاتيران في (١٢١٥) . وبذلك تهيأت الوسائل إلى مجمع ترنت وإلى مجمع الفاتيكان في (١٨٧٠) » وإذ صار هذا التعريف حكماً يرجع إليه في مسائل الإيمان بصورة مستقلة عن تقاليد آباء الكنيسة والتقاليد المتأخرة ، فإنه أقر مبدأ التقاليد وبذلك استبعد العقل من مجال العقيدة . (انظر الموضوع السابق ص ١١٢) .

(ص ٤٠٤) (٥) إيرلندة والمحافظة على الدراسات القديمة

استلقت الطابع السكتي لإحياء العلوم والآداب بنورنمبريا أنظار الناس إليه في الآونة الأخيرة (انظر ل. جوجوه في . Christianity in Celtie Lands) لندن ١٩٣٢ ص ٥٠ - ٥٥ . ونظراً لأن الأديرة الإيرلندية كانت تقع في بلاد ظلت على الدوام خارج دائرة الإمبراطورية ، فإنها خلت من كل أثر للعقائد اليونانية الرومانية ، ولذا لم تكن تخشى كغيرها ما ارتبط بالآداب القديمة (الكلاسيكية) من ارتباطات وشوائب وثنية . ونظراً لما اشتهر به مسيحيو إيرلندة من سعة الاطلاع واستيعاب ما كتبه قدماء المؤلفين وشغفهم

بنظامهم القومى وانجاههم الاستقلالى الذى لا يضارعه سوى ولعهم بدراسة الأسفار المحذوفة (من الكتب المقدسة) التى تنكرها روما وتمنعها ، كل ذلك جعل منهم مدرسة فكرية متميزة ، وخطراً يهدد السلطة المركزية للبابوية ، لم يستأصله إلا ما حل بهم من هزيمة فى مجمع هويتى (١٦٦٤) ، غير أن تلك الهزيمة لم تصبهم إلا بعد أن تمكنوا بمساعدة ثيودور وهادريان (وكلاهما لا ينتمى إلى مدرسة جريجورى) من تمثيل قدر كبير من تراث العلوم القديمة ، ونقلها إلى العلماء الإنجليز السكسون ومنهم إلى فرنسا الكارولنجية ، وهى علوم لولا الإيرلنديون لتعرضت للدمار . وقبل ذلك الأوان بزمن مديد كان الأنز الكلتى يتغلغل فى أوروبا حتى فورزبرج وسالسبرج وبوبيو ، ولذا فإن الجانب الأكبر من المحافظة على الثقافة الكلاسيكية فى الغرب فى أثناء هذه الفترة ، إنما يرجع بحق إلى الكنيسة الكلتية الخارجة على الأرثوذكسية .

(ص ١٩٩) (٦) النصوص القانونية الثلاثة

لم تكن « الفصول الثلاثة » فى الأصل سوى ثلاثة نصوص وردت فى مرسوم أصدره جستنيان فى ٥٤٣ ، رعى به إلى مصالح أصحاب مذهب وحدة الطبيعة وندد فيه ببعض الكتابات التى كتبها ثلاثة من رجال اللاهوت فى القرن الخامس ، اتهموا ببعض الميول النسطورية . ولم يلبث اسم « الفصول الثلاثة » أن انتقل من هذه النصوص إلى الكتابات ذاتها ، واستخدم الاسم هنا فى معناه الأخير ، ولكن مجمع خلقدونية (٤٥١) الذى لعب فيه ليو الأكبر دوراً رئيسياً والذى لقى فيه أتباع مذهب وحدة الطبيعة (المونوفيزيتيون) الهزيمة ، قد رد الاعتبار إلى رجال اللاهوت الثلاثة الذين دار حولهم النزاع ،

وبذلك أدخل في الأمر نقطة خلاف رئيسية بين الاسكندرية وبين الكاثوليك
الغربيين . ولما لم ينجح جستنيان في الوصول إلى نتيجة بإقضاء البابا عن
الكرسى البابوى ، دعا في (٥٥٣) إلى عقد المجمع الثانى بالقسطنطينية ، وفيه
حقق رغبته رسمياً بإعلان بطلان « الفصول الثلاثة » . على أن قرارات المجمع
لقيت مقاومة عنيفة في الغرب ، ومع ذلك فقد اعترف الغرب نفسه بأنه مجلس
مسكونى ، وأنه صحيح ، له من الصحة ما للمجالس الأربعة السابقة ، وذلك في
عهد جريجورى الكبير .

الآباطرة والبابوات

البابوات	الآباطرة
٣٦٦ داماسوس الأول	٣٧٩ ثيودوسيوس الأول (الكبير)
٣٨٥ سيريكوس	٣٩٣ هونوريوس (في الغرب)
٣٩٩ أناستاسيوس الأول	٣٩٥ اركاديوس (في الشرق)
٤٠١ انوسنت الأول	٤٠٨ ثيودوسيوس الثاني (الشرق)
٤١٧ زوسيموس	٤٢٥ فالنتينيان الثالث (الغرب)
٤١٨ بونيفاس الأول	٤٥٠ مرقيان (الشرق)
٤١٨ (يوليوس ، البابا المناهض)	٤٥٥ مكسيموس ، أفيتوس (الغرب)
٤٢٢ سيلستين الأول	٤٥٧ ماجورين (الغرب)
٤٣٢ بيكتوس الثالث	٤٥٧ ليو الأول (الشرق)
٤٤٠ ليو الأول (الكبير)	٤٦١ سيفيروس (الغرب)
٤٦١ هيلاري	٤٦٧ انثيميوس (الغرب)
٤٦٨ سيمبليكيوس	٤٧٢ أوليبريوس (الغرب)
٤٨٣ فيلكس الثالث	٤٧٣ جليكريوس (الغرب)
٤٩٢ جيلاسيوس الأول	٤٧٤ يولبيوس نيبوس (الغرب)
٤٩٦ أناستاسيوس الثاني	٤٧٤ ليو الثاني (الشرق)
٤٩٨ صباخوس	٤٧٤ زينون (الشرق)
٤٩٨ (نارس ، البابا المناهض)	٤٧٥ رومولوس أوغسطولوس (الغرب)
٥١٤ هورميسدس	٤٩١ أناستاسيوس الأول
٥٢٣ يوحنا الأول	٥١٨ جستين الأول
٥٢٦ فيلكس الرابع	٥٢٧ جستينيان
٥٣٠ بونيفاس الثاني	٥٦٥ جستين الثاني
٥٣٠ (دبوسفوروس ، البابا المناهض)	٥٧٨ تيريوس الثاني
٥٣٣ يوحنا الثاني	٥٨٢ موريقيوس
٥٣٥ أجاييتوس الأول	٦٠٢ فوقاس
٥٣٦ سيلفيريوس	٦١٠ هرقل
٥٣٧ فيجيليوس	٦٤١ قسطنطين الثالث هرقليوناس ،
٥٥٥ بيلاجيوس الأول	قسطناس الثاني
٥٦٠ يوحنا الثالث	٦٦٨ قسطنطين الرابع (يوجونانوس)
٥٧٤ بندكت الأول	٦٨٥ جستينيان الثاني

البابوات	الأباطرة
٥٧٨ بيلاجيوس الثانى	٦٩٥ ليونتيوس
٥٩٠ جريجورى الأول (الكبير)	٦٩٨ تيرىوس الثالث
٦٠٤ سابينا نوس	٧٠٥ جستنيان الثانى يعود للعرش
٦٠٧ بونيفاس الثالث	٧١١ فيليب باردانس
٦٠٧ بونيفاس الرابع	٧١٣ اناستاسيوس الثانى
٦١٥ ديوسيديت	٧١٦ ثيودوسيوس الثالث
٦١٨ بونيفاس الخامس	٧١٧ ليو الثالث (الإيسورى)
٦٢٥ هونوريوس الأول	٧٤٠ قسطنطين الخامس (كوبرونيغوس)
٦٣٨ سيفرينوس	٧٧٥ ليو الرابع
٦٤٠ يوحنا الرابع	٧٨٠ قسطنطين السادس
٦٤٢ ثيودور الرابع	٧٩٧ ايرين تخلف قسطنطين السادس
٦٤٩ مارتى الأول	٨٠٢ ثقفور الأول
٦٥٤ يوجين الأول	٨١١ ميخائيل الأول
٦٥٧ فيتاليان	٨١٣ ليو الخامس
٦٨٢ اديودانتوس	
٦٧٦ دمنوس أو دومس الأول	
٦٧٨ أجانو	
٦٨٢ ليو الثانى	
٦٨٣ (؟) بندكت الثانى	
٦٨٥ يوحنا الخامس	
٦٨٥ (؟) كونون	
٦٨٧ سرجيوس الأول	
٦٨٧ (بسكال ، البابا المناهض)	
٦٨٧ (ثيودور ، البابا المناهض)	
٧٠١ يوحنا السادس	
٧٠٥ يوحنا السابع	
٧٠٨ سيسينيوس	
٧٠٩ قسطنطين	
٧١٥ جريجورى الثانى	
٧٣٠ جريجورى الثالث	
٧٤١ زخارياس	
٧٥٢ اسقفى الثانى	
٧٥٧ بولس الأول	
٧٦٧ (قسطنطين ، البابا المناهض)	
٧٦٨ اسقفى الثالث	
٧٦٢ هادريان الأول	
٧٩٥ ليو الثالث	

جدول تاريخي

الأوضاع الحضارية	الأحوال الدينية	الأحوال السياسية	
		في الشرق	في الغرب
ح ٣٣٠ وفاة إيامبليكوس ٣٤٠ وفاة يوسيبوس	٣١٢ مرسوم ميلان ٣٢٥ مجمع نيقية ٣٢٨ - ٧٤ اثنا سيوس أسقف الإسكندرية	٣٣٠ إنشاء القسطنطينية	٣٥٧ - ٨ حملات جوليان على الراين
٣٧٩ وفاة باسيل أسقف قيصرية	٣٧٤ - ٩٧ امبروس أسقف ميلان	٣٧٦ عبور القوط للدانوب ٣٧٨ معركة أدرنة	
٣٨٨ وفاة أوليفلاس ح ٣٩٥ وفاة أوسونيوس	٢٨١ نيم القسطنطينية	٣٩٥ وفاة ثيودوسيوس الكبير	
ح ٤٠٠ وفاة أميانوس ماركيليونيوس ح ٤٠٦ وفاة بروذنتيوس	٣٩٨ كرزوستوم أسقف القسطنطينية	٤٠٠ تمرد جايئاس	٣٩٩ معركة إفريجيديوس
ح ٤٠٨ وفاة كلوديان			٤٠٦ تأسيس المملكة البرجندية على الراين ٤٠٦ - ٧ الوندال يفزون غالة ٤٠٨ إعدام استيليكو ٤٠٩ الوندال والألات والسويث في ألبانيا

الأوضاع الحضارية	الأحوال الدينية	الأحوال السياسية	
		في الشرق	في الغرب
٤١٩ وفاة جيروم		٤١٣ بناء أسوار القسطنطينية البرية	٤١٠ استيلاء ألامريك على روما ٤١٢ القوط الغربيون في غالة
			٤١٦ - ١٨ القوط الغربيون بأسبانيا
			ح ٤٢٠ - ٤٠ الأنجلو سكسون بريطانيا
٤٣٠ وفاة أوغسطين	٤٢٨ نسطوريوس أسقف القسطنطينية ٤٢٩ بعثة التبشير الجرمانية إلى بريطانيا ٤٣١ مجمع إفيسوس	٤٢٨ - ٦٣٣ الحكم الفارسي بأرمينية	٤٢٨ ارتقاء جاييسريك العرش
			٤٢٩ الوندال في إفريقية
			٤٣٦ نهاية المملكة البرجنديّة الأولى
٤٣٨ قانون ثيودوسيوس	٤٤٤ وفاة كيرلس الإسكندري ٤٤٩ لاتركييوم في أفيسوس ٤٥١ مجمع خلقدونية ٤٦١ وفاة ليو الكبير	٤٣٣ ارتقاء أنيلا العرش ٤٥٠ وفاة ثيودوسيوس الثاني	٤٣٩ الوندال يستولون على قرطاجنة
			٤٥١ معركة سهل موريك
			٤٥٤ اغتيال أنثيوس
			٤٥٥ جاييسريك ينهب روما
			٤٦٨ ارتقاء يوريك
			٤٧٢ وفاة ريكيمر
			٤٧٦ خلع رومولوس أوغسطولوس

الأوضاع الحضارية	الأحوال الدينية	الأحوال السياسية	
		في الشرق	في الغرب
ح ٤٨٣ وفاة سيدونيوس أبوليناريوس	٤٨١ الشقاق الديني بين روما والقبطية		٤٨١ - ٥١١ عهد كلوفيس
	٤٨٢ زينون يصدر رسالة الاتحاد		٤٨٦ كلوفيس يهزم سياجريوس
			٤٨٨ القوط الشرقيون ينطلقون نحو إيطاليا
		٤٩١ ارتقاء أناستاسيوس الأول	٤٩٣ - ٥٢٦ حكم ثيودوريك بإيطاليا
٥٠٦ صدور قانون أاريك	٤٩٦ تمديد كلوفيس		٤٩٦ كلوفيس يهزم الألمان ح ٥٠٠ اللومبارديون بين التييس والدانوب
			٥٠٧ معركة فوجلي. كلوفيس يفتح أكيثانيا
			٥٠٨ استيلاء القوط الشرقيين على بروفانس
	٥١٨ نهاية الانشقاق بين روما والقسططينية	٥١٨ ارتقاء جستين العرش	
٥٢٣ إعدام بونثيوس		٥٢٧ ارتقاء جستينيان	
٥٢٩ إغلاق مدارس أثينا			٥٣١ الفرنجة يدمرون الملكمة الثورنجية
٥٢٩ إنشاء دير مونتني كاسينو		٥٣١ - ٧٩ عهد كسرى	٥٣٢ - ٤ الفرنجة يفتحون برجنديا
٥٣٣ نشر الموجز القانوني		٥٣٣ بلساريوس يفتح إفريقيا	

الأوضاع الحضارية	الأحوال الدينية	الأحوال السياسية	
		في الشرق	في الغرب
٥٣٧ هـ بناء كنيسة القديسة صوفيا		٥٣٦ هـ - ٧ بليساريوس في روما	
		٥٤٠ هـ الفرس يستولون على أنطاكية	
	ح ٥٥٠ وفاة بندكت من نورسيا	ح ٥٥٠ الآفار والبلغار على الدانوب الأدنى	
	٥٥٣ هـ جمع القسطنطينية	٥٥٢ هـ نارسيس يعيد فتح إيطاليا	٥٥٢ هـ الفرنجة يخضعون بافاريا
		٥٥٤ هـ القرار التنظيمي	
ح ٥٦٢ وفاة بروكوبيوس		٥٦٥ هـ وفاة جستنيان	
ح ٥٦٥ كولومبا يؤسس دير أيونا		٥٦٦ هـ - ٧ اللومبارد والآفار يدمرون مملكة الجيبيد	٥٦٧ هـ تقسيم فرنسا إلى أوستراسيا ونوستريا وبرجنديا
	ح ٥٧٠ مولد محمد (ص)		٥٦٨ هـ اللومبارديون في شمال إيطاليا
			٥٧٥-٦١٣ هـ وصاية برنهيلدا على العرش
ح ٥٨٤ وفاة كاسيودوراس			٥٨٤ هـ - ٩٠ أوثاري ملكا على اللومباردين
	٥٨٦ هـ ريكارد حاكم أسبانيا القوطي الغربي يعتنق الكاثوليكية		٥٨٥ هـ نهاية مملكة السويف في شمال أسبانيا
	٥٩٠ هـ جريجوري الكبير يتولى البابوية		٥٩٠-٦١٦ هـ اجيلوف ملكا على اللومبارد

الأوضاع الحضارية	الأحوال الدينية	الأحوال السياسية	
		في الشرق	في الغرب
٥٩٤ وفاة جريجورى أسقف تور	٥٩٧ نزول أوغسطين	٦١٠ ارتفاع هرقل العرش	٦١٣ اتحاد أوستراسيا وبرجنديا
٥٩٧ وفاة كولومبا	٦٠٣ اللومبارديون يحتلون الكاثوليكية	٦١٤ الفرس يستولون على دمشق وبيت المقدس	
٦١٣ تأسيس دير القديس جال	٦٠٤ وفاة جريجورى الكبير	٦١٩ الفرس يغزون مصر	
٦١٥ وفاة كوليمان مؤسس ديرى بويو ولكسول	٦٢٢ الهجرة النبوية	٦٢٦ حصار الآفار والفرس للقسطنطينية	
	٦٢٢ - ٨٠ معركة وحدة لإرادة المسيح	٦٢٨ هرقل يهزم الفرس نهائيا	٦٢٩ - ٣٩ حكم داجوبرت
	٦٢٧ نورثمبريا تنصّر	٦٣٣ - ٩٣ حكم بيزنطة بأرمينية	
	٦٣٢ وفاة محمد (س)	٦٣٤ خلافة عمر	
	٦٣٦ صدور وثيقة الإيمان الجديد (Ekthesis)	٦٣٤ العرب يغزون فلسطين	
		٦٣٦ معركة اليرموك	
		٦٣٧ معركة القادسية	
		٦٣٩ - ٤١ العرب يفتحون أرض الجزيرة	

الأوضاع الحضارية	الأحوال الدينية	الأحوال السياسية	
		في الشرق	في الغرب
		٦٤٢ سقوط الإسكندرية ٦٤٢ - ٣ العرب يفتحون فارس	٦٤٣ - ٥٦ جريموالد ناظرأ للنصر في أوستراسيا
	٦٤٨ صدور قرار الإمبراطور المعروف بالصورة (Type)	٦٤٧ العرب يفتحون طرابلس	
	٦٦٤ يجمع هويثي ٦٦٩ - ٩٠ ثيودور أسقف كثرت برى	٦٤٩ العرب يفتحون قبرص ٦٦١ - ٧٥٠ خلافة الأمويين بدمشق ٦٦٤ العرب يغزون البنجاب	
	٦٧٨ بدء تنصر فريزيا ٦٨٠ يجمع القسطنطينية	٦٧٣ العرب يهاجمون القسطنطينية	ح ٦٨٠ الصلح بين اللومبارد والبيزنطيين ٦٨٣ مقتل ابروين
	ح ٦٨٦ تنصير مملكة ساسكس		٦٨٧ معركة ترنرى
ح ٦٩٠ وفاة بندكت بيسكوب	ح ٧٣٩ - ٧٩٠ ويلبرود في الأراضي المنخفضة ٦٩٢ يجمع ترولا	٦٩٣ - ٨٦٢ حكم العرب بأرمينية	٧٠٩ - ١٠ حملات بيدين على الألمان
ح ٧٠٠ بيوولف ٧٠٩ وفاة ألدهيلم			

الأوضاع الحضارية	الأحوال الدينية	الأحوال السياسية	
		في الشرق	في الغرب
ح ٧١٠ إنشاء المسجد الأموي بدمشق			٧١٢ - ٤٤ ليوتبراند ملكا للمبارد ٧١٣ - ٣٤ العرب يفتحون أسبانيا كلها عدا استورياس ٧١٤ وفاة يمين
	٧١٥ - ٣١ جريجورى الثانى	٧١٧ ارتقاء ليسو الثالث (الإيسورى) العرش ٧١٧-١٨ حصار القسطنطينية	٧١٧ - ٤١ شارل مارتل عاقظاً للقصر ٧٢٠ - ٥٩ العرب فى أربونة
٧٢٤ إنشاء دير ريشناو		٧٢٥ ليو الثالث يبدأ حملة تخليم الصور المقدسة	٧٣٢ معركة نور پواتيه
	٧٣١ - ٤١ جريجورى الثالث		٧٣٥ شارل مارتل يخضع أكيثانيا وجنوب برجنديا
	٧٣٣ إخراج جنوب إيطاليا وصقلية والليرة وكريت من التبعية الكنسية لروما		
٧٣٥ وفاة يمينه	٧٣٩ جريجورى الثالث يلتمس معونة شارل مارتل		
٧٤٠ صدور الإكلوجا		٧٤٠ وفاة ليو الثالث	٧٤٣ - ٥١ تشلديريك الثالث آخر ملوك الميروفنجيين

الأوضاع الحضارية	الأحوال الدينية	الأحوال السياسية	
		في الشرق	في الغرب
			٧٤٨ - ٨٨ : تاسيلو آخر دوق مستقل لبافاريا
		٧٥٠ سقوط الأمويين	٧٥١ اللومبارديون يستولون على رافنا
٧٥٣ وفاة يوحنا الدمشقي	٧٥٢ - ٧ : استيفن الثاني		٧٥٣ استيفن الثاني يعبر الألب
	٧٥٤ وفاة بونيفاس مؤسس الكنيسة الجرمانية		٧٥٤ البابا يتوج بيدين
		٧٥٦ - ٦٥ الحملات على البلغار	٧٥٦ وفاة ايستولف
			٧٥٧ - ٧٤ ديسديريوس ملكاً على اللومبارد
	٧٥٧ - ٦٧ بولس الأول		٧٥٧ - ٩٦ أفا ملك مرسيا
			٧٦٠ - ٨٨ بيدين يخضع أكتانيا
٧٦٣ تأسيس دير لورش		٧٦٣ بغداد تصبح عاصمة الدولة العباسية	
	٧٦٤ - ٧١ اضطهاد عبدة الصور		٧٦٨ ارتقاء شلمان وكارلومان
			٧٧١ وفاة كارلومان
			٧٧٢ - ٨٠٤ حروب السكون
			٧٧٤ سقوط مملكة اللومبارد
			٧٧٨ معركة رونسيفال
		٧٨٠ - ٩٠ وصاية الإمبراطورة لميريني	
		٧٨٦ - ٨٠٩ هرون الرشيد	

الأوضاع الحضارية	الأحوال الدينية	الأحوال السياسية	
		في الشرق	في الغرب
	٧٨٧ إرميني تعيد عبادة الصور		٧٨٧ شرلمان يخضع بفتنتو ٧٨٨ قيام مملكة الإدارة بمراكش
	٧٩٠ الرسائل الشرلمانية		٧٩١ - ٦ حملات شرلمان على الآفار
٧٩٣ الداعمركيون ينهبون دير لندس فارن	٧٩٤ دابت فرانكفورت ٧٩٥ - ٨١٦ ليو الثالث	٧٩٧ مصرع قسطنطين السادس	٧٩٧ مرسوم سكسونيا ح ٨٠٠ استقلال تونس ٨٠٠ تنويج شرلمان
ح ٨٠١ وفاة بولس الشماس		٨٠٢ - ١١ نففور الأول إمبراطورا	
٨٠٤ وفاة ألكوين		٨٠٩ غزوات البلغار	٨١٣ لويس التقى يتوج في آخن ٨١٤ وفاة شرلمان
	٨١٥ جمع القسطنطينية وتخطيم الصور	٨١٤ وفاة كروم حاكم البلغار	
٨٢١ وفاة ثيودولف الأورلياني	٨٢٦ وفاة ثيودورس رئيس دير ستوديون		

الفهرس الأجدى

- | | |
|-------------------------------------|----------------------------------|
| أريوس ١٣١ ، ٦٩ ، ٦٨ | (١) |
| الآريوسية (مذهب) ٧٧ ، ٦٨ ، ٦٧ | آثيوس ١١١ ، ١٠٨ ، ٩٦ |
| ٣٢٦ ، ٢١٢ ، ١٩٧ — ١٩٥ ، ١٣١ | آخن ٣٦٩ ، ٣٤٨ ، ٣٤٦ ، ١٥٦ |
| أسبار ١١٢ ، ١١١ | أبو بكر ٢٥٩ |
| أسبانيا ١٦ ، ١٩ ، ٤٠ ، | أبو العباس السفاح ٢٦٢ |
| الوندال بها ٩١ ، ٧٥ | آيون ٦١ |
| القوط الغربيون بها ٨٧ ، ٩١ ، ٢٥٥ | الاتحاد (كتاب) |
| علاقة جستنيان بها ١٨٦ | أنولف ٢٨٧ |
| الفتح الإسلامي ٢٥٤ ، ٢٥٧ ، ٢٦٤ | آبلا ١٠٩ ، ٩٧ ، ٩٥ ، ٥٦ |
| شرلمان وعلاقته ٣٥٣ | أجوبارد ٢٨٦ |
| إسبوليتو ٣٣٥ ، ٢٧٠ | الإخمينيون ٢٦٧ |
| استرابون ١٨ | الآدب |
| الاستضافة (نظام) ١١٨ ، ١٢٤ | الإسلامى ٢٧٣ |
| استيليكو ، ٣٨ ، ٤١ ، ٧٦ ، ٧٩ ، ٩٩ ، | السرياني ٥٧ |
| ٢٨٧ | القبطى ٥٧ ، ٦١ ، ٣٢٣ |
| الإسكندر ٢٣ | إدريس بن عبد الله ٢٦٣ |
| الإسكندرية ١٦ ، ٢٩ ، ٦٢ ، ١٦٠ ، | أدونة (معركة) ١١٠ ، ٨٥ ، ٢٦ ، ٤٢ |
| ٢٥٣ | أربوجاست ٨٥ |
| اسكنديناوه ٧١ ، ٧٥ ، ٨٤ ، ٢٩٨ | أرستوفانيس ٦٥ |
| الإسلام ٩ ، ٢٣٩ | أرسطو ٣٣ ، ١٧٢ |
| الإغريق | أركاديوس ٣٧ ، ٥١ ، ١٠٢ ، ١١١ |
| لغتهم ١٩ | إرلندة ١٦ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ٣٢٨ |
| هجرة السكان ٢٠ | إرمانريك ٨٣ |
| بسوريا ومصر ٢٠ | |

الآلامان ٤١ ، ٧٥	القوط الغربيون بلادهم ٤١ ، ٨٤
ألفريد ١٢٧	١٠٥
ألكوين ٢٩١ ، ٣٣١ ، ٣٤٧ ، ٣٦٦	الصقالبة بينهم ٢٩١
إلليزية ٤٦ ، ٤٧ ، ١٠٧	الآفار : ٢١٦ ، ٢٨٨
أمالاسونثا ١٣٠ ، ١٧٧ ، ١٧٨	علاقتهم بينزطة ٢٣٣ ، ٢٣٤
أمبروز ١٨٥	باللومبارد ٢١٦
الإمبراطورية الرومانية ٢١ ، ٢٦	وبالصقالبة ٢٩٥ ، ٢٩٨
الإمبراطورية الرومانية الشرقية ٢٢ ، ٣٧	وبالفرنجية ٢٩٨ ، ٣٥٤
أموداريا ٤٣	إفريقية ، ولاية ١٦
الامويون ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٤ ، ٢٧٧	الحدود ٤٥
أناستاسيوس الإمبراطور ٥٠ ، ١٣٠ ،	الوندال فيها ٩١
١٣٨ ، ١٥٠ ، ١٧٨	إعادة فتحها ١٦٩ — ١٧٢
الأنجلوسكسون	هرقل يبحر منها ٢٣١
غزواتهم ٢٨٢ ، ٢٨٤	الفتح الإسلامي لها ٢٥٤ — ٢٥٥
بمالكهم ٢٨٥	الأسير الإسلامية المالكه ٢٦٢
نظمهم ٢٨٦	أفلاطون ٣٣
عادتهم ٢٩٢	الأفلاطونية الحديثة ٣١ ، ٣٢
الانشقاق الصغير ٢٠١	أفلوطين ٣١
أنطاكية ١٦ ، ١٧ ، ٢٩ ، ١٥٦	إفيسوس (بجمع) ٧٠
أنطونيوس ٧٣	إكا كيوس ٧٤
إفيسوس ٢٩	أكتانيا ١٦ ، ٧٦ ، ٩١ ، ١١٣ ، ٣٧٠
أنيكى (أسرة أنيكيدس) ٦١	الاربيك الأول ٣٩ ، ٨٦ ، ٩٠ ، ٩٩
الأوجستيم ١٤٤ ، ١٤٨ ، ١٦٤	١٠٦ ، ١١٠ ، ١٩٤
أورليان ٢٥ ، ٢٦ ، ٥٧	الاربيك الثانى ١١٦ ، ١١٩ ، ١٩٥
أودواكر ٣٨ ، ١٠٠ ، ١٠٦	الالان ٧٦ ، ٩١ ، ٩٧
أوستراسيا ٣١٤	

أوسونيوس ٦٤، ٦٧، ٣٦٠	جمع خلق دونية ٧٢
أوغسطس ١٥، ٢٣، ٤٣، ٢٠٤	ثيودوريك والبابوية ١٣٧-١٣٨
أوغستين ١٥، ٣٦، ٢٩، ٣٢٩	جستنيان معها ١٨٧
٣١٨	الومبارد معها ٢١٣
أوغستين من كانتربري ٢٢٦،	مناهضة عبادة السور معها
٢٢٨، ٢٩٠	٣٠٤-٣٠٥
أوفا ٢٨٦، ٣٤٤	الكارولنجيون معها ٣١٧
أوفيد ٣٦٤، ٣٦٩	تطورات بالقرنين السابع والثامن
أولفيلاس ١٣١	٣٢٦
أيامبليكوس ٣٢	جرميجوري الكبير ١٨٧، ٣١٧،
إيزيدور الاشيلي ٢٩٦	٣٨٨، ٣٢٦
أيستولف ٣٣٩	بانريك ٤١
إيسوريا والإيسوريون ٤٧،	باخوميوس ٧٣
الأسرة ٣٠٠	البارثيون ٢٤، ٤٥،
إيطاليا ١٦، ٢٠، ٢٥	باسيليوس ٧٣
الآريك بها ٨٤-٨٥، ١٠٦	بافاريا ٧٥، ٣٠٩، ٣٤٨، ٣٧٠،
أيتلا بها ٩٧	البحر الأحمر ١٨
تحت ثيودوريك ١٢٤	البرابرة ١٧، ٢٥، ٤٢، ٧٥،
إعادة فتحها ١٧٨، ١٨٤	برانيلدا ٢٢٦، ٢٢٧، ٣١٢،
إيطاليا البيزنطية ١٨٥، ٢٠، ١٨٦،	٣٤٣، ٣١٣
٢١٦ - ٢١٩	البربر ٢٠٣، ٢٥٤، ٢٥٥،
الومبارد ٣٣١	برتراذا ٣٤
الفرنجية بها ٣٣٦، ٣٣٩	برجنديا والبرجنديون
آينهارت ٣٦٩، ٣٧٠	على الراين ٤١، ٧٥، ٧٧، ٨٤،
(ب)	١١٠
البابوية	في سافوي ١١٤، ١٢٧،
حتى القرن الرابع ٢٦ - ٢٧، ٦٨	

٢٩٨ — ٢٩٩ ، ٣٠٢	متحفون مع الفرنجة ١٣٠ ، ١٣٣
البليون ٢٠٢	تحت الميروفنجيين ٣٠٧ ، ٣٠٨ ،
بليدا ٩٥ ، ٣٣١	٣١٣ ، ٣١٢
بليساريوس ٤٧ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ،	مالكهم المستقلة ١٠٨ ، ١٢٦ ،
١٧٩ ، ٢١١	٣٧٠
بنجايوس ٦٤	برقة ٤٣ ، ٧٤
بنديكت ١٨٥	برودونتيوس ٦٥
بنيفنتو ٢١٣ - ٢١٤ ، ٢٣١ ،	بروفانس ١٦ ، ٤٢ ، ١٢٩
٣٣٤ ، ٣٧٠	القوط الغربيون بها ١١٢ - ١١٤ ،
بواتيه (مركة) ٨٨ ، ٣١٥	٣٣
بوثيوس ١٢٧ ، ١٣٩ ، ٢٨٧	القوط الشرقيون بها ١١٥ ، ١٢٩ ،
بورديو ٨٨	١٣٣
بوخيريا ٧٢	الفرنجة بها ١٨٥
بونطش ٢٠٧	غارات المسلمين ٢٥٦
بونيفاس ٩٢ ، ٣١٨ ، ٣٣٠ ، ٣٥١	حكم الكارولنجيين ٣١٥
البونيون ٤٣	بروكويوس ٤١ ، ١٥٠ ، ١٥٣ ،
بوهيميا ٢٩٨	١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٨٢
بيبين الاول ٣٣٩	بريتاني ٤١
بيبين الثاني ٣١٤	بريسكوس ٦٥
بيبين الثالث ٣٣٩	بريطانيا ١٥ ، ١٦ ، ٤٠ ، ٧٥ ،
بيده ٢٩١ ، ٣٦٥	٢٨٣ - ٢٩٠
بينظة (انظر القسطنطينية)	بعلبك ١٩٦
بيسكوب ٣٣١ ، ٣٦٥	بغداد ٢٦٢ - ٢٧٥
بيلاجيوس ٢٠٠	بلاد العرب ١٦ ، ١٦٠ ، ١٨٨ ،
(ت)	٢٣٩ - ٢٤١
تاكيوس ٤٧ ، ٦٣ ، ٧٥ ، ٣٨٤	البلغار ١١٣ ، ٢٠٠ ، ٢١٦ ، ٣١٣ ،

ثيودور الإستوديوى ٣٠٨، ٣٠٠	التجارة
٣١٩	الرومانية ١٧، ٢٥، ٢٤١
ثيودورا (الإمبراطورة) ١٧٢، ١٥٠	الميروفنجية ٣٣٩
٣٠٥، ٢١٠	الفارسية ١٦٢
ثيودورريك استرابون ١١٢	الإسلامية ٢٤١—٢٧٠
ثيودورريك الأكبر ٨٣، ٣٩، ١٠٣	الكارولنجية ٢٧١، ٢٧٢
١٢٤، ١٣٧، ١٧٧، ٣٣١، ٣٧١	البيزنطية ١٦٠
ثيودوسيوس الأكبر ٤٢٠، ٣٧٠، ٢٩	الخلاصة ٣٧٥
٢٤٧، ١٠٣، ٨٥، ٦٧	تحطيم الصور ٣٣٨، ٣٤٣
ثيودولف الأورليانى ٣٦٠، ٣٦١	تدمر ٢٥
٣٦٣، ٣٦٧، ٣٦٩	تراجان ٣٧، ٥٨، ٨٤
(ج)	تراقيا ٣٩
جائناس ١٠٧، ١١٠	ترترى (معركة) ٣١٣، ٣١٥
جالا بلاسيديا ٨٧، ٨٨، ١٠٨	الترك ٢٥١، ٢٥٧، ٢٧٦
جالينوس ٢٦	ترولان (مجمع) ٣٣٥
جاندوباد ١٣٥، ١٣٦	ترويس (معركة) ٩٣
جراكوس ٢٣٣	تريف ٧٩، ١٢١
جرمانوس ١٧٥	توتيل ١٧٧، ١٨١
الجرمان ٤١، ٤٤، ٤٥، ٧٨	التوحيد المشوب ٣١
ألمانيا ٧٧—٨٢	تور (معركة) ٢٥٦، ٣١٣
الملكية عندم ٧٧، ٧٩، ١١٦	تيربوس الثانى ٢٢٩
١٢٤، ٢٨٩، ٣٥٦	التيتونون ٤١
الضرائب ٣١٦، ٣٥٥	(ث)
القوانين ٣١٩، ٣٦٠، ٣٨٣	ثورنجيا ١٢٧
مذهبهم الآريوسى ١٣٠	ثوسيديديس ١٥٢
جرود ٢٠٤	ثيوداهاد ١٧٧، ١٧٨
	ثيودليندا ٣٢٢

جوليان ٣٣٠ ، ٤١ ، ٨٩ ، ٢٠٧
جيون ١٦٢
جيتيشنج ٨٨
جيروم ١٧ ، ٤٠ ، ١٨٥ ، ٣٨٨
جيليمر ١٧٣ ، ١٧٤
جيبيد ٧٥ ، ٩٥ ، ١٣٠ ، ٢١٢

(ح)

الحبشة ١٦٨ ، ١٦٢ ، ١٦٣
حدود الراين ٧٧
حنة السباق ٤٩
حمير ٢٠٢
الحيرة ٢٧٠

(خ)

الخضر والزرق ١٤٨ ، ٢١١
خلقدونية
مجمع ٧٣ ، ١٩٩
الفرس فيها ٢٣٠ - ٢٣٣
العرب فيها ٢٥٧

(د)

داجوبرت ٣١٣
داماسيوس ٦٨
دارا ٢٢٩
داكيا ٧٥ ، ٨٤ ، ٢٩٥
الدانوب وحدوده ٤٢ ، ٢٤٩ ، ٣١٢
دسيديوس ٣٤٠

جرمجوري (أسقف تور) ٣٢٠ ،
٣٦٠ ، ٣٢٤
جرمجوري الكبير ١٨٧ ، ٢٢٠ - ٢٢٧ ،
٣١٢ ، ٣١٧ ، ٣٢٦
جرموالد ٣٢٥
جستنيان ٢٦ ، ٤٧ ، ٧٢ ، ١٤١ ،

١٤٤ ، ١٥٠

القسم الثاني بمواطن متفرقة

فتنة نيقا ١٦٩

سياسته الدينية ١٩٥

خلقه ١٦٩

حروبه مع فارس ٢٠٨

حروبه مع الوندال ١٧٤

حروبه مع القوط ١٨١ ، ١٨٢

نظامه الإداري ١٨٨ ، ١٩٠

تشريعه ١٩١

ديپلوماسيته ، وفاته ٢١١

جستنيان الثاني ٣٣٧

جستين الاول ١٣٠ ، ١٣٨ ،

١٥٠ ، ١٦٩ ، ٢٠٥

جستين الثاني ٢٢٨

جزريك ٣٧ ، ٩٢ ، ١١٧ ، ١٣٣

الجلادون ٥٧

جنديك ٨٣

جوديچيل ٩٠

جوفينال ٦٣

الرمزية (مذهب) ٣٩٩ ، ٤٠٠	دقلديانوس ٢٦ ، ٣٧ ، ٤٤ ، ٤٩ ، ٥٣
رهبانية (انظر ديرية) ٧٣	٣٧٨ ، ٨٥
الروانيون ٣١	دمشق ١٦ ، ١٨ ، ٢٣١ ، ٢٤٩ ، ٢٧١
روفينوس ١١٠	دولة المدينة ٥٨
روما (مدينة) ١٥ ، ٢٠	الدوناتي (الانشقاق) ٥٦ ، ٢٢٤
اضمحلالها ١٨٤ ، ١٨٦	الدوناتيون ١٧٤ ، ١٩٧
سقوطها ٥٦	ديدالوس ٦٤
تحت حكم ثيودوريك ١٢٤	الدية ١١٦ ، ١٩٠ ، ٣٢٧ ، ٣٤٣
بليساريوس بها ١٧٩	الديرية ٧٣ ، ٧٤ ، ١٧٢
بزنطة (علاقتها) ٢١٦ ، ٣٣٤	الديكيو ٣٤١
البابوية (تحت) ٢٩٠ ، ٣٦٠ - ٣٦١	ديوسقوروس ٧١
الوثنية بها ٢٨	(ر)
الرومانيون ٢٩٦	راداجيسوس ٩٩
رومولوس ٤٠ ، ١٠٩	رافنا ٥٢ ، ١٠٨ ، ١٥٥ ، ٢١٧
روفسيسفال ٣٥٥	قصة الإمبراطورية ٣٩ ، ٥١
ريكاريد ١٣٦ ، ٣٢٦	حصار القوط آشرفيين لها ٨٣
ربكيمير ١٠٦ ، ١٠٩	بليساريوس بها ١٧٩
رينهات ٣٦٤	بزنطة (علاقتها) ١٧٩ ، ١٨٦ ، ٢١٦ ، ٣٣٤
(ز)	استيلاء اللومبارد ٣٣٩
الزراعة ٢٥ ، ٣٨ ، ٣٨٢	منحها للبابوية ٣٣٩
زنوبيا ٢٥	تحت حكم ثيودوريك ١٢٤
زينون (الإمبراطور) ٣٧ ، ٧٢ ، ١٠٠ ، ١٧٧	الراين (حدود) ١٥ ، ٤٠ ، ٧٧ ، ٣٥١ ، ٨٩
زيوس ٣٠	الراطازات ٣٠
(س)	الرفيق ٣٨٤
سايليوس ٦٩	

السوييف ٧٦، ٧٧، ٨٩	الساسانيون ٢٠٤، ٤٠٨، ٢٤٩
سياجر يوس ١١٤	سالفيان ٥٦، ٣٨٨
سيد الجند ٥١، ٨٤، ١٠٥، ١٢٤،	سالونيك ٢٩٥
١٧٧	سامو ٢٩٦
سيدونيوس ٧٤، ٨٣، ١٢٢،	ستيفن (البابا) ٣٤٠
٣٦٠، ٣٦٩	سجسموند ١٢٩
السيرك ١٤٩، ١٥٢	سرجيوس ٢٣٤
سيفيروس ٩٢	سرميوم ٩٨، ١٢٩
سيلان ١٨، ٦٢	سكسونيا ٣٤٩، ٣٥٢
سيماخوس (البابا) ١٣٨	السكسون (مرسوم إعلان التسليم) ٣٥١
سيماخوس (السناتور) ١٣٩	السكسون (الساحل) ٤٠
سيماخوس (زعيم الوثنية) ٦٦، ٦٧	السناتو (مجلس الشيوخ) ٤٩،
سينيسيوس	١٢٤، ١٤٣
(أسقف برقة) ٤٣، ٧٤	سقيط ٧٣
(ش)	سمعان العمودي ٦٧
شارل مارتل ٣١٥، ٣١٧، ٣٢٨،	سوريا ٢٢
٣٣٠، ٣٣٩	لغتيا ٢٠
شرلمان ١٥٦، ٢٨٦، ٣٤٠،	تجارتها ١٦، ١٧، ٢٦، ٣٧٥
يا بيطاليا ٣٤٤	سكانها ٢٠
تويجه ٣٤٦	منتجاتها ١٥
حروب ٣٤٨، ٣٥٥	قوميتها ١١٠
حكومته ٣٥٦	غازات الفرس ١٨٩، ٢٠٨،
خلقه ٣٦٩	٢٠٩، ٢٣١
بلاطه ٣٦٤، ٣٦٨	الفتح الإسلامي ٢٤٧، ٢٥٠،
وفاته ٣٦٩	٢٦١
سياسته ٣٧٠، ٣٧١، ٣٨٩	سولومون ١٧٥

(ع)	شيشرون ١٨٥
عبادة الإمبراطور ٣٠	الشيعة ٢٦١
العباسيون ٢٦٤	شيلبريك ٣١٢
عثمان ٢٥٩	(ص)
العرب ١١٣ ، ٢٥٠ ، ٢٦٥	الصرب ٢٩٨ ، ٣٠٥
على بن أبي طالب ٢٦٠	الصقالبة ٢٩٨ ، ٣٠٥
عمر بن الخطاب ٢٥٩	على اليريب ٧٦ ، ٢٩٣
عمر بن العاص ٢٥٣	تحت القوط الشرقيين ٩٧
العملة (الرومانية) ١٦٠ ، ٢٦ ، ٣٧٥	بالبلقان ١٨٩ ؛ ٢٢٨
(غ)	تحت الآفار ٢٦٥
غالة ١٦ ، ٢١ ، ٢٥ ، ٤٧ ، ٧٧ ، ١٠٨	توسهم ٢٩٥
(ف)	على الإلب ٣٥٢
فارس ٢٠ ؛ ٤١ ؛ ١١٠	صناجلة ١٢٤
أثرما في روما ٢٦ ، ٤٨ ، ١٥٧	الصور (تخطيطها) ٢٠٢
جستين وجستنيان ١٦٠ ، ٢٠١ ،	صوفيا (كنيسة القديسة) ١٤٣ :
٢٠٢ - ٢١٠	١٥٣ ، ١٥٥
هرقل ١٣١	الصين ١٨ ، ١٦٠ ، ٢٥١ ، ٣٧٤
الفتح الإسلامي ٢٤٧ ؛ ٢٤٩	(ض)
في حكم العباسيين ٢٦١ - ٢٦٢	ضريبة ٥٤
فاروس ٨٥	الضيافة ١٨٨ ، ١٢٤ (أنظر استضافة)
فاكوندوس ٢٠١	الضيعة (ضياح) ٢٨٢ ؛ ٣٨٥
فالز ٣٧	(ط)
فالتنيان الثالث ٣٧ ، ٤١ ، ١٠١ ،	الطبقات الاجتماعية ٣٨٣
١٠٦ ، ١٠٧	الطبيعة الواحدة (مذهب) ٦٨ ،
فاليريان ٢٤	٧٢ ، ١٧١ ، ١٩٧ ، ٢٣٠
الفرات ٤٣	طرايزون ٢٧٢

الإسكندري ١٥٩
الكتلى ٣٢٨
الميروفنجي ١٢٠ ، ١٥٦ ، ١٥٨ ،
٣٢٣
البيزنطى ١٥٥ ، ١٥٩ ، ١٦٨ ،
٣٩٢
القوطى ١٥٨
الإيراني ١٥٨ - ١٥٩
الإسلامى ٢٧٥
الرومانى البريطانى ٢٩٠
الانجلى سكسونى ٢٩١
الكارولنجى ١٥٦ ، ١٥٩
المسيحى ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٧٨
الخلاصة ١٥٥
فوجل (معركة) ١٢٩ ، ١٣٥
فوقاس ١٨٧ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨
فيجيليوس ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٠
فيدياس ١٤٧
الفيكنج ٨١ ، ١٩١
(ق)
القاديسية (معركة) ٢٤٦ ، ٢٥٠
قانون جستنيان ١٩١ - ١٩٢
القانون القبلى ٣٨٦
القانون الكارولنجى ٣٦٠
القانون اللومباردى ٣٣٣
قرطاجة ٩٣ ، ٢٠ ، ١٧٤ ، ٢٣١ ،
٢٥٤

فرانكفورت (مجمع) ٣٤٥
فرجيل ١٨٥ ، ٣٦٤ ، ٣٦٩
فردان (معاهدة) ٣٧٢
فرفوربوس ١٢٧
الفرنجية ٤١ ، ٨٣ ، ٨٨ ، ٣٠٧
الساليون والريواريون ٨٩ ، ١٥٥
على الراين ٧٥ ، ٨٩
فى غالة ٧٦ ، ١١٣
غارتم الإيطالية ٢١٣
القرن السادس إلى السابع
٣٠٧ - ٣٢٣
القرن الثامن ٢٨٨ - ٣٠٢
فرنسا
القرن الثالث ٢٢ - ٢٣
الوندال بها ١٠٦
فتح الفرنجة ١١٣
الميروفنجيون ١١٦ - ١٢٢
القرنان السادس والسابع
٣٠٧ - ٣٢٥
الكارولنجيون ١٥٤ - ٣٧٠
فسبازيان ٨٥
الفصول الثلاثة ١٩٩ ، ٢٠٠
فم الذهب (يوحنا) ٦٣
الفلاح الصغير ٦٠ ، ١٨ ، ٣٢٢ ، ٣٨٣
فلافيانوس ٦٦
الفن

غزواتهم ٨٤-٨٩، ١١٠	قسطنطين الأكبر ٤٤، ٢٦، ٦٠،
بفرنسا وأسبانيا ١١٣، ١٣٣، ٣٢٦	٢٢٠، ٣٧٨
فتح المسلمين لهم ٢٥٤	منحته ٣٢٥، ٣٤١، ٣٤٩
قباذ ٢٠٨	قسطنطين الخامس ٣٠٥
القيروان ٢٢٥	القسطنطينية
قيصر ٧٥، ٧٨	تأسيسها ٢٨
قيصريوس ١٣٤، ١٣٦	نموها ٣٩
(ك)	أوليتها الإكليروسية ٣٩
كتاب المشبكات ٧٢، ١٥٦، ٣٥٨	مجمعها الديني ٧٠
السكرولنجيون ٣١٢-٣١٨،	أزمتها ضد الجرمان ٨٤، ١١٠
٣٣٩-٣٥٣	وصفها ١٤٦-١٤٨، ١٦٤-١٦٨
كاسيودوراس ١٢٦، ١٨٥، ٢٢٧	حصار الآفار والفرس لها ١٦٨،
كرا كلا ٢٠	٢٣١-٢٣٣
السكروات ١٩٨	الحصار الإسلامي ٢٥٧، ٣٠٠
كريسافيوس ٧٢	قسطنطين (المختصب) ٤٢
كسرى ٢٠٨، ٢٢٨، ٢٣٣	قسطنطيوس (القائد) ٨٤، ١٠٨
الكلت (الفن) ١٦، ٥٥	القلزم ١٦١
الشعوب ٧٥	القوط الشرقيون
الزراعة ٣٨٠	على الدنستر ٧٦
كلوديانوس (الشاعر) ٣٩، ٦٧	بإيطاليا ١٣٨
كلوديوس ٥٧	أصلهم ٧٥
كلوفيس ١١٤، ١٢١، ١٢٦، ١٣٧،	تحت الهون ٩٣
٣٠٧، ٣١٧، ٣٢٦، ٣٧٢	غزواتهم ٩٧، ١٠٠، ١١٣
كوزماس ١٦١، ١٦٢، ٢١٩	بإيطاليا ١٧٧
كولخيس ٢٠٥	القوط الغربيون
كولومبا ٣٢٧	على الدانوب ٨٤، ١١٣

كويبتليان ١٨٥	مجمع ترولا ٣٢٧
(ل)	مجمع فرانكفورت ٢٤٥
لازيكا ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٩	مجمع اللصوص ٧١
لغة ٦١، ٢٢٣، ٣٣٢	مجمع نيقية ٦٨، ٦٩، ١٣١، ٢٤٥
لورانس ١٢٦	مجمع هويتبي ٣٢٩
اللومبارد ٧٦، ٨٢، ٢١٣	محمد (ص) ٢٣، ٢٤٣، ٢٤٥، ٢٧٠
بايطاليا ٣٣١	المدائن ٢٦٦
البابوية ٣١٧، ٣٢٦، ٣٣٣	المدينة ٢٤٥، ٢٥٩
فتح الفرنجة ٣٣٩	مرسوم إعلان تسليم السكسون ٣٥١
لونجينوس ٢٠٢	مرسيا ٣٢٩، ٣٦٦
لويس الورع (التي) ٣٧٠، ٣٧٣	مرقيان ٦٣
ليبانوس ٦٥	مزدك ٢٠٨
ليجير ٥١٤	المسيحية ٢٨
ليسيبيوس ١٤٧	مصر ٢٢
ليو الإيسوري ٢٥٨، ٢٩٩، ٣٠٠؛	التجارة والزراعة ١٥ — ١٨
٣٠٦، ٣٦٧	٢٧٠، ٥٥
ليو الكبير (البابا) ٧٢، ٩٧، ٣٨٨	السكان ٢٠ — ٢١
ليوتبراند ٣٦٧، ٣٣٩	الدين ٢٥ — ٢٦، ٧٠
(م)	الثقافة ٢٠، ٥٥
ماجوريان ٦٠، ١٠٩	النظام الإداري ٦٠، ٢٦٢
ماراتون ٢٤	الديرية ٧٤
مارتيال ٦٣	التبشير البين نطى ٢٠١
ماركوس أوريليوس ٢٣	الفتح الإسلامي ٢٣١، ٢٥٠
ماركومان ٨٩	الفتح الفارسي ٢٣١
المتربرون (انظر برابرة)	الفتح الفاطمي ٢٦٢
مجلس الشيوخ (في سناتو)	معاوية ٢٦٠

نيكيثيوس ١٢١	المغاربة ٤٣
(أ)	مقدم الجند (في سيد)
هادريان ١٢٢، ٣٦٦	مقدونيا ٤١، ٧٦
الهرطقة (الهرطقة) ١٩٥	مكة ٢٤٣، ٢٤٥
هرقل ١٤٨، ٢٠٠، ٢٤٨، ٢٣٣	موريك (معركة) ٩٦، ٩٧، ١٠٧
٢٥٠، ٢٩٩، ٣١٣	موريقيوس (موريس) ٢٠٤
هرقلية (أسقفية) ٣٩، ٧٠	٢٢٢، ٢٢٨
هرون الرشيد ٢٧١، ٣٦٨	مومسن ٤٩
هلدبراند ٣٤٧	ميدان السباق ١٤٣، ١٤٦، ١٤٩
هلدياد ١٧٧	الميروفنجيون ١١٧، ٣٠٧، ٣١٥
الهلليفتي ١٦	(ن)
الهند ١٨، ٢٥	نارسيس ٤٥، ١٧٩، ١٨٣، ٢١٣
هوراس ٦٣، ٨٥	نحل الخفايا والأسرار ٢٨
الهون ٤٢، ٧٥، ٨٣، ٩٣، ١١٠	الفساطرة ومبشروهم ٢٢٨
٢٠٤	نصيين ١٦٣
هوزريك ١٣٣	نظار القصر ٣١٣
هونوريوس ٣٧، ٣٨، ٤٢، ٥١	النقابات ٥٧، ٢٢٠
٨٧، ١٠١، ١٠٦	نفس ٦٧
هويثي ٣٢٩	النوباد ٢٠٢
هيرودوت ٢٦٧	نورثمبريا ٢٢٩، ٣٦٦
الهيرول ٧٦، ٩٨، ١٢٩	النورمان ٢٩٢
(و)	نوستريا ٢٨٥، ٢٩٠، ٣١٤
واليا ٨٨	نوسطوروريوس ٧٠
الوثنية ٢٩، ١٩٥، ١٩٦، ١٧٤	نيبوس ١٠٩
٢٢٤	نييلونجتلد ١٠٨
وحدة طبيعة المسيح ٦٨، ٧٢	نيقا (فتن) ١٦٩

(ى)	وسكس ٣٦٦
اليرموك ٢٤٧ ، ٢٥٠	الوندال ٧٥ ، ٧٦ ، ٨٨ ، ١٠٦
الين ١٦٠ ، ٢٠٧ ، ١٤١ ، ٢٧٠	على الراين ٤٠
اليهود ١٩٧	على اللعانوب ٩٠
يوتروبيوس ١٠٥ ، ١١٠	في غالة وأسبانيا ٧٥ ، ٨٩
يوتيوخوس ٧١	غزواتهم ٨٩ ؛ ٩٨
يوتاريك ١٣٠ ، ١٣٨	غاراتهم على صقلية ٩٨
يوحنا التروجلي ١٧٥	علاقتهم بتيودوريك ١٢٩
يوحنا القبادوقى ١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٩٠	بإفريقية ٥٧ ؛ ١٣٢
يودوكسيا ١١٠	علاقتهم بجستنيان ١٤٦
يوريك ١١٤ ، ١١٦ ، ١٣٣	ويتيجيز ١٨٠
يوليوس نيبوس ٥٠	ويدوكند ٣٥١